

الإيمان في الحقيقة الإسلامية

د. محمد عبد الله

مكتبة دار الفقه



اهداءات ٢٠٠٢

د/ محمد سيد احمد المسير

القاهرة

الدكتور
محمد سعيد محمد الحسني

الاعتقاد في العقيدة الإسلامية

دار الاعتدال

للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع جيسى حجارى - القاهرة
٣٥٥١٧٤٨ - ٣٥٤٤٧٤٨ - فاكس ٣٥٤٦٠٣١
ص.ب. ٤٧٠٠ القاهرة - الرمز البريدى ١١٥١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ..
أما بعد :

فالعقيدة الإسلامية هي الدين القيم ، والفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهي في سموها وجلالها وتأخيرها مع العقل ، واستنهاضها لأولى الأبواب ، ولفتها الأنظار إلى آيات الأنفس والآفاق .. تعبر بجلاء عن النبوة الخاتمة ، والرسالة العامة التي بعث الله تعالى بها سيدنا محمداً ﷺ رحمة للعالمين ..

إن عالم اليوم الذي تصارعت فيه القوى والمذاهب ، ووصل إلى درجة التشبع المادي الرخيص ، أصبح يتلهف على عقيدة توازن العلم ، وتهب السعادة للنفس الإنسانية ، وتتسامى بعواطف الإنسان وغرائزه إلى آفاق الملأ الأعلى ..

ولن تكون تلك العقيدة إلا عقيدة الإسلام ، الذي ختم الله به الرسالات ، وأتم به النعمة ، ورضيه ديناً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

وفي نور هذه العقيدة تأتي هذه الدراسات « الإلهيات في العقيدة الإسلامية » ، تتوخى صفاء الفهم للقرآن المجيد والسنة المطهرة ، في إطار يقظة الفكر ووعي البصيرة وإخلاص النية ..

وجاءت هذه الدراسات في فصول أربعة على النحو التالي :

الفصل الأول : وجود الله تعالى وتوحيده :

وبدأ هذا الفصل بآيات الأنفس والآفاق - كما حكاه القرآن برهاناً

ساطعاً ، ونوراً مبیناً على قضية القضايا وحقيقة الحقائق والحق الأعلى ،
وسقنا تسعة نماذج هي :

- ١ - أطوار الجنين
- ٢ - أطوار حياة الإنسان .
- ٣ - آية الليل والنهار .
- ٤ - آية الشمس والقمر .
- ٥ - آية النوم .
- ٦ - آية الدواب والطيور .
- ٧ - آية الأرض .
- ٨ - نعمة الماء .
- ٩ - الجبال الراسيات .

ثم تلا ذلك الحديث عن ضرورة الإيمان للحياة في جوانبها العلمية
والنفسية والأخلاقية والتاريخية .. الأمر الذي يؤكد أن الإيمان صوت
الفطرة ، ونداء الواجب ، ومشعل الحضارة ..

ثم حددنا المفهوم الإسلامي للوحدانية كما يلي :

اللَّهُ تعالى واحد في ذاته ، فلا تعدد في الآلهة ولا تركيب في الذات .
واللَّهُ تعالى واحد في صفاته ، فلا تعدد في صفة من صفاته ، ولا تشابه
بين صفات الخالق وصفات المخلوق .

واللَّهُ تعالى واحد في أفعاله ، فلا يقبل المساعدة أو المشاركة أو
المساندة ، وكل ما في الوجود فهو أثر من آثار قدرة الله وحده .

واللَّهُ تعالى هو وحده المعبود الحق ، فيجب أن يطاع فلا يعصى ، وأن
يشكر فلا يجحد ، وأن يذكر فلا ينسى ، حتى يكون الدين كله لله .

وقد انحرف عن هذا المفهوم الإسلامي ، اليهود والنصارى والمجوس ،
وعباد الأصنام ، والصابئة ، والقائلون بالحلول والاتحاد .

وكانت لنا وقفة مع دلائل التوحيد في سورة البقرة - كنموذج
لدلائل القرآن - تلك الدلائل التي تخاطب العقل والقلب معاً ، وتناجي
الفطرة في أعماقها البعيدة ، وتنادي النفس في خلجاتها القريبة ، وتشهد
الإنسان إلى مظاهر الجلال والكمال والجمال العليا .

ثم عرضنا لجدل المتكلمين والفلاسفة ، وناقشنا دليل الحدوث ، ودليل
الإمكان ، ودليل التوارد والتمايع .

الفصل الثانى : الأسماء والصفات :

ذكرنا فى البداية أهمية الأسماء الحسنى لله تعالى كمعلم هداية ، وموقف حكمة ، ومناط تفكير ، ومجال تأمل فى الدلالة على أكمل الصفات وأجلها وأعلاها لربنا عز شأنه .

ورجحنا أن الأسماء الحسنى لا تنحصر فى عدد ؛ لأن كمالات الله لا تنتهى ، وكان لنا ميل إلى أن الاسم الأعظم ليس لفظاً مخصوصاً ، ولكنه موقف دعاء ينقطع فيه القلب عن الخلق ، ويعظم اتصاله بالملأ الأعلى ، ويقوى الرجاء فى الله وحده .

ثم فصلنا القول فى الصفات الإلهية ، وأكدنا أن العقل والنقل يلتقيان على وجوب صفات الجلال والكمال لله سبحانه ، لكن شطحات الفكر دفعت علماء الكلام إلى جدال طويل حول مباحث لا يدركون كنهها ، ولا يعرفون حقيقتها ، ولا يستطيعون لها حلاً مثل : هل الصفات الإلهية عين الذات أو غير الذات ، أو لا عين ولا غير ؟

وتكلمنا عن التشابهات فى الصفات ، وعرضنا لمذاهب التفويض والتشبيه والتأويل والإثبات بضوابطه ، وانهينا إلى أن المذاهب الاجتهادية فى الصفات مقبولة ، ولا تثقل حرجاً فى الدين ، اللهم إلا مذهب التشبيه ، فإن الأكرم للعقل والأصح فى الدين هو نيل هذا المذهب ، فإن المشبهة - عند حسن الظن - أغبياء جهلاء ، وعند سوء الظن - عملاء دخلاء !!

وكان لنا وجهة نظر حول الذين يخوضون فى الصفات الخيرية ويجمعونها ويجعلونها محور العقيدة وأساس الدين ، فهؤلاء يفتقدون الحس اللغوى البليغ ، وتنقصهم الخشية من الله تعالى .

* * *

الفصل الثالث : رؤية الله تعالى :

اختلف الفرقاء المسلمون فى رؤية الخلائق لربهم سبحانه وتعالى ، وكان موضع الخلاف ومحل النزاع متعدد الجوانب :

— هل رؤية الله تعالى جائزة عقلاً أو مستحيلة ؟
هذه النقطة تعد مدخلاً أساسياً لفهم نصوص القرآن والسنة ، وبناء
على جواب هذا السؤال يطرح سؤال تالي وهو :
— هل تقع رؤية الخلائق لربهم سبحانه أو لا ؟
لأنه على فرض جواز الرؤية فقد لا تقع ، لأنه ليس كل جائز واقعاً ،
فالواقع يحتاج إلى دليل شرعى يؤكد الوقوع .
ولو سلمنا برؤية الخلائق لربهم سبحانه فإن هناك تساؤلات تتوارد :
من يكون الرائي ؟ هل هم المؤمنون فقط ، أو الخلائق أجمعون ؟
وأين تقع الرؤية ؟ هل فى الدنيا والآخرة ، أو فى الآخرة فقط ؟
وإذا وقعت الرؤية فى الدنيا فهل تقع يقظة أو مناماً ؟
وإذا وقعت فى الآخرة فهل تقع فى الجنة فقط أو فى مواقف خاصة
من مواقف الحشر يوم القيامة ؟
هذا هو مجمل الخلاف والبحث .

وقد انتهينا إلى أن الخلاف فى مسألة الرؤية خارج عن دائرة الأصول
التي يعلّق بها الإيمان والكفر ، وأن كل الأدلة — من جانب المثبتين
والنافين — هى أدلة ظنية ، تقوم على الأولى والأرجح والأقرب لفهم
الفريق المجادل ، ولا علاقة لها باليقين الذى هو أساس الإيمان ..
وتفسير النصوص الشرعية بما يؤيد الرؤية أو ينفيها له وجاهته الشرعية
واللغوية ، وعملية الترجيح تقوم على التدقيق العقلى والحس الدينى ،
وقد نرجح أحياناً جانب النفى ، وقد نميل حيناً إلى جانب الإثبات .

* * *

الفصل الرابع : القضاء والقدر :

تبعنا مادة القضاء والقدر فى البيان القرآنى ، وتكلمنا عن النشأة
التاريخية لهذه القضية على عهد رسول الله ﷺ ، ثم أجمالنا القضية فى
أفقيين :

— أفق العلم الإلهي .

— أفق التكليف الإنساني .

وقد حرص البعض على الأفق الأول وغالى فيه حتى نسي صحة التكليف وحتمية المسئولية ، وجنح البعض إلى الأفق الثانى وركز عليه حتى غفل عن ضرورة إثبات الكمال المطلق لله عز وجل فى تصريف الكون والكائنات .

وتبلورت الاتجاهات الفكرية فى هذه المذاهب :

الجبرية — القدرية الأولى — المعتزلة — الأشاعرة .

وجاءت خاتمة هذا المبحث بعيدة عن المذاهب ، تؤكد أن الحق أكبر من أن يستوعبه مذهب واحد بعينه ، وأن الذين يتعصبون لأى مذهب بأجمعه إما عامة أو أنصاف علماء .

ورفضنا مذهب الجبر ومذهب القدرية الأولى ، وقلنا : إن أفعال الله تعالى مبنية على الحكمة ، وأن الكون كله قائم على تدبير حكيم ، وأن الإنسان وسط هذا الكون ليس مطلق السراح بل هو محكوم بنواميس ثابتة تحيط به وتقع عليه كالصحة والمرض ، والليل والنهار ، وعمل أجهزة جسمه ، ولا يكلف الإنسان بها ولن يحاسب عليها .

أما التكليف والأمر والنهى ، والشرائع والأحكام فهى وحدها التى يقف الإنسان حيالها مختاراً يفعل ما يشاء بما منحه الله من طاقات وما هيا له من أسباب ، وما مكن له من قوى .

وقد أراد الله للإنسان هذا الموقف وكلفه على أساس منه ، وفى كلا الحالين أمام التكليف الشرعى بالإيمان أو الكفر ، والطاعة أو المعصية لا يخرج الإنسان عن المراد ؛ لأن الله تعالى قد منحه الحرية ولو شاء الله سلبها منه ما منعه أحد ، لكنه جل شأنه لم يشأ للإنسان أن يكون مجبوراً .

وعلم الله الشامل إنكشاف وليس تأثيراً ، فلا يلزم من العلم الأزلى حمل الله الناس : لى هذا العلم فى مجال التكليف وإلا أصبح إلقاء .

ومقتضى الانكشاف كما يليق بجلال الله وكماله أنه لا يتخلف من حيث هو الكشاف تام ، وليس من حيث إنه حمل على المعلوم .
وأولاً وأخيراً نردد من أعماقنا قول الخليل إبراهيم عليه السلام :
﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَاشِعًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) .

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير	مكة المكرمة في
أستاذ العقيدة والفلسفة - جامعة الأزهر بالقاهرة	١٥ من ذي القعدة ١٤١٨ هـ
وجامعة أم القرى بمكة المكرمة	١٢ من مارس ١٩٩٨ م

* * *

(١) سورة الأنعام الآية ٧٩ .

الفصل الأول

وجود الله تعالى وتوحيده

- آيات الأنفس والآفاق .
- الإيمان ضرورة حياة .
- توحيد الله تعالى .
- جدال في الله .

المبحث الأول

آيات الأنفس والآفاق

- ١ - أطوار الجنين .
- ٢ - أطوار حياة الإنسان .
- ٣ - آية الليل والنهار .
- ٤ - آية الشمس والقمر .
- ٥ - آية النوم .
- ٦ - آية الدواب والطيور .
- ٧ - آية الأرض .
- ٨ - نعمة الماء .
- ٩ - الجبال الراسيات .

آيات الأنفس والآفاق

يحلوا للبعض عند مناقشة قضية وجود الله تعالى أن يقول : ابتعد عن الاستشهاد على تلك القضية بنص قرآنى .

وذلك لمزيد من النزاهة والحيدة والعقلانية ، ولما رسخ فى أذهان الكثيرين من التفرقة بين النص الدينى والدليل العقلى ، إذ الأول مبنى على التسليم بلا مرأى ، والثانى مبنى على الجدل والامترأى .

وفى الحق فإن هناك لبساً واضحاً وحلطاً كبيراً بين موقفين :

موقف الكتب المقدسة قديماً ، وموقف القرآن المجيد ، فالكتب المقدسة السابقة اقتصرت على الترغيب والترهيب والوصايا الأخلاقية واكتفت بالإحالة - فى مجال العقائد - على ما ظهر من المعجزات الحسية للأنبياء الذين بعثوا إلى أقوامهم خاصة .
والأمر مختلف تمام الاختلاف بالنسبة للقرآن المجيد ، فهو نفسه المعجزة التى تتراءى للعالمين صباح مساء ، تحمل دليلاً معها ، ضرورة أنه الكتاب الخالد للنبي الخاتم .

ومن هنا فإن القرآن كتاب عقيدة وشريعة وليس به قضية بلا برهان ، أو دعوى بلا بينة ، وهو يخاطب العقل ويحتكم إليه فى حال نقائه الفطرى . فالدليل القرآنى المساق تدليلاً على العقائد هو دليل عقلى فى المقام الأول قدم فى ثوب النص الدينى .

واقراً معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَبْتَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِبُ الرِّيَّاحُ وَالشَّحَابُ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

ألم تجمع هذه الآية الكريمة كل براهين العلم ودلائل العقل ؟

هل يعد مثل هذه الآية نصاً دينياً أو دليلاً عقلياً ؟

أليس من الأجدر أن نقول : إن هذا هو القرآن وكفى !!

﴿ .. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾^(١) .

فالعقل والإيمان - في منطق القرآن - توءمان ، لا يوجد أحدهما إلا بالآخر ، فلا عقل لمن لا دين له ، ولا دين لمن لا عقل له .

لقد ربط القرآن حسن التأمل وجودة الفكر بالعقلاء المؤمنين فقال : ﴿ .. فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾^(٢) .

وفقد العقل أو الإيمان هو فقد للإنسان نفسه ؛ لأنه لم يعد له الوجود المتميز الذي يستحق به التكريم والخلافة في أرض الله ، ومثل هؤلاء سماهم القرآن شر الدواب لأنهم لم يستخدموا وسائل المعرفة الصحيحة في الوصول إلى الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٣) .

وهؤلاء أنفسهم هم الكافرون الذين ستروا الحق وتمردوا على الحقيقة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٤) .

ومن هنا فنحن نسوق نمطاً من آيات الأنفس والآفاق - كما حكاها القرآن - برهاناً ساطعاً ونوراً مبيناً على قضية القضايا ، وحقيقة الحقائق ، والحق الأعلى وهو الله جل شأنه .

* * *

(١) سورة هود الآية . ١ .

(٢) سورة الطلاق الآية . ١٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية . ٢٢٠ .

(٤) سورة الأنفال الآية . ٥٥ .

١ - أطوار الجنين :

إن الإعجاز الخلقى فى الإنسان يفوق كل تصور ، وإن حسم الإنسان عجيب التكوين ، فكم لديه من الأعضاء الداخلية والخارجية !! وكم فيه من الغدد والأغشية !! وكم له من الأجهزة الدقيقة !!

إن بداية الإنسان خلاصة من الأغذية تولدت من التراب والماء مباشرة كالنباتات ، أو بطريق غير مباشر كالأغذية الحيوانية .

هذه الخلاصة من الأغذية تحولت إلى نطفة ، هذه النطفة الخاصة بالرجل تلتقى مع بويضة المرأة وتأخذ طريقها إلى الرحم ، ذلك القرار المكين ، ثم تعلق بالرحم وتعوص فيه .

ثم تنتقل هذه العلفة إلى طور آخر هو المضغة ، وهى فى الأصل قطعة لحم قدر ما يعضغه الإنسان .

وهذه المضغة منها ما هو كامل الخلقة وأملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك ، ويتبع هذا التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم ، وتتوالى عناية الله بالجنين فينشئه خلقاً آخر بنفخ الروح فيه ، وإبداع ظاهره وباطنه عجائب الخلق وغرائب التدبير فى سرعة نمو مذهلة ، إلى أن تحين لحظة المخاض فيجد الجنين طريقه ميسراً - بقدرة الله العلى الأعلى - فتنبض أجهزة الأم وتنبسط ، ويصاحبها ، إفرازات معينة حتى يستهل الجنين صارخاً على ظهر هذه الأرض .

أليس هذا إبداعاً تتقاصر دونه كل القوى وتقف أمامه كافة العقول فى دهشة وعجب !!

لا نملك إلا أن نقول : فتبارك الله أحسن الخالقين .

وإذا كنا نعجب من أطوار الجنين وهذا الإبداع المتقن ، فإن عجبنا يشتد ودهشتنا تبلغ مداها حين يكون ذلك قرآناً يتلى على سمع الزمن منذ أربعة عشر قرناً من بيعة أمية ، وفى عصر - تلت عصور - ولا معرفة لهم بعلم الأجنة !!

إنه وحى الله رب العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) .

٢ - أطوار حياة الإنسان :

تبدأ حياة الإنسان على ظهر الأرض بمرحلة الطفولة التي توصف بوصف عام هو الضعف ، ضعف الإدراك والسعى ، إلا أن الله جل جلاله غرس فيها آلات العلم وهياً لها أسباب النماء .

قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

ويستمر نماء الطفل حتى يصل إلى مرحلة الشباب التي تمتاز بالنضارة والقوة ونضج العقل ، وتأتى قمة هذه المرحلة فى سن الأربعين ، وهى كمال العقل والرشد والاستواء التام .

قال تعالى : ﴿ .. حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ... ﴾ (٣) .

ويعقب ذلك مرحلة الكهولة والشيخوخة ، وهى تنتهى عوداً إلى بدء ، من القوة إلى الضعف ، ومن الرشد إلى نعاس العقل .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (٤) .

هذه هى مراحل حياة الإنسان لكن هل يضمن كل امرئ لنفسه أن يمر بها جميعاً؟؟

(١) سورة المؤمنون الآية - ١٤ .

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٥ .

(٤) سورة الروم الآية - ٥٤ .

كلا .. إن المصير المحتوم - وهو الانتقال من هذه الدنيا - قد يواجه الإنسان طفلاً أو شاباً أو كهلاً أو شيخاً كبيراً ، ولا أحد غير الله يعلم متى يحين الأجل ، وتقف الإنسانية جمعاء حيرى أمام هذا الابتلاء الإلهى ، ونقرأ خاشعين قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

٣ - آية الليل والنهار :

يَعْمُ الله على الإنسان لا تُعد ولا تُحصى ، وهى لكثرتها ودوامها قد يعفل الإنسان عن تأملها ، فإن العادة تسقط الدهشة .

والعاقل هو من يتذكر دائماً آلاء الله ويتأمل باستمرار ما يحيط به من مظاهر القدرة الإلهية المدعة .

من تلك النعم التى قد ينساها المرء أو يتناساها - تعاقب الليل والنهار ، تلك النعمة التى يتوقف عليها حياة البشر والكائنات .

فقد جعل الله النهار معاشاً نسعى فيه ونجد ونحصل أرزاقنا ، وجعل الليل لباساً يسترنا بظلمته حتى نقطع الأعمال ونريح الأبدان ، ونسكن فى هدوء .. وهكذا فى تعاقب مستمر .

ولا أحد كلف نفسه الإجابة عن تساؤل هو :

ماذا يحدث لو أن الحياة بدورها ومستقبلها نهار دائم ١٢

هل يمكن أن يستمر وجود الإنسان ١٢

وماذا يحدث لو أن الحياة كلها ظلام دامس ١٢

هل يمكن أن يسعى الإنسان فى مناكب الأرض ١٢

حول هذه المعانى تأتى آيات من القرآن المجيد تلفت الأنظار إلى تلك النعمة الكبرى فتقول :

(١) سورة الواقعة الآية ٨٣ - ٨٧ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ ﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلًا تُبْصِرُونَ ﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ (١) .

ومن عجيب أمر الليل والنهار أنهما يختلفان بالطول والقصر في الأزمنة صيفاً وشتاءً ، ويختلفان بالمواقيت في الأمكنة ، فكل ساعة عيبتها فتلك في موضع من الأرض صبح ، وفي موضع آخر ظهر ، وفي موضع ثالث عصر ، وهكذا .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (٢) .

٤ - آية الشمس والقمر :

إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخضعان لغير إرادته سبحانه ، وهما في نظامهما المحكم لا يتبدلان ما دام هذا الوجود ، قال جل شأنه : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣) .

واقترنت حكمة الله أن تكون الشمس نهاراً ، والقمر ليلاً ، ولا أحد غير الله يستطيع تغيير نظام الكون ، وعندما حاح الملك إبراهيم عليه السلام وجرى بينهما حوار عام حول دلائل الألوهية : ﴿ .. قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ... ﴾ عدئذ صاح الملك : ﴿ .. قَالَ أَنَا أَخِي وَأُمِيتُ ﴾ ، وأتى برجلين محكوم عليهما بالإعدام فعفا عن أحدهما وأعدم الآخر .

وبداهة هذه صورة باهتة ليس فيها خلق الحياة ، ولا خلق الموت ، وكان الحوار أمام الجماهير الغوغاء وليس من شأنها التأمل والتروى ، فانتقل إبراهيم بسرعة إلى موقف آخر صريح : ﴿ .. قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

(١) سورة القصص الآية . ٧١ - ٧٣ .

(٢) سورة الفرقان الآية : ٦٢ .

(٣) سورة يس الآية . ٤٠ .

بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ .

إن الشمس والقمر يرتبط بهما مواقيت الناس في عباداتهم ومعاملاتهم ونعلم بهما عدد السنين والحساب ، قال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ^(١) : أى بحساب معلوم وتقدير سوى .

و ذات يوم انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ وصادف ذلك يوم مات ابنه إبراهيم ، فقال الناس : « انكسفت الشمس لموت إبراهيم » أى أنهم ظنوا أن كسوف الشمس في ذلك الوقت لون من ألوان الحداد على موت إبراهيم .

ولكن الرسول الإنسان - وهو في موقفه العصيب - لم ينس واجب الدعوة وضرورة تصحيح المفاهيم فقام مسرعاً يحرر رداءه حتى دخل المسجد وجمع الناس لصلاة جامعة ثم قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا الله حتي ينكشف ما بكم » .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٢) .

٥ - آية النوم :

النوم نعمة أسبغها الله تعالى على خلقه ، تمنح الإنسان طاقة يعاود بها نشاطه ويمارس بها أعماله ، فطبيعة الإنسان أنه يحتاج إلى الراحة ولا يستطيع مواصلة العمل بلا انقطاع ، ومن خلال عرض القرآن لآثار رحمة الله في الكون والكائنات ساق نعمة النوم ممتناً بها على بني البشر فقال :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ^(٣) .

فالإنسان ينام ليلاً ونهاراً ، بل إن نوم القملولة مستحب شرعاً ليستعين به المسلم على قيام الليل لمناجاة ربه ..

(٢) سورة الرحمن الآية ٥

(٤) سورة الروم الآية ٢٣٠

(١) سورة النقرة الآية : ٢٥٨ .

(٣) سورة فصلت الآية ٣٧٠

وهناك من الأعمال مالا يتقطع ليلاً ونهاراً ويتناوبه الناس في اليوم واللييلة ، كحراسة الثغور ، وحفظ المرافق العامة وإدارة بعض المنشآت والمصانع ، فمن يعمل ليلاً ينام نهاراً ، ومن يعمل نهاراً ينام ليلاً ..

وقد وصف القرآن المجيد النوم بأنه سبات أى قاطع للأعمال ، مريح للأبدان فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسَا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ (٢) .

وسمى القرآن الكريم النوم وفاة ، ويؤمن أن الله تعالى يقبض الأرواح عند النوم وعند الموت ، لكن الروح تعود لكامل تعلقها بالبدن عند اليقظة ، وتظل في عالم البرزخ بعد الموت .. فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

فالنوم أخو الموت ، واليقظة تشبه البعث ، وتلك آية متكررة تنبه الإنسان إلى حقيقة وجوده ، وضرورة الاستعداد للقاء الله ، والحرص على الاستقامة والطهر حتى يبعث مع السعداء في الجنة خالدين فيها أبداً .. قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

ولهذا علمنا الرسول ﷺ أدب النوم وأدب اليقظة . ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم فراشه فليفضه بصنفة (٥) توبه ثلاث مرات وليقل : باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وفي الصحيح أيضاً عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال ، قال رسول الله

(١) سورة الفرقان الآية : ٤٧ . (٢) سورة النسا الآية : ٩ .

(٣) سورة الرمر الآية - ٤٢ . (٤) سورة الأنعام الآية : ٦٠ .

(٥) الصنفة بفتح الصاد المهملة وكسر الود وفتح الفاء طرف الثوب .

ﷺ : « إِدْ أُتَيْتَ مُضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوعَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْجَعْ عَلَى شِقِّكَ الْاَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ : اَللّٰهُمَّ اَسْلَمْتُ وَجْهِيْ اِلَيْكَ ، وَفَوَضْتُ اَمْرِيْ اِلَيْكَ ، وَالْحَاثُ ظَهْرِيْ اِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً اِلَيْكَ ، لَا مَلْجَا وَلَا مَنْجَى مِنْكَ اِلَّا اِلَيْكَ ، اَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِيْ اَنْزَلْتَ ، وَبَنِيَّكَ الَّذِيْ اَرْسَلْتَ ، فَاِنْ مِتَ مِنْ لَيْلَتِكَ فَانْتَ عَلَى الْفَطْرَةِ ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ » .

أما دعاء الاستيقاظ من النوم فهو كما فى صحيح البخارى : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » ..

وخلال النوم يتراءى للإنسان عالم فسيح يتخطى حجب الزمان والمكان ، ويلتقى فيه الماضى والحاضر والمستقبل ، وقد يشف عن بشائر من وراء العيب ، وتظهر حقائق من المألأ الأعلى ..

ذلك العالم هو عالم الرؤى والأحلام ، وقد قال رسول الله ﷺ : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة ، والرؤيا ثلاثة : رؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه ، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم وليصل ولا يحدث بها الناس » .

وقد قامت دراسات وبحوث حول النوم والأحلام ، والشعور واللاشعور، والحس الباطن والظاهر ، والنفس والروح .. إلخ .

وكلها تدفعنا إلى اليقين بأن الله هو الخالق المدبر ، بيدع ما نبصر وما لا نبصر ، ويخلق ما قد نعرف أسرارهِ ونواميسهِ وما قد نقف أمامهِ حيارى .. !!

٦ - آية الدواب والطيور

خلق الله تعالى الدواب والطيور لحكم جليلة ومنافع عظيمة ، لو تأملها الإنسان لخر ساجداً لله ، مقراً بربوبيته ، خاضعاً لألوهيته ، خاشعاً لقداسته .. فالدواب والأنعام والطيور^(١) مسخرة للإنسان رغم كبرها أو صغرها ، وقربها أو بعدها ، وقوتها أو ضعفها .

(١) الدواب ما يذهب على الأرض ، قيل ماعدا الإنسان والطيور ، والأنعام هى الإبل والبقر والغنم والمعز .

وجعلها القرآن آية وبرهاناً على كمال القدرة الإلهية فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَزْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ (١) .

وجعلها نعمة تستحق التسكر وتستوجب الطاعة لله فقال : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَزْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ (٢) .

ودعا القرآن إلى التأمل فيها والبحث عن أسرارها فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (٣) . وقال : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (٤) .

ثم سلك القرآن هذه الدواب والأعنام والطيور مع منظومة الكون كله في تسبيح خاشع للخالق الأعظم ، وسجود مطلق للبارئ المصور ، وانقياد كامل لله رب العالمين . ولم يشد عن هذه المنظومة القدسية إلا الإنسان الظلوم الجهول الذي خان الأمانة ونقص العهد .. قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٥) .

وقال جل شأنه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦) .

(١) سورة غافر الآيات ٧٩ - ٨١ .

(٢) سورة الرحمن الآيات ١٢ - ١٤ .

(٣) سورة الملك الآية ١٩ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ١٧ .

(٥) سورة الحج الآية ١٨ .

(٦) سورة النور الآية ٤١ .

وللعلماء وجهان في فاعل « علم » . هما :

١ - علم (الله) صلاته وتسبيحه : أى أن الله يعلم صلاة وتسبيح كل شىء .

٢ - علم (هو) والضمير يعود على كل : أى علم كل من في السموات والأرض والطير كيف يصلى ويسبح لله سبحانه وتعالى .

كما أن للعلماء رأيين في معنى التسبيح هما .

١ - التسبيح المقالى : أى أن لهذه الكائنات تسبيحاً ودعاءً بلغة خاصة بها ، الله يعلمها .

٢ - التسبيح الحالى : أى أن هذه الكائنات دالة على تسبيح الله وتنزيهه ، وهى خاضعة خضوعاً مطلقاً لإرادة الله ومشيعته ولا تملك الخروج عن قصته وحكمته سبحانه .

وساق القرآن موقفاً إيمانياً على عهد سليمان بن داود عليهما السلام ، حين وقف الهدهد غير بعيد ، وأحبر سليمان بما غاب عنه ونخمى عليه من نبأ ساء ، وتعجب الهدهد عجباً شديداً من أمر عقيدتهم الفاسدة وسياستهم الخاطئة فقال : ﴿ إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۚ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۚ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يَخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ الثَّوْبِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

كما ساق القرآن موقفاً بالغ التحدى ارتبط بأضعف المخلوقات ، وهو الذباب ، وذلك حين دعا الآلهة المزعومة وعبادها الجهلاء أن يحلقوا ذباباً أو أن يستردوا ما يسلبه الذباب منهم ..

قال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٢) .

(١) سورة النمل الآيات ٢٤ - ٢٦ . (٢) سورة الحج الآية ٧٣ .

هذا وقد تحدث القرآن كثيراً عن منافع الدواب والأنعام والطيور في السلم والحرب ، في الحضر والسفر ، في الرخاء والشدة .

لقد أحل الله لحوم الأنعام وشحومها ، فقال : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ... ﴾^(١) .

وأخرج لنا ألباناً عذبة المذاق ، شهية الطعم ، غنية الفائدة فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾^(٢) .

وجعل من رحيق النحل شفاء وغذاء ، فقال : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٣) .

وهياً الله لنا من الجلود والأصواف الدفاء والجمال ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾^(٤) .

وذلل الله الخيل في ميدان القتال ، والحمير والبغال والإبل لحمل الأثقال ، والكلاب للصيد في الفياض والخلاء .

فمن الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟

ومن الذي أبدع الكائنات ونوعها ؟

ومن الذي ألهم المخلوقات وسخرها ؟

ومن الذي أحصى كل شيء عددا ؟

إنه الله الواحد القهار .

(١) سورة المائدة الآية : ١ .

(٢) سورة النحل الآية . ٦٦ ، والفرت ما في كرش الحيوان من فصلات الطعام .

(٣) سورة النحل الآية - ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) سورة النحل الآية ٨٠ .

٧ - آية الأرض :

وحه القرآن بصائر دوى التمييز إلى بداية الخلق للأرض والسماء ، ونشأة الكون فقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) .

وذكر القرآن مراحل الخلق وجعلها ثلاثاً متساوية فى الزمن :

- ١ - مرحلة خلق الأرض فى يومين .
- ٢ - مرحلة خلق الكائنات وتهيئة الكون لحياة البشر فى يومين .
- ٣ - مرحلة خلق السماء والملكوت الأعلى فى يومين .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً ^(٢) لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ^(٣) .

وأشار القرآن إلى تشابه خلق الأرض والسماء ، فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... ﴾ ^(٤) .

وهذه الإشارات القرآنية تفتح آفاقاً واسعة أمام البحث العلمى ، والدراسات الكونية التى تنقب عن نشأة الكون وبداية الخلق وأسرار الطبيعة ، وبواميس الكائنات .

فما المقدار الزمنى لليومين ؟

-
- (١) سورة الأنبياء الآية : ٣٠ .
 - (٢) سواء أى تمت عملية الخلق فى أربعة أيام كاملة مستوية ، وقوله للسائلين . أى هذا الجواب لأهل من سأل فى كم خلقت الأرض وما عليها ؟
 - (٣) سورة فصلت الآيات : ٩ - ١٢ .
 - (٤) سورة الطلاق الآية : ١٢ .

وكيف انفصلت الأرض عن السماء ؟

وما مفهوم متلية الأرض للسماء ؟

وكيف تهيأت الأرض لسكنى البشر ؟

تساؤلات لم يقطع العلم بالجواب عنها ، وسيظل يواصل مسيرة بحثه جيلاً بعد جيل ، ولن يعرف الكلمة الأخيرة .

والإنسان في وجوده على ظهر هذه الأرض ليس هو الأول ، وليس هو الآخر ، بل سقته أجيال وكائنات ، ويلحق به أجيال وكائنات ، يخلف بعضهم بعضاً في حركة دائمة لا تعرف الانقطاع حتى يأتي وعد الله ، ويجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .

وهذا الاستخلاف المتوالى قد يكون نتيجة سنة إلهية كونية هي الموت ، أو نتيجة سنة إلهية عقابية هي عذاب الاستئصال الذى يلاحق المستكبرين الطغاة .

وقد وصف القرآن الكريم البشر بأنهم خلائف فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وأكد القرآن الكريم ضرورة أخذ العبرة من التاريخ ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۚ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وأعلن القرآن الكريم الحقيقة الكاملة وهي أن البداية من الله ، وأن النهاية إلى الله ، وأن الكون بأجمعه والكائنات كلها تفنى ، وأن البقاء الحقيقى المطلق إنما هو لله وحده ، فقال : ﴿ .. وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٣) .

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٥ .

(٢) سورة يونس الآيات ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٠ .

﴿.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(١) .

إن الأرض وضعها الله لخلقها ، وجعلها ذلولاً هيئة صالحة لاستقرار الشر واستمرار حياتهم ، ومهداها تمهيداً طيباً مباركاً موائماً لمصالح الأحياء ، وهي وعاء ومهاد وفراش يضم هؤلاء الأحياء أثناء حياتهم وبعد مماتهم ، فهي المستقر والمستودع .. قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۚ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴾^(٢) .

إن هذه الآية الكبرى لم تكن مصادفة ولا عبثاً ، وإنما هي تدبير العليم الحكيم ، والذين يحاولون تشويه الفطرة والانحراف بالبحث العلمي ويطلقون دعاوى كاذبة حول بدء الخلق وتفسير الحياة بمفهوم مادي - هؤلاء يحددون أنفسهم أولاً ، ويظلمون العلم ثانياً ، ويضللون البشر ثالثاً ، ويقعون في خطأ عقدي وفكري لا حصر لها .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾^(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۚ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٤) .

ويأتى السؤال الأهم ، ويقترن به صوت الفطرة ينادى بالجواب الصحيح :
﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٥) .

٨ - نعمة الماء :

الماء عنصر ضروري لكل كائن حي ، وقدرة الله فائقة في تيسيره لبنى

(١) سورة القصص الآية ٢٨ .

(٢) سورة المرسلات الآيات ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) سورة ص ، الآية : ٢٧ .

(٤) سورة الدخان الآيات ٣٧ ، ٣٨ .

(٥) سورة المؤمنون الآيات ٨٤ ، ٨٥ .

الإسان ، فالماء يتبخر من البحار والمحيطات ، ويتصاعد فى أجواء الفضاء فتحمله السحب ، ويسطره الله فى السماء كيف يشاء فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء .

وقد أطلق على السحاب فى القرآن الكريم لفظ السماء ، وهى كل ما علاك ، قال جل جلاله : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ... ﴾ ^(١) ، كما أطلق عليه لفظ المعصرات وهى السحاب الحملة بالماء تعصر فيخرج منها الماء ، قال سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ ^(٢) .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ماء المطر لا يضيع لوقته ، ولا يذهب سدى ، وإنما قدرة الله سلكته ينابيع فى الأرض ، وهى العيون والمجارى المائية حتى ينتفع به الناس على مدار حياتهم .

كما شاءت إرادة الله أن ينزل الماء بقدر حاجة البشر لا بزيادة فيحصل الطوفان ، وبلا نقص فيحصل القحط العام ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ ^(٣) .

لكن لتذكر دائماً أن القادر على المنح قادر على المنع ، وأن توافر النعمة لا يحول دون سلبها متى توجهت الإرادة الإلهية ، ولهذا قال جل شأنه فى ختام الآية السابقة : ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ .

وفى تعجب عجيب يوجه القرآن المجيد تساؤلاً لبنى البشر هو :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ ^(٤) بداهة لا تملك إلا أن نقول : الله رب العالمين .

إن من مظاهر نعمة الله فى الماء أنه يصادف الأرض القاحلة الجرداء فتتحول بقدرة الله المبدعة إلى أنواع شتى من النباتات ، مختلفة الأشكال والأحجام ،

(١) سورة ق ، الآية : ٩ .

(٢) سورة النبا الآية : ١٤ .

(٣) سورة المؤمنون الآية : ١٨ .

(٤) سورة الملك الآية : ٣٠ .

والطعوم ، والروائح ، قال جل ذكره : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْجَاوِرَاتٍ وَجَنَاحٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَيْنَهُمَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) .

لقد نبه القرآن الكريم إلى ضرورة التأمل في هذه الظاهرة وجعلها دليلاً على قدرة الله على بعث الإنسان من قبره ، وقيامته للحساب والجزاء ، وأطلق القرآن على الأرض قبل نزول المطر أوصافاً معبرة :

فهي أرض هامدة ، لا حراك فيها ، فإذا هطل المطر تحركت ، فانشقت الأرض وخرج النبات ، وعلت الخضرة ، وتنوعت البركات ، ونشطت الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثر سعي الناس .

قال تعالى : ﴿ .. وَتَوَّى الْأَرْضُ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ ^(٢) .

وهي أرض ميتة ، لا حياة فيها أو عليها ، فإذا نزل الماء تكاثرت الأحياء النباتية والحيوانية والإنسانية ، فالنبات أنواع شتى ، والكائنات الحية تتحرك في خوف الأرض وعلى ظهرها ، والإنسان يجد ما به حياته من المأكول والمشارب والمأوى .. فالحياة كلها مرتبطة بالماء .

قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا خَبَأً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ^(٣) .

وهي أرض خاشعة ، ساكنة ، لا شيء يتحرك فوقها ، ولا شيء يهتز في

(١) سورة الرعد الآية : ٤ .

(٢) سورة الحج الآيات ٦ ، ٧ .

(٣) سورة يس الآيات ٣٣ - ٣٥ .

جناتها ، وكل ما يحيط بالإنسان ساكن لا تسمع له همساً .. فإذا جاء المطر وسالت الأودية بدأ كل شيء يخرج عن سكونه ، ويظهر آثار وجوده ، ويتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، وتسمع هدير الماء وتعيد الطيور وحفيف الأشجار ، وأصوات جميع الكائنات ، فالكل في حركة ونشاط وتكاثر .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وهي أرض جرز ، حلت من النبات ، وأصبحت جرداء قاحلة ، فإذا وصلها الماء وتغلغل في أحشائها أثمرت من كل زوج بهيج ، وتجمع فيها الناس وتقاطر عليها الدواب والأنعام ، وقام العمران البشرى ، وشيدت الحضارة ، وانتفع الجميع بآثار رحمة الله .

قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

هذا ومن دلائل نعمة الماء على قدرة المولى العظيمة أننا نجد بين جنبات الأرض أنهاراً عذبة وبحاراً ملحة ، وقد يكونان متجاورين متلاقين ، لا فصل بين المائين في رأى العين ، ومع ذلك لا يتمازجان ، ويبقى لكل منهما خصائصه ومميزاته .

قال تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ (٣) .

ومن تمام النعمة أن هذه المجارى المائية تحوى تروات ضخمة ، معدنية وحيوانية ، عبر عنها القرآن المجيد بقوله : ﴿ وَمَا يَشْتَرِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَمْلَحُ أَجَاخٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَبَثُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة فصلت الآية : ٣٩ .

(٢) سورة السجدة الآية - ٢٧ .

(٣) سورة الرحمن الآية : ١٩ .

(٤) سورة فاطر الآية - ١٢ .

ولعل السر في ملوحة البحار والمحيطات أنها ساكنة ، غير متجددة كالأنهار ،
فلو كانت عذبة لفسدت على مدى الزمن ، وفسد الوجود تبعاً لها ، هواء وحيوانا .
لكنها حكمة الله وقدرته !!

٩ - الجبال الراسيات :

يولد الإنسان على الأرض ، ويعيش على ظهرها ، ويدفن في جوفها ..
ولا يدري كيف تهيأت له سكناً وسعياً !!؟

ولا كيف مهدت له هذا التمهيد الموائم لمصلحته والموافق لطبائعه ومعايسته ؟
إن من المعلوم جغرافياً أن اليابسة تمثل نسبة صغيرة من حجم الكرة الأرضية
التي تسبح في بحيرة مائية عاتية .

ولو تركت وشأنها لتأرجحت ، ولما استطاع الكائن الحي أن يستقر عليها .
ولكن حكمة الخلق وإبداع الصنع اقتضى أن تكون الجبال الراسيات أوتاداً
للأرض حتى لا تضطرب بهم عليها .

وقد عبر القرآن العظيم عن هذا المعنى بأكثر من أسلوب بياني معجز .
قال الله تعالى : ﴿ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ... ﴾ ^(١) .
أي خلق على الأرض جبلاً ثوابت لئلا تضطرب ولا تصلح حيثئذ لسكنى بنى
البشر .

وقال سبحانه في معرض الامتنان على خلقه : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
شَامِخَاتٍ ﴾ ^(٢) .

أي جعل في الأرض جبلاً لها قمم عالية وارتفاعات شاهقة حتى تثبت على
الأرض وتثبتها .

ومن المعروف جيولوجياً أن الجبال مكنن المعادن والثروات الطبيعية ، وقد أشار
القرآن المجيد إلى ذلك فقال :

(١) سورة النحل الآية . ١٥ . (٢) سورة المرسلات الآية ٢٧ .

﴿ .. وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (١) .

الجدد جمع جدة - بالضم - وهى الطريقة ، والغرايب جمع غريب - على وزن قنديل - وهو الأسود الخالك السواد .

والجبال قد خلقت مختلفة الألوان ، بل إن اللون الواحد فى بعضها قد تتخلله ألوان مغايرة ، فهذا التباين فى الألوان هو نابع من تباين الطبيعة الصخرية للجبال ، ومن تباين المعادن المتراكمة عليها .

أفلا تستحق هذه الشوامخ التى تطل علينا ، نظرة تأمل ، ووقفة عبدة فى إطار الكون البديع ١٩

هل وجدت هذه الشوامخ مصادفة ومن غير حكمة ١٩

ومن الذى استودعها هذه الخيرات التى تتجلى عبر القرون والأجيال ١٩

إن النظرة الدقيقة الفاحصة تصل بالإنسان العاقل إلى أن الجبال أثر من آثار القدرة الإلهية المبدعة ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٢) ١٩

ولعل السر فى الجمع بين الإبل والسماء ، والجبال والأرض هو التقاط صورة للكون بأجمعه أمام العربى فى باديته حين نزل القرآن ، فالعربى يرعى إبله التى تمثل ثروته الأساسية ، فى بطون أودية الجبال ، والسماء فوقه ، والأرض تحته ، وعلى مدى البصر .

وهذه الصورة للكون بأجمعه تتراءى بلفظها أو معناها للإنسان فى كل زمان ومكان ، تدعوه إلى نظر الاعتبار والتعجب .

* * *

(١) سورة فاطر الآية ٢٧ .

(٢) سورة الفاشية الآيات ١٧ - ٢٠ .

المبحث الثانى

الإيمان ضرورة حياة

- * الإيمان ضرورة علمية .
- * الإيمان ضرورة نفسية .
- * الإيمان ضرورة أخلاقية .
- * الإيمان ضرورة تاريخية .
- * تنبيه وتقدير .

الإيمان ضرورة حياة

(أ) الإيمان ضرورة علمية :

هناك شبه أسطورة تقول : إن الدين والعلم نقيضان ، وقد تكونت تلك الأسطورة منذ عصر النهضة في أوروبا بعد أن قاسى البحث العلمى من عوامل التدمير ومعاول الهدم على أيدي رجال الكنيسة الذين أزهقوا الأرواح ، ونكلوا بالعلماء في صورة من الوحشية والقسوة باسم الكنيسة والمسيحية .
ومن الأمثلة على ذلك ^(١) :

١ - كوبر نيكوس :

عاش داخل الكنيسة احتيلاً على رجالها حتى يستطيع دراسة العلوم ، لأن التعليم كان مقصوراً على طبقة الكهان .

وقد تفرغ لدراسة علم الفلك بعد أن اعتاد أن يتسلق سور الكنيسة ليلاً لمواصلة بحثه الذي انتهى بأن الأرض تدور حول الشمس ، وأن حركة النجوم حول الأرض حركة ظاهرية يمكن تفسيرها بدوران الأرض حول محورها مرة كل يوم .

وحين توصل إلى هذه النتيجة كان قد بلغ سن الأربعين ، وظل محتفظاً باكتشافاته خوفاً من غضب رجال الكنيسة ، ولم يبح بها إلا لفئة قليلة ومن أخلص أصدقائه ، وقبيل وفاته قرر أن يعلن كتاباته ، فظهر كتابه عام ١٥٤٣ م وهو العام الذي مات فيه ، وظلت الكنيسة تطارد كتبه بعد ذلك وتصادرها .

٢ - برونو :

كان قسيساً وقام بدور مهم في دراسة علم الفلك سراً في صومعته ، ولكن

(١) راجع كتاب « نافذة على الكون » د. امام إبراهيم أحمد ص ٤٤ - ٥٢ ، ط دار القلم سنة ١٩٦٥ م .

أمره وصل إلى رؤسائه فهددوه بأشد العقاب ، فاضطر إلى الهرب من وطنه إيطاليا إلى سويسرا ، واعتبرته الكنيسة عدوها الأول ، وظلت تطارده حتى ألقى القبض عليه وأودع السجن ثماني سنوات عسى أن يرجع عن رأيه ، وأخيراً أعدم حرقاً في روما عام ١٦٠٠ م .

٣ - جاليليو :

أول من استخدم المنظار لدراسة الأجرام السماوية ، واكتشف مجموعة من الكواكب ، الأمر الذي أثار عليه غضب رجال الكنيسة الذين أرسلوه إلى روما لمحاكمته ، وتحت تأثير التعذيب تراجع عن آرائه وأعلن ذلك أمام جمهرة كبيرة في الكنيسة .. ومع ذلك ظل سجيناً لا يتحدث إلى أحد حتى مات عام ١٦٤٢ م .

* * *

وحسب القارئ لهذه الفترة أن يصدم بصكوك الغفران ، ومحاكم التفتيش ليرى كيف كانت الكنيسة حجر عثرة في سبيل التقدم العلمي .
ومن هنا انطلق الباحثون في شبه بلبلة فكرية إلى إنكار مباحث الألوهية والقول بأن الكون يقوم وحده .

غير أن الحقيقة الضائعة هنا أن هؤلاء الباحثين لم يستطيعوا التفرقة بين الدين كرسالة إلهية سامية ورجال الكنيسة كبشر ، فتكونت عقدة نفسية لدى الباحثين استحكمت حلقاتها .

حتى إن الفيلسوف الفرنسي جان حاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨ م) يقسم المسيحية إلى قسمين ^(١) :

١ - مسيحية الإنجيل .

٢ - مسيحية القساوسة .

ويعتقد أن المسيحية الأولى ليست مملكتها في هذا العالم ، وهي تشر بالعبودية

(١) راجع كتاب العقد الاجتماعي ترجمة عادل رعيتر أو عبد الكريم أحمد

والطاعة ، وروحها ملائمة للطغيان ، فإن استطاع طاغية أن يفرض نفسه على مواطنيه ويستولى على السلطة مسرعان ما يصير موضع تكريم ، لأنه إرادة الله ، وإذا أساء الحاكم في تصرفاته نظر إليه باعتباره العصا التي يعاقب بها الرب عباده .

والجندي المسيحي يعرف كيف يموت أكثر مما يعرف كيف ينتصر ، وما يقال عن انتصارات الصليبيين لا ينسب إلى المسيحيين الحقيقيين بالمعنى الحرفي .

فالإنجيل لا يؤسس دولة ، والمسيحيون الحقيقيون خلقوا ليكونوا عبيداً ، وكل حرب مقدسة عند النصارى تكون مستحيلة ، لأن استعمال العنف وسفك الدماء لا يتفق مع الوداعة المسيحية .

وأما مسيحية القساوسة فتعطي للناس تشريعين ورئيسين ووطنين ، أحدهما ديني والآخر مدني ، وتخضعهم لواجبات متناقضة ، وتقوم على أكاذيب تخدع الناس وتجعلهم بلهاء يؤمنون بالخرافات ، ويعرقون عبادة الله الحقيقية في طوفان من الطقوس الجوفاء ، وهي دين متعصب يجعل الشعب سفاكاً لا يعيش إلا على دماء القتلى والمذابح وفي صراع دائم مع جميع الشعوب .

وقد نادى الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) بموت الإله ووصف طلاس الكنيسة وكهنوت رجالها وصفاً ساحراً فقال^(١) :

« انظروا إلى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة وقد سموها كنائس وما هي إلا كهوف تنبعث منها روائح التعفن ، وهل للروح أن ترتفع إلى مستواها تحت لآلئ هذه الأنوار الكاذبة ، وفي هذا الجو الكثيف حيث لا يسود إلا عقيدة تصمم الناس بالخطيئة وتأمروهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب ؟! »

إنني لأفضل أن أنظر إلى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها .. ويستطرد في وصف الكهنة قائلاً :

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء الموتى فسربلوا جثثهم بالسواد ، فإذا ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحد .

(١) هكذا تكلم زرادشت ترجمة فليكس فارس .

إن من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين » .

وعندما تحطمت الكنيسة وسقطت أغلالها بجهود العلماء والشائرين ، وتم فصل الدين عن الدولة في أوروبا انحلت العقدة وظهرت الحقيقة التي لا مرية فيها وهي أن الكون لا بد له من مبدع .. وأن الحياة لا بد لها من واهب .

وهذا هو مدير أكاديمية العلوم في نيويورك يقول في كتابه (الإنسان لا يقوم وحده) :

« إن البشر لا يزالون في فجر العلم ، وكلما ازداد العلم ضياء جلا لنا شيئا فشيئا صنعة خالق مبدع ، ففي السنوات التسعين^(١) التي مضت منذ عهد دارون تمت للعلماء مكتشفات هائلة ، والتقدم في العلم يدنو بنا شيئا فشيئا إلى معرفة الله ، فطريق العلم يسير بنا إلى الإيمان به ولا يتعد بنا عن ذلك أبداً .

والمعادلات الرياضية إذا طبقناها على نظام الكون تجعل عامل المصادفة في ظهور الحياة احتمالاً لا يبلغ واحداً من ملايين .

كما أن سعة حيلة الحياة في تحقيق أغراضها يدل على عقل منبث في أنحائها جميعاً .

وحكمة الحيوان تنطلق بلسان لا ترد حجته بأن لها خالقاً كريماً بث الغريزة فيها ، فالرحلات الطويلة الوعرة التي يقوم بها كل من سمك السلمون وثمان البحر تتم في ظروف تجعلنا لا نستطيع أن نعلل ذلك بالتكيف والملاءمة بل لا بد وأن هذه الرحلات تتم على هدى غريزة موهوبة ممنوحة .

و ذات يوم قام الصحفي (جون كلوثر مونسما) بتقديم هذا السؤال :

هل تعتقد في وجود الله ؟

وكيف دلتك دراستك وبحوثك عليه ؟

وتوجه به إلى طائفة من العلماء المتخصصين في سائر فروع العلم من الكيمياء

(١) كان ذلك في أوائل السبعينات .

إلى الفيزياء ، إلى الأحياء ، إلى الفلك ، إلى الرياضيات ، إلى الطب .. إلى غير ذلك .

وأجاب هؤلاء العلماء مبينين الأسباب العلمية التي تدعوهم إلى الإيمان بالله وصدر كتاب يحمل اسم : (الله يتجلى في عصر العلم)^(١) .

وقد ناقش أحدهم وهو الدكتور (فرانك ألن) عالم الطبيعة البيولوجية قضية المصادفة وقال :

« إذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة ، فما هي تلك المصادفة إذن حتى تدبرها ونرى كيف تخلق الحياة ؟ »

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق ، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم . ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول إنها تحدث بالمصادفة ، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى مثل (قذف الزهر في لعبة النرد) وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان ، ولننظر الآن إلى الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة :

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي : الكربون ، والهيدروجين ، والنيتروجين ، والأكسجين ، والكبريت ، ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني أربعين ألف ذرة (٤٠٠٠٠) ذرة ، ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة ٩٢ عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئاً من جزيئات

(١) ترجمة د. الدمرداش د. الهجيد سرحان

البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي
تؤلف هذه الجزيء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع
بين ذرات الجزيء الواحد .

وقد قام العالم الرياضى السويسرى (تشارلز يوجين جاى) بحساب هذه
العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تنهياً عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتينى
واحد إلا بنسبة واحدة إلى رقم عشرة مضروباً فى نفسه مائة وستين مرة (10^{166})
وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات ، وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم
لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون
بملايين المرات .

ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة
بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى
نفسها مائتين وثلاثاً وأربعين مرة من السنين (10^{243}) .

إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية ، فكيف تتألف
ذرات هذه الجزيئات ١٩ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التى تتألف بها تصير غير
صالحة للحياة ، بل تصير فى بعض الأحيان سموماً ، وقد حسب العالم الإنجليزى
(ج . ب . ليترز) الطرق التى يمكن أن تتألف بها الذرات فى أحد الجزيئات البسيطة
من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ البلايين (10^{48}) وعلى ذلك فإنه من المحال
عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً .

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيميوية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا
عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذى لا ندري من كنهه شيئاً ، إنه العقل
اللانهاي ، وهو الله وحده الذى استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك
الجزيء البروتينى يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصوره وأغدق عليه سر
الحياة (١) هـ .

* * *

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩ .

(ب) الإيمان ضرورة نفسية :

الإيمان ضرورة تحتمها الحياة النفسية لبنى البشر ، والإنسان إذا أظلم عليه السبيل أو هاله ليل أو جاءته ريح عاصف - رجع إلى صوت الفطرة وتضرع إلى الله وحده رجاء كشف الضر فتتداركه عناية الله وتسبغ عليه من النعم ظاهرها وباطنها ، لكنه هو الإنسان الظلوم الجهول ما يكاد يستشعر بسطة جسم أو فضل نعمة حتى يقول - كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ ﴾ .

وَصَدَقَ اللَّهُ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَأَنْ أَنْجَاكُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) .

وفى تصوير معجز لحال الإنسان المضطربة أمام اعترافه بخالفه والمهيمن عليه
يقول القرآن المجيد أيضاً :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (١) : أى أنه فى حال شدة البحر وإشراف الإنسان على الغرق ينسى جميع الشركاء ولا يعتقد إلا فى قدرة الله جل جلاله ، فيحقق الله رجاؤه وينقذه مما فيه من أهوال ولكن الإنسان تلهيه النعمة : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْنَاهُمْ وَإِنْ أَسَاءَ أَتَاءَ ﴾ .

وهل نسي الإنسان أن إله البحر هو إله البر ، وأن صاحب الهيمنة المطلقة هو الله وحده .

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَفِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُزِيلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ ^(٣)

وأيضاً أليس من الممكن أن تعود الشدة ويقف الإنسان نفس الموقف السابق يحيط به الموج من كل مكان .

(١) سورة الأنعام الآية ٦٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٧ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ٦٨ .

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيَرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ (١) .

وأذكر وأنا مقيم في المدينة الجامعية للطلاب كان بالحجرة المقابلة طالب يتظاهر بالإلحاد ، ويجادل في الله بغير سلطان ، وأشهد الله أني سمعته وهو نائم يقول بأعلى صوته : يا رب ، يا رب ، مما جعلني أوقفه وأنقذه من الصراع النفسي الدائر في ثنايا ضميره والذي يتظاهر بإخفائه !!

إن الإيمان هو الأمل في هذه الحياة ، وهو الضياء لمسيرة الإنسان وهو السعادة الكاملة وبدونه تصبح الحياة شقاء وبلاء وجحيماً لا يُطاق .

إن الحياة قائمة على المتقابلات من صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر ، ومن أولاد أو عقم ، ومن شباب أو كهولة ... إلخ . تلك شنة جارية لا تتخلف وليس هناك من ناموس يحكم هذه المتقابلات ، ويهب الناس السكينة تجاهها إلا الإيمان بالله ، ذلك أن الحياة في منطق الإيمان مبنية على قانون عام هو الابتلاء والامتحان ، فالله جل جلاله يتلى الإنسان بالمال كما يتليه بالفقر ، ويتليه بالقوة كما يتليه بالضعف ، قال تعالى : ﴿ .. وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... ﴾ (٢) .

وشأن المؤمن أن يكون شاكراً عند النعمة والعطاء ، صابراً في مواقع القضاء .. وإذا ضاقت نفس الإنسان فما عليه إلا أن يلجأ إلى الله وحده فهو سبحانه الرحمن الرحيم ، وهو جل شأنه الحكيم الخبير ، فما من عسر إلا ويعقبه يسر ، وما من ضائقة إلا ولها فرج قريب ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .

ولن يغلب عسر يسرين ، فإن أهل اللغة يقولون : إن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عينها ، وإن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غيرها ، كما أن في التعبير بلفظ « مع » الدال على الصحبة ما يؤكد قرب اليسر المترقب كأنه مقارن للعسر .

وإذا كانت الحياة تنتهي حتماً بالموت الذي قد يواجهه الإنسان طفلاً أو شاباً أو كهلاً أو شيخاً كبيراً ..

(١) سورة الإسراء الآية ٦٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٣٥ .

وهذا مما يورق البشر كثيراً ويقض مضاجعهم ١١

فإن المؤمن لا ينظر إلى هذا المصير المحتوم نظر تشاؤم ومأساة ، بل هو حلقة ضرورية للخلود الأبدى .. فإن الإنسان لم يخلق للعدم وإنما خلق للبقاء ، وهذا البقاء أو الخلود يمر بمراحل في الرحم أو على ظهر هذه الأرض ، أو في القبر ، أو في القيامة ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ... ﴾ (١) .

ومع تلك النظرة فليس من حق الإنسان أن يتمنى الموت مهما اشتدت حوله المخطوب ، فإن الأمل في الله أكبر ، وفي صحيح الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إن كانت الوفاة خيراً لي » .

وإذا كان مجرد تمنى الموت خطيئة في نظر الإسلام فما بالك بمن يقدم على الانتحار ١٢

إن الإنسان لا يملك نفسه ، فالأنفس كلها لله ، وقتل النفس كقتل الغير سواء بسواء ، وفي صحيح الحديث يقول رسول الله ﷺ : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحسى سمّاً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجرأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » .

وذلك لأن أفكار السوء ووساوس الشيطان إنما تأتي الإنسان الفارغ من الإيمان ، أما المؤمن الحق فهو دائماً مسدد الخاطر ، ملهم الضمير ، يمنحه الله هداية يفرق بها بين الحق والباطل ، والطيب والخبيث ، قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ... ﴾ (٢) .

فتقوى الله هي النجاة من كل كرب الدنيا والآخرة ، وهي الأمل وسط ظلمات الحياة ومادياتها .

(١) سورة آل عمران الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٩ .

ولننظر ماذا يجرى بين الماديين المغمسين في شهوات النفس الآثمة ، والذين وصلوا إلى درجة التشبع في الجنس والثروة .. ولنقرأ هذه الرسالة الصحفية التي كتبها ويليام بوردرز في صحيفة النيويورك تايمز ونشرها الأهرام في (٢٠ / ٣ / ١٩٨٠) :

أعلنت إحدى المؤسسات البريطانية في لندن أنها تنوى نشر كتاب خاص للراغبين في الانتحار ، ومن المعروف أن هذه المؤسسة التي يطلق عليها اسم « الخروج من الحياة » تدعو لما تسميه « بالحق في الموت بصورة مشرفة » .

ومن المنتظر أن يحتوى الكتاب على أساليب عديدة للانتحار تُعد سهلة نسبياً حتى بالنسبة للمعوقين الراغبين في الانتحار ، وسوف يحتوى الكتاب أيضاً على قائمة بأسماء العقاقير الطبية ورأى الطب فيما يكفى من كل من هذه العقاقير لإنهاء حياة الراغبين في الانتحار .

وبالرغم من أن الكتاب لن ينشر قبل شهر أو اثنين إلا أن الطلب على الكتاب في تزايد مستمر ، كما أن المؤسسة الناشئة تتسلم يومياً مئات من الخطابات الاستفسارية والتي يكتب معظمها الراغبون في الانتحار .

وصرح السكرتير العام للمؤسسة بأن الطرق التي تدعو لها المؤسسة في الانتحار أصبحت مقبولة إلى درجة كبيرة ، كما أنها مفضلة عن وسائل الانتحار التقليدية والتي عادة ما تسبب ميتة بطيئة مؤلمة .

وأضاف السكرتير العام بأن أعضاء المؤسسة يكافحون من أجل حق إنسانى وهو الحق في الموت !!

وكتاب الانتحار الذى تنوى مؤسسة « الخروج من الحياة » نشره سيكتبه مجموعة من رجال القانون والطب وآخرون من أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤسسة ، وسيكتب مقدمته الكاتب الإنجليزى آرثر كويشتر ، وهو عضو بارز في المؤسسة .

وفي اجتماع أخير للمؤسسة اقترح آرثر كويشتر فكرة توزيع الكتاب على أعضاء المؤسسة فقط والذين مضى على عضويتهم أكثر من ثلاثة شهور ، وذلك لضمان عدم فرض سبل الانتحار المذكورة في الكتاب على الذين لا يستوعبون اتجاهات المؤسسة « ا هـ » .

هكذا يفكر من لا إيمان له !!

(ج) الإيمان ضرورة أخلاقية :

إن الإنسانية في حقيقة أمرها تجمع أخلاقى يرتبط بالإرادة الحرة التى يكون على أساسها التكليف والمسئولية .

ولكن ما هو المقياس الأخلاقى ؟

إن القوانين مهما أحكمت لا تستطيع أن تسيطر على قوى الإنسان الداخلية ، ثم إن القانون يحتاج إلى إنسان يقوم على حمايته وعلى أمر تنفيذه ، وهذا الإنسان بدوره يحتاج إلى حماية لأنه لن يكون معصوماً . إن الإيمان وحده هو الذى يتولى تأصيل القيم والمبادئ داخل النفس الإنسانية ، وإن النفس المؤمنة تسارع إلى الخير بمقتضى فطرتها ، أما النفس الملهدة فتساق من ظاهرها برهة السوط وعين القانون ، ومتى أخطأ السوط أو غفل القانون فهناك مجالات رحبة من فوضى الأخلاق والمعاملات وصراع الطبقات وغلبة الأقوياء ، وسريان قانون الغاب .

ولقد علمنا الإسلام المراقبة الذاتية عندما حكى القرآن قول لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾^(١) .

ولعل وصية الرسول ﷺ تشير إلى هذا المعنى عندما قال : « اتق الله حيثما كنت ... » .

وقد تجاوب المؤمنون الصادقون مع تلك التربية الإيمانية فقدموا نماذج فذة وفريدة ، وفى تعبير حكيم وتمثيل رائع وصادق عن قصة أصحاب الغار الثلاثة يقول الرسول ﷺ - كما فى صحيح مسلم :

« بينما ثلاثة نفر يتمشون ، أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم ..

(١) سورة لقمان الآية : ١٦ .

فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامرأتى ولى صبية صغار أرعى عليهم ، فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت يوالدى فسقيتهما قبل بنى ، وإنه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب فقامت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر .. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء .. ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار ، فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجلها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقامت عنها .. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة .. ففرج لهم .

وقال الآخر : اللهم إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق^(١) أرز فلما قضى عمله قال أعطنى حقى فعرضت عليه فرقه فرغب عنه ، فلم أزل أزرقه حتى جمعت منه بقرأ ورعاءها فجاءنى فقال اتق الله ولا تظلمنى حقى .. قلت : اذهب إلى تلك البقر ورعاءها فخذها .. فقال : اتق الله ولا تستهزئ بى .. فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، خذ ذلك البقر ورعاءها .. فأخذها فذهب به ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى .. ففرج الله ما بقى ، وخرجوا من الغار يمشون .

هكذا يفعل الإيمان عندما يتغلغل فى أعماق النفس الإنسانية .

وتؤكد أيضاً الضرورة الأخلاقية للإيمان لتصحيح مسار العلاقات الاجتماعية التى تنمو على أساس مبدأ المحبة لله ، والمحبة فى الله ذلك المبدأ الذى يتسامى على أهواء النفس ودنایا المادة ، فتزوى الأحقاد وتنأى الخصومات ، ويعيش الناس عباد الله إخواناً .

وعلى أساس هذا المبدأ آخى الرسول صلوات الله عليه وسلامه بين المهاجرين والأنصار ، وأصبحت الأموال والعقارات بينهم كالماء فى الأنابيب المستطرقة ،

(١) الفرق : نوع من الآية يسع ثلاثة أصع .

وتوارث المسلمون بصلة الدين وكأنها لحمة النسب إلى أن استقرت الأمور ، فنزل قوله تعالى : ﴿ .. وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(١) فاقصر التوارث على النسب .

ومن طريف ما يروى أن سعد بن الربيع الأنصاري قال لعبد الرحمن بن عوف : أى أخى !! أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذهُ ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها .

فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق ، فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح ، حتى قال بعد ذلك :

فلقد رأيتنى ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً أو فضة !!

إن الناس بغير الإيمان يأكل قويهم ضعيفهم ، ويستعبد غنيهم فقيرهم ، ويتربصون الدوائر بعضهم بعضاً .

ولننظر ماذا يقول فيلسوف ملحد مثل فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) فى كتابه (هكذا تكلم زرادشت) :

« إذا ما رأيتم متداعياً إلى السقوط فادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه ، وكل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه - على الأقل - أن يسرع بالسقوط » .

ويرى نيتشه أنه لا رحمة بين الناس ، وأن الإحسان يجرح عزة النفس ويولد الأحقاد لدى المحرومين ، ويدعو من يستطيع أن يقتطف ثمار الحديقة عنوة أن يتقدم فليس فى الإقدام على الغصب ما فى قبول العطاء من مهانة .

ولا يشير نيتشه بمحبة القريب ويعتبرها أنانية مضللة هدفها إغواء القريب واحتواؤه وينفر من الصداقة ويقول :

دع الصداقة إذا كنت عبداً ، ولا تطمح إلى اكتساب الأصدقاء إذا كنت عاتياً .
وشعار المجتمع عنده هو اقتسام المظالم فمن يقدر على إرهاب الناس بظلمه فعليه أن يحتل هو الظلم أيضاً .

(١) سورة الأنفال الآية . ٧٥ .

وليس من الإنسانية - فى زعمه - أن يترفع المظلوم عن الانتقام ويقول فى عبارة ضاحكة باكية :

إذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير لأنه يستصغر بذلك نفسه ، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله إليكم ، والأجدر بكم أن لا تحتقروا أحداً ، تظاهروا بالغضب . وإذا وجهت اللعنة إليكم فلا يسرنى أن تمنحوا البركة . وإذا ما نزلت بكم مظلمة كبيرة فبادروا المعتدى بمثلها وأرفقوها بخمس مظالم صغرى !!

ويرى نيتشه أن « إرادة الحق » هو شعار المذلة !!
وأن جوهر الوجود وحقيقته هو « إرادة القوة » !!
هكذا تكون أخلاق الملحدين !!

(د) الإيمان ضرورة تاريخية :

إن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله ، والمواقف الحاسمة فيه مرتبطة بالدين ، وأبوابه الرئيسية هى قصة الصراع الفكرى بين الإيمان والكفر .
ولن تفهم حضارة التاريخ إلا من خلال مسيرة الأديان التى اعتنقها أجيال البشر والتى اتفقت - بغض النظر عن الحقيقة أو الأسطورة - على فطرة مركوزة فى النفس بأن الحياة لا بد لها من واهب ، وأن الكون لا بد له من مدير ، وأن للإنسان حياة أخرى للحساب والجزاء .

وقد تفجرت عن تلك الفطرة علوم ومعارف وفنون ، وارتبطت بها منشآت وهياكل وقصور .

ففى مصر الفرعونية عاش الناس بالدين وللدين ، وقامت معابد الكرنك والأقصر وأهرامات الجيزة ، وتقدمت علوم الطب والهندسة ، وازدهرت فنون النحت والتصوير والنقش والكتابة ؛ لتثبت أن الإيمان صانع المعجزات .

وحدثنا التاريخ عن حضارة نابل وآشور حديثاً بلغ حد الأسطورة فى روعة البناء وجمال الطبيعة وسطوة الملك ، ولا يمكن فهم هذا التاريخ إلا من خلال قصة نوح والطوفان ، وقصة إبراهيم الخليل وجهاده مع قومه وجداله مع الرؤساء .

ولا ينسى التاريخ دور موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من بعده فى صياغة فصوله وأبوابه .. وخاصة ملك داود ، وسليمان عليهما السلام الذى عبر عنه القرآن المجيد بقوله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۖ وَلِسَلَامَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِبِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۖ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ۝ (١) .

وإذا اتجهنا إلى الإغريق فسنجد تاريخهم مرتبطاً بعالم الآلهة كما تخيله « هوميروس » وعالم المثل كما نادى به « أفلاطون » .

ولما قامت النصرانية واحتضنتها « روما » بسطت لواءها على أطراف الأرض قروناً من الزمان ، ودارت الحرب سجالاً بينها وبين الفرس .

وقد أشار القرآن المجيد إلى قصة ذلك الصراع فى مفتتح سورة الروم :

﴿ اَلَمْ ۖ غَلَبَتِ الرُّومُ ۖ فِىٓ اٰذْنِى الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ ۖ فِىٓ بَضْعِ سِنِيْنَ ۚ لِلّٰهِ الْاَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍۭ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ ۖ بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَنۢ يَّشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيْمُ ۝ (٢) .

وجاء فى تفسير الزمخشري :

« احتربت الروم وفارس بين أذرعنا وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ الخبر مكة فشق على النبى ﷺ والمسلمين ، لأن فارس محوس لا كتاب لهم ، والروم أهل الكتاب ، وفرح المشركون وسمتوا وقالوا : أنتم والنصارى أهل الكتاب ، ونحن وفارس أميون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظفرون نحن عليكم فنزلت (أى هذه الآيات) فقال لهم أبو بكر رضى الله عنه :

(١) سورة سبأ الآيات ١٠٠ ، ١٣

(٢) سورة الروم الآيات ١ - ٥ .

لا يقرر الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين .
فقال له أئبى بن خلف : كذبت ، اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه (والمناحبة
المراهنه) ، ففناحبه على عشر قلائص^(١) من كل واحد منهما وجعلنا الأجل ثلاث سنين .
فأخبر أبو بكر رضى الله عنه رسول الله ﷺ فقال : البضع ما بين الثلاث إلى
التسع .

فزايده فى الخطر أى المراهنة وماده فى الأجل ، فجعلناها مائة قلووس إلى تسع
سنين .

ومات أئبى بن خلف وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، وذلك عند رأس سبع
سنين ، فأخذ أبو بكر الرهان من ذرية أئبى ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال : تصدق به .
وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وأن القرآن من عند
الله ، لأنها إنباء عن علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله .

هذا ويوم أن أشرقت الأرض بنور ربها وعرف الناس طريقهم إلى الإسلام شرعة
ومنهاجاً قادهم إلى أمة هى من التاريخ غرته ، ومن الزمان ربيعته ، وأبدعوا حضارة
شملت العالم من أقصاه إلى أقصاه وحفظت للإنسانية قرائحها ، وجادت عليها
بأسمى ما ترنوا إليه فى العلم والحضارة .. وكانت المراكز الإسلامية فى الأندلس
وصقلية والقاهرة ودمشق وبغداد مشاعل أضاءت الطريق للحضارة الحديثة .

وهكذا كان الإيمان يقود خطى البشرية دائماً ، ولن تجد فترة زمنية ذات نال إلا
وللإيمان هيمنة عليها وسلطان فيها .

ولا يعنينى هنا أن اعتقاد القوم كان صحيحاً أو فاسداً فتلك قضية أخرى ، وإنما
الهدف من تأكيد الضرورة التاريخية للإيمان هو رؤية الارتباط بين الحضارة المادية
والإيمان بالله واليوم الآخر .

على أن القوم حينما أشركوا فى الألوهية أو انحرفوا فى تصور العقيدة
الصحيحة كان زعمهم اتخاذ الوساطة أو محاولة تمثيل العظمة الإلهية .. وإلى هذا
يشير أحمد شوقي :

(١) القلائص : جمع قلووس وهى الناقة الشاة .

رب شقت العباد أزمان لا كت	سب بها يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا في الهوى مذاهب شتى	جمعتها الحقيقة الزهراء
فإذا لقبوا قوياً إلهاً	فله بالقوى إليك انتماء
وإذا أثروا جميلاً بتقريب	ه فإن الجمال منه حياء
وإذا أنشأوا التماثيل غرا	فإليك الرموز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب أربا	باً فمنك السنا ومنك السناء
وإذا ألخوا النبات فمن آ	ثار نعماك حسنه والنماء
وإذا يعموا الجبال سجوداً	فالمراد الجلالة الشماء
وإذا يعبد الملوك فإن المـ	لك فضل تحبوا به من تشاء

(و) تنبيه وتقرير :

ليعلم الملحدون أننا في بحثنا عن الله سبحانه وتعالى واستدلالاتنا على وجوده لا نتجاوز وضعنا الإنساني ونجعله سبحانه كمعادلة نحلها أو مُركّب كيميائي نتتجه أو جزيرة نكتشفها .

إن كل ما نعلمه - ييقن العقل وصادق الفطرة - هو أن الكون والكائنات جميعاً تسبح بحمد ربها وتدل على أنه الواحد ذو الجلال والإكرام ، وصولاً إلى الحقيقة الكبرى التي عبر عنها القرآن المجيد في قوله : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ^(١) .

أما محاولة الخوض في ذات الباري وحقيقة صفاته فهذا ليس في نطاق العقل المحدود ، ومن المنطق أن نسلم حيث انتهى الشوط ، والتسليم هنا هو تسليم العلماء لا الجاهلين ، وتسليم المعرفة لا التقليد .

ولتوضيح ذلك أدع ابن خلدون يقول :

« واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه - منحصر في مداركه لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه .
ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ،

(١) سورة الحج الآية ٦٢٠ .

ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ١١

وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشايخ من أهل عصرهم والكافة لما أقرروا به ، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم .

ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية . فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا ، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول ، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محيط .

فإنهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك ، لأنه من طور فوق إدراكك ، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك .

ثم يؤكد ابن خلدون قيمة العقل وصدق حكمه في نطاقه الإنساني المحدود ، وأن قصوره عما وراء ذلك ليس اتهاماً فيقول :

« وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية ، وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع في محال » .
ثم يسوق ابن خلدون مثلاً تقريباً له فيقول :

« ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك على أن للميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه » ^(١) .

وبعد .. فالإيمان ضرورة تقتضيها الفطرة وتحتّمها مثل الأخلاق وقواعد السلوك ، وتلح عليها حضارة الإنسان .

(١) المقدمة ص ٢٧٣ - طبعة المطبعة الأزهرية سنة ١٣١١ هـ .

المبحث الثالث

توحيد الله تعالى

* الوحدانية في الإسلام .

* المخالفون في الوحدانية :

— اليهود .

— النصارى .

— المجوس .

— عباد الأصنام .

— الصابئة .

— القائلون بالحلول والاتحاد .

* دلائل التوحيد في سورة البقرة :

— فضل سورة البقرة .

— إبداع الصنع .

— انفراد السلطان .

— وحدة المعبود الحق .

— التفرد بصفات الجلال والكمال .

— حوار في الله ومع الله .

— أحدية الله في الخلق والجزاء .

الوحدانية في الإسلام

وحدانية الله تعالى عنوان الإسلام كله ، وأصله الذي لا بديل عنه ، وبالشهادتين يبدأ المسلم حياته وعليها يلتقي الله تعالى ، وفي حديث رواه الحاكم وغيره قال عليه الصلاة والسلام : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

وهذه الوحدانية في المفهوم الإسلامي تعنى مايلي :

أولاً : الله تعالى واحد في ذاته ، وهذا يتضمن شيئين :

أ - لا تعدد في الآلهة فليس هناك ذات تشبه ذات الله في كمالها وجلالها وسلطانها ..

ب - لا تركيب في الذات الإلهية فلا والد لله تعالى ولا ولد ، ولا يحل في شيء ولا يتحد مع شيء ، ولا يتركب من أجزاء .

قال الله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١) .

ثانياً : الله تعالى واحد في صفاته ، وهذا يشمل أمرين :

(أ) لا تعدد في صفة من صفات الله كقدرتين وإرادتين وعلمين وحياتين ... إلخ ؛ لأن كل صفة من صفات الله هي الكمال المطلق فلا نقص فيها .

(ب) لا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، فالله تعالى منزّه عن مشابهة خلقه ..

(١) سورة المؤمنون الآيات ٩١ ، ٩٢ .

وقد جاء القرآن الكريم يصف الله تعالى بأنه ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ^(١) ،
 و﴿ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ^(٢) و﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ^(٣) و﴿ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ^(٤)
 و﴿ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ ^(٥) و﴿ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ ^(٦) و﴿ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ^(٧)
 و﴿ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴾ ^(٨) ..

كما أكد القرآن قضية التنزيه المطلق لله تعالى فقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ^(٩) .

وقال : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ^(١٠)

ثالثاً : الله تعالى واحد في أفعاله ، فلا يقبل المساعدة أو المشاركة أو المساندة ، وكل ما في الكون والكائنات فهو أثر من آثار قدرة الله وحده .

قال تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَتَدَوَّى الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١١) .

فحيثما توجه الإنسان بعقله وقلبه ، وأينما حل ييدنه وجسمه ، وعلى امتداد

- | | |
|------------------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة المؤمنون الآية : ١٤ . | (٢) سورة الأعراف الآية : ٨٧ . |
| (٣) سورة المائدة الآية : ١١٤ . | (٤) سورة آل عمران الآية : ١٥٠ . |
| (٥) سورة الأعراف الآية : ٨٩ . | (٦) سورة الأعراف الآية : ١٥٥ . |
| (٧) سورة الأنبياء الآية : ٨٩ . | (٨) سورة المؤمنون الآية : ١٠٩ . |
| (٩) سورة الشورى الآية : ١١ . | (١٠) سورة الأحلاص الآية : ٤ . |
| (١١) سورة السمل الآيات : ٥٩ - ٦٤ . | |

بصره وبصيرته لا يجد غير آثار مبدع حكيم ، وفعل قادر مقتدر ، وإرادة فعال علام العيوب .

رابعاً : الله تعالى هو وحده المعبود الحق ، فيجب أن يُطاع فلا يُعصى ، وأن يُتذكر فلا يُجحد ، وأن يذكر فلا يُنسى ، بحيث يكون الدين كله لله .

وهذا يتضمن اتجاهين :

١ - اختصاص العبادة لله فلا يصرف شيء منها لغيره سبحانه ، فلا يستعان إلا بالله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يدعى غير الله ، ولا يذبح إلا باسم الله ، ولا يحلف إلا بالله ... إلخ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (١) .

٢ - تجنب الرياء والبعد عن التسميع ، وهذا هو الشرك الأصغر الذي يتسلل إلى قلوب العباد فيحبط أعمالهم ، ويجعلهم قاب قوسين أو أدنى من الضلال البعيد .. وفي الصحيح المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء : أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله .

فشأن المسلم الموحد أن يعمل العمل خالصاً لوجه الله ، لا ينتظر محمداً الناس ولا يتعلق قلبه بحطام الدنيا ، ولا يتباهى بزخرف الحياة الفانى ، فشواب الله خير ، وفي صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً : قال الله تعالى : ﴿ أَنَا أُغْنِي الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتَهُ وَشْرَكَهُ ﴾ .

وفي مقارنة بين المرائي والمخلص يبين الرسول ﷺ نفسية كل منهما والهدف لحياتهما .

(١) سورة الزمر الآيات ٢ ، ٣ .

فالمرائي عبد الشهوة والشهرة لا يعرف قيمة رفيعة ولا كرامة نبيلة .

والمخلص يضحى بالنفس والنفيس ابتغاء مرضاة الله ولا يضيره أن علم الناس أو لم يعلموا ، ويكفيه شرفاً علم الله به وثناء الله عليه في الملأ الأعلى ، ويوم يقوم الأشهاد .

يقول عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث : « تعس عبد الدينار ، وتعس عبد الدرهم ، وتعس عبد الخميصة ، وتعس عبد الحميلة .. إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش .

« طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع » .

* * *

المخالفون في الوحدانية

انطلاقاً من مفهوم الوحدانية في الإسلام يتحدد المخالفون لتلك الوحدانية ،
الخارجون عن مقتضى الفطرة ، الناقضون لعهد الله وميثاقه ، المشركون بالله ..
وهؤلاء المخالفون طوائف شتى منهم :

١ - اليهود :

وعقيدة اليهود قائمة على تشبيه الخالق بالخلق ، ووصف الله تعالى بما لا يليق ،
وإثبات فريق منهم البتة لله سبحانه .

وقد بدأ شرك العقيدة اليهودية على عهد موسى عليه السلام حين طلبوا رؤية
الله في الدنيا بالأبصار الحسية ، فعاجلهم الله بعقوبة رادعة صعدت هؤلاء السفهاء .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذْتُكُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾ ^(١) .

وأيضاً حين أرادوا عبادة الأصنام بعدما عبر بهم موسى البحر ، ولم يستوعبوا
الحدث المعجز ، وظلت نفوسهم على الشرك الأول قبل بعثة موسى عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَتَّبِعُونَ عَلَى
أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴾ ^(٢) .

وتوالى بعد ذلك شرك اليهود وكفرهم بآيات الله فادعوا أن عزيزاً ابن الله ،
وألحدوا في صفات الله .

(١) سورة البقرة الآيات ٥٥ - ٥٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٣٨ .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ... ﴾ (١) .

٢ - النصارى :

وعقيدة النصارى مضطربة فى شأن شخصية المسيح عليه السلام ، فهم أحزاب و فرق تزعم أن المسيح إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة .

ويتوهمون أن المسيح مركب من لاهوت وناسوت ، ويقولون بالحللول والاتحاد .

ولهذا سلكهم القرآن مع الكافرين المشركين فقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

ثم ذكر القرآن الكريم هؤلاء النصارى بحقيقة شخصية المسيح وأنها تتنافى كلية مع مقام الألوهية الرفيع فقال : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ تَبَيَّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٣) .

ثم سلك القرآن الكريم النصارى واليهود فى سلك الوثنيين القدماء ، وسجل عليهم أنهم خلطوا عقائد الشرك برسالات الوحي ، وحرفوا التنزيل المقدس ، فقال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٤) .

وأكد القرآن الكريم أن هؤلاء اليهود والنصارى صرفوا العبودية لغير الله ،

(١) سورة المائدة الآية : ٦٤

(٢) سورة المائدة الآيات : ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٧٥ .

(٤) سورة التوبة الآية : ٣٠ .

ومنحوا حق التحليل والتحريم بعير علم إلى الأحرار والرهبان ، فقال : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١) .

ولهذا كان عبد الله بن عمر رضى الله عنه يرفض الزواج من نساء أهل الكتاب ويقول - كما فى صحيح البخارى - : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول إن ربها عيسى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَكْبَرُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ... ﴾^(٢) .

٣ - المجوس :

وعقيدة المجوس تتعلق بالهين هما النور والظلمة ، أو إله الخير وإله الشر ، ولهم اختلافات كثيرة حول هذين الإلهين : هل هما أزليان يتساويان فى القدم ويختلفان فى الجوهر والفعل ، أو أحدهما قديم وهو النور ، والآخر محدث وهو الظلمة ؟^(٣) وقد رفض القرآن الكريم هذه الفرية وقال : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴾^(٤) .

وأعلى القرآن الكريم أن النور والظلمة وكل ما فى الكون مخلوق لله تعالى وأثر من آثار قدرة الواحد القهار ، فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾^(٥) .

وأكد القرآن أن كل ما يعترى الإنسان من منح ومحن ، إنما هو ابتلاء من الله لعباده ، والله وحده هو القابض الباسط ، وهو الرافع الخافض ، وهو المعز المذل ، وهو المحيى المميت .

قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ

(١) سورة التوبة الآية ٣١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢١ ، ولكن جمهور العلماء على حواز هذا الكاح .

(٣) سورة النحل الآية : ٥١ . (٤) سورة الأنعام الآية ١ .

الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١﴾ .

٤ - عباد الأصنام :

وعقيدة عباد الأصنام ترتبط بتمائيل وأشكال تتخذ من المعدن أو الصخر أو الشجر ، يقدمون إليها القرابين ، ويقفون بين يديها ضارعين .. وقد تهكم بهم القرآن الكريم على ألسنة رسل الله في مواضع شتى من المصحف الشريف .

ففي سورة الأعراف مثلاً وضع القرآن الكريم العجز المطلق لهذه المعبودات ، فهي مخلوقة مصنوعة نحتها الإنسان وأقامها ، فهي أعجز من أن تمنح الوجود لشيء ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وهي فاقدة لكل معاني الحياة فهي ساكنة عمياء بكماء ، فكيف تستجيب لدعاء عابديها ١٩

قال تعالى : ﴿ أَتَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَآ تُنْظَرُونَ ﴾ (٢) .

ويلحق بعباد الأصنام عابدو الحيوان الأعجم كالهندوس الذين يقدسون البقرة ، ويضحون بكرامة الإنسان أمام هذه العجماوات ١١

فالإنسان خليفة في أرض الله ، وكل ما في الكون مسخر لخدمته ، فلا يليق بالإنسان أن يمتحن كرامته أمام حجر أو شجر أو حيوان أو بشر .

٥ - الصابئة :

وعقيدة الصابئة تجعل الكواكب والنجوم محل التقديس والعبادة ، وترى أن

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الأعراف الآيات : ١٩١ - ١٩٥ .

لهذه الكواكب هيمنة على الكون وتأثيراً في الوجود وتدييراً للكائنات .

وقد كان الصابغون على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، واكتشف هدهد سليمان عليه السلام وجودهم في اليمن ، وأمتد فكرهم إلى فلاسفة اليونان قبل الميلاد ، وتأثر بهم فلاسفة المسلمين فتبنوا نظرية العقول العشرة التي تزعم أن للكواكب أرواحاً مدبرة ، حتى تنتهي إلى عقل فلك القمر الذي يدبر العالم الأرضي . كل ذلك ينافي عقيدة التوحيد ويصل بأصحابه إلى درك الشرك ومهاوى الضلال البعيد .

فالشمس والقمر آيتان من آيات الله ، أهدعهما الله تعالى لمصلحة الخلق ومنافع الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾^(١)

والكواكب والنجوم كلها مسخرة بأمر الله ، تجري بنواميس لا يملك أحد غير الله تغييرها أو التأثير فيها .

قال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدْرَ نَافَ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(٢) .

وقد رتب الله الأسباب والمسببات بإرادته وقدرته ، وليس لشيء في الوجود فعل ذاتي ، ولو شاء الله غير ذلك لكان .

وفي صحيح الحديث عن زيد بن خالد رضي الله عنه ، قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء^(٣) كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله

(١) سورة فصلت الآية : ٣٧ .

(٢) سورة يس الآيات : ٣٨ - ٤٠ .

(٣) أي مطر .

أعلم . قال : قال : وأصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب .

٦ - القائلون بالحلول والاتحاد :

وعقيدة الحلول والاتحاد تقوم على الغلو فى بعض البشر بدعوى أن فيهم جزءا إلهيا يمنحهم سلطاناً فوق الناس ، فيحل هذا الجزء الإلهي فى شخص ما ، أو يتحد معه ، فتكون شخصية هذا الإنسان مزيجاً أو خليطاً من اللاهوت والناسوت .

وتناسى هؤلاء أن العبد عبد ، وأن الإله إله ، وشتان بينهما ، وأن الله تعالى يقول : ﴿ لَنْ يَنْتَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَنْتَكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَخْشُرُهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا ﴾ (١) .

وغفل هؤلاء عن أن العبادة توفيق ، وأن الهداية منحة ، وأن العبد مهما أطاع واتفق فهو متقلب فى نعم الله التي لا تعد ولا تحصى ، ولا يملك من أمر نفسه أو غيره شيئاً .

ومن قال : إنه الحق !!

أو : ليس فى الجبة إلا الله !!

أو : أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا .

أو :

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغيرلانٍ وديراً لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أتى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

كل هؤلاء إما مخبولون فقدوا وعيهم وزاغ منهم البصر .

وإما منافقون يحملون وثنيات الأمم ويريدون أن يصدوا عن سبيل الله .

* * *

(١) سورة النساء الآية : ١٧٢ .

دلائل التوحيد في سورة البقرة

١ - فضل سورة البقرة :

دلالة القرآن المجيد على توحيد الله وتنزيهه دلالة قوية كبيرة ، متعددة الوسائل ، شاملة لجوانب الاستدلال ، تخاطب العقل والقلب معاً وتناجي الفطرة في أعماقها البعيدة ، وتنادى النفس في خلجاتها القريبة ، وتشد الإنسان إلى آفاق علوية نورانية ، وتهديه إلى مظاهر الجلال والكمال والجمال في ذات الله تعالى .

وسورة البقرة لوحة من تلك اللوحات القرآنية الفريدة .

فهذه السورة أطول سور القرآن ، وهي سورة مدنية ، آياتها ست وثمانون ومائتان ، تشتمل على تسعة عشر رباعاً ونصف الربع ، فهي حزاء وثلاثة أرباع ونصف .

وفي فضلها جاءت أحاديث نبوية شريفة ، منها قول النبي ﷺ - في صحيح مسلم - : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » .

وسماها الرسول ﷺ الزهراء ، فقال : « اقرأوا الزهراوين ، سورة البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما »^(١) .

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن سورة البقرة ، وسورة آل عمران في مقدمة سور القرآن التي تشفع لقارئ القرآن العامل به ، فقال - كما رواه مسلم - : « يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما » .. وفي سورة البقرة آية الكرسي^(٢) وهي أعظم آية في القرآن ، وجاء في فضلها قول رسول الله ﷺ لأبي بن كعب رضي الله عنه :

(١) العمامة والغاية بمعنى واحد وهو ما أظلل الإنسان فوق رأسه ، والفرقان الحماعتان ، والصواف جمع صافة وهي ما يسط حناحيه في الهواء .
(٢) الآية رقم ٢٥٥ من سورة البقرة .

يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟
فقال أبى بن كعب : الله لا إله إلا هو الحى القيوم .
فضرب رسول الله فى صدره وقال : ليهنك العلم أبا المنذر « رواه مسلم .
وفى سورة البقرة أطول آية فى القرآن ، وهى آية المداينة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْشَبُوهُ ... ﴾ (١) .

وآخر هذه السورة له منزلة سامية وثواب جزيل ، ففى الصحيحين عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » (٢) .

٢ - إبداع الصنع :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

بدأت الآيات هنا بخطاب عام لبني الإنسان يدعوهم إلى عبادة الخالق المبدع الحكيم .

لقد وجد بنو الإنسان بعد عدم ، وتعاقبت البشرية جيلاً بعد جيل ، ولا يدعى أحد منهم أن له يداً فى خلق نفسه ، أو خلق بنى جنسه ، وليس هناك ادعاء لكائن من كان بقدرة على خلق البشر .

وتنحصر قصة الخلق فى مصدر واحد هو الله مانح الوجود وخالق الأحياء .. وينظر الإنسان حوله فيجد أرضاً ممهدة ذات فجاج ، وسماء مرتفعة ذات أبراج ، ويرى ماء مدراراً يتنزل من السحاب ، فتتحول الأرض القاحلة إلى حدائق ذات بهجة وثمرات مختلفة ألوانها ، وزروع من كل زوج كريم .

(١) سورة البقرة الآية - ٢٨٢ .

(٢) أى كفتاه المكروه تلك الليلة ، أو كفتاه عن قيام الليل .

(٣) سورة البقرة الآيات ٢١ ، ٢٢ .

ويتلفت العقل فلا يقبل دعوى لكائن بشرى فى تصريف هذه الأمور وتديرها ،
ولا يعلم أحداً غير الله أبدعها وقدرها وسواها .

إن استقامة الخلق على سنن ثابتة ، وإبداع الصنع فى عجائب مدهشة ، وكثرة
النعم وعموم نفعها مع امتداد الزمان والمكان ، كل ذلك يؤكد وحدة المصدر وانفراد
التدبير وتوحيد الخالق .

فالمسألة واضحة جلية ، والقضية حقيقة ثابتة ، والإقرار بها هو الحل الصحيح ،
والعقل الرشيد ، والرأى الصائب ، والفطرة النقية ، ولهذا كان النهى عن خداع
النفس ومغالطة العقل ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

لكن الإقرار وحده لا يكفى ، بل لابد أن يندفع الإنسان اندفاعاً ذاتياً بلا تردد
إلى العبادة والخضوع والطاعة لولى النعمة ورب الخلائق ومبدع الكائنات حتى
تتحقق الوقاية من أمراض الشرك وسوءات الانحراف وضلالات الهوى وخرافات
الوهم .

وهنا يصبح الإنسان تقياً نقياً حنيفاً مسلماً .

٣ - انفراد السلطان :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ
مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ^(١) .

تأتى هذه الآية بأسلوب تقرير العلم الإنسانى بقضية التوحيد الكبرى ، المبنية
على أساس أن الملك كله بلا منازع - لله خلقاً وتديراً .

فهذه القضية من الوضوح والجلاء بحيث ندرك إدراكاً جازماً أنه لا أحد غير
الله يملك فى الكون مثقال ذرة ..

ولا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ..

ولا أحد يقهر الله أو يغالبه ..

فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه ..

(١) سورة البقرة الآية ١٠٧ .

ويتأكد هذا المعنى في سياق الآية التالية : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) .

فحيثما توجه الإنسان يبصره وبصيرته ، لا يجد أمامه إلا الله إبداعاً في الكون ، وتديراً للكائنات ، وعلواً عليها ، وقهراً لها ، وإحاطة بها .

ولهذا فمن العار والجهل أن يدعى الإنسان ولداً لله ، فالجميع عباد الله ، خاضعون لجلاله ، خاشعون لكماله ، واقعون في سلطانه .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مُبْخَاةٌ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِثُونَ ﴾ ^(٢) .

إن ادعاء الولد لله تعالى يتنافى مع التنزيه المطلق الواجب لله عز شأنه ، فإذا كان الولد في النطاق البشري يسعد أبويه ، أو يزيدهما رفعة ، أو يبقى لهما ذكراً ، أو يحتاجان إليه في كبرهما ، فهذه معان تدل على النقص البشري الذي يتكامل بغيره ، ويسعى لاكتساب فضل ممن سواه ، أما الإله الحق ذو الحلال والإكرام فهو منزّه عن الوالد والولد .

فإن الله سبحانه هو الخالق وما عداه مخلوق .

وهو سبحانه له الأمر كله وما عداه مأمور .

وهو سبحانه القاهر فوق عباده وما عداه مقهور .

وهو سبحانه الغنى وما عداه فقير .

وهو سبحانه الكبير المتعال وما عداه صغير ، ضعيف لا حول له ولا طول .

ولهذا قال جل شأنه : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(٣) .

والتعبير القرآني ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ له دلالاته في سرعة التحقيق والتنفيذ للإرادة الإلهية بلا معقبات وبلا عقبات وبلا منازع .

(١) سورة البقرة الآية : ١١٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١١٦ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١١٧ .

٤ - وحدة المعبود الحق :

قال تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۚ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

تبسط الآيات هنا بين يدي الإنسان آثار رحمة الله في الكون والكائنات ، وتدعوه إلى التأمل الواعي والتعقل الرشيد ، ليدرك حقيقة توحيد الله في ربوبيته واستحقاقه وحده للعبادة .

إن المعبود الحق لا يتعدد ، كما أن الخالق لا يتعدد ، وهناك صلة قوية متلازمة بين الإبداع الكوني واستحقاق العبادة ، فكيف يُعبد من لا يخلق ولا يرزق ولا يملك من الأمر شيئاً ؟ اللهم إلا إذا انقلبت الموازين وصاعت القيم واستبدت الأهواء واستحكمت الظلمات .

إن ربنا جل جلاله يتجلى علينا برحمته وبره وإحسانه حيثما توجه النظر .

وساقت الآية هنا عشر نعم جليلة تستوعب الحياة بأسرها ، وتشمل الكون بأجمعه ، فتصعد بنا في أجواء الفضاء ، وتهبط في أغوار المياه ، وتسبح في البر والبحر ، وترشد إلى أنواع الزهور وألوان النبات وأشكال الثمار ، وتبعث الحياة بكل أبعادها فيما عظم وفيما صغر ، مما نعلم وما لا نعلم .

فهل يعقل الناس قضية التوحيد الخالص لله رب العالمين ؟
وما يعقلها إلا العالمون .

إن فريقاً من البشر جعلوا لله أنداداً سفهاً بغير علم ، وصرف إليهم الحب والرغبة والرغبة والاستعانة والتوكل والخشوع والتقوى .

(١) سورة البقرة الآية : ١٠٠ - ١٦٤ .

وهذا كله اعتداء صارخ على العقل ، ووأد للفطرة ، وخروج عن مقتضى الحكمة .

والمؤمن وحده هو الذى يضع الأمور فى نصابها ، فيتوجه بقلبه وقالبه إلى الله وحده حياً وضراعة ودعاء .

إن المؤمن يعبد الله وحده ، والعبادة هى قمة الحب الإلهى ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾ (١) .

ثم إن المسألة ليست متروكة للأهواء ، يضل من يضل ، وينحرف من ينحرف ، بلا مسئولية ولا جزاء ، وإلا ضاعت كرامة الإنسان !!

إن الحساب والجزاء هو تأكيد لكرامة البشر الذين تحملوا أمانة التكليف وشرف الأمر والنهى .

ومن هذا المطلق تأتى ملاحقة العدل الإلهى للمكذبين الكافرين المشركين .. قال تعالى : ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (٢) .

إن مسألة الشرك واتخاذ الأنداد تأتى فى الغالب انسياقاً مجرداً عن الوعى ، وتقليداً أعمى بلا تعقل ، ومسايرة بلهاء لكبراء أفسدوا فى الأرض ، وقهروا الناس على عبادة الطواغيت .. وتلك حال مؤسفة ؛ لأنها تسلب عقول المستضعفين وتخدع عقول المستكبرين ، وتجعل الكل فى غيوبة عقلية .

وما كان الله ليظلمهم ، لقد منحهم العقل وبسط لهم دلائل التوحيد ، وأقام لهم آيات الأنفس والآفاق ، وأنزل لهم الوحى ، وقدم لهم النور .. فاستحبوا العمى على الهدى ، وآثروا مناع الحياة الرحيص ، واستهوتهم الشياطين .

فلا يلومن أحد إلا نفسه ، وستأتى لحظة - لا ريب فيها - يتبادل الناس فيها الاتهامات ويتقاذفون المسئولية ، ويترأ كل من كل ، ولات حين مناص !!

(١) ، (٢) سورة النقرة الآية : ١٦٥ .

قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ ^(١) .

٥ - التضرّد بصفات الجلال والكمال :

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ^(٢) .

هذه آية جامعة تأخذ بالألباب ، تبدأ بالاسم العلم الجامع لصفات المحامد والمحاسن ، إنه لفظ الجلالة « الله » .

ثم تتبعه بكلمة الإخلاص والتوحيد « لا إله إلا هو » .

ثم تصفه بدوام الحياة والقيومية « الحي القيوم » .

من غير غفلة أو نسيان ، ومن غير فتور أو تعب « لا تأخذه سنة ولا نوم »

مع عظم الملك واتساع الملكوت « له ما في السموات وما في الأرض » .

ثم تسوق الآية نماذج لهذا السلطان الأعظم وذلك التدبير الأعلى .

فلا أحد يملك مع الله من الأمر شيئاً ..

ولا أحد يستطيع التأثير على مسار القدرة الإلهية التي تواصل إبداعها دون وساطة أو حاجة أو مساندة .

وتنطلق القدرة الإلهية بناء على العلم الشامل الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض .

وهو سبحانه يمنح العلم والقدرة لمن يشاء تفضلاً وبقدر ، فالكمال والجلال لله وحده « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه !؟ »

(١) سورة البقرة الآية : ١٦ ، ١٦٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٠ .

﴿ يَغْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ .

ومع اتساع الملك الإلهي وسعة العلم الرباني وطلاقة القدرة وهيمنة الحكم وقهر السلطان ، ورحمة الربوبية والقيام على كل شيء ، فإن الله سبحانه لا يناله تعب أو نصب ، ولا يعجزه شيء ، فهو جل شأنه على متعال ، عظيم ، كبير ، متكبر .. ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ .

٦ - حوار في الله ومع الله :

إن الله وحده هو الذي خلق وأبدع .. ولم يصنع الخلق عبثاً ولن يتركه هملأً ، فالله تعالى خلق ودبر وسيحاسب كل نفس بما تسعى ..

وتسوق سورة البقرة ثلاثة حوارات حول هذا المعنى :

- حواراً بين إبراهيم الخليل والملك الطاغية .

- حواراً بين الله تعالى والرجل الصالح .

- حواراً بين الله تعالى وإبراهيم الخليل .

في الحوار الأول ادعى الملك الربوبية لنفسه اختيلاً بقوته واغتراراً بسلطانه ، فحاجه إبراهيم عليه السلام ، ويئن له أن الحياة والموت بيد الله وحده ، وأن الملك مغرور نسي خلقه وتناسى نهايته ، فاستكبر الطاغية وتعامى ، فقال : أنا أحي وأميت !! وأتى بشخصين محكوم عليهما بالإعدام ، فعفا عن أحدهما وقتل الآخر .. وتلك صورة ساذجة ليس فيها خلق الحياة ولا خلق الموت ، وانتقل إبراهيم إلى مشهد آخر للقدرة الإلهية المبدعة لا يطاول ولا ينفع معه الادعاء ، إنه مشهد الشمس في شروقها وغروبها وثبات ناموسها ، فانقطعت حجة الطاغية ووقف حائراً مبهوراً .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

وفى الحوار الثانى مرّ رجل صالح ، قيل هو عزيز ، على قرية خربة ، باد أهلها وسقطت حيطانها ، فوقف متأملاً وقال : أننى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ أى كيف أو متى يبعث الله أهل هذه القرية بعد موتهم ؟ أو يعيد هذه القرية إلى سابق عهدها بعد حرابها ؟

فأجرى الله تعالى عليه تجربة ذاتية ولقنه درساً من نفسه ، فأماته مائة عام ، ثم أعاده إلى الحياة ، فقام الرجل ينظر حوله وتساءل : كم مضى من الوقت فى غيبته أو غيبوته عن الحياة ؟

وظن ذلك يوماً أو بعض يوم ، لكنه التفت فوجد شيئاً عجيباً . إن طعامه وشرابه لم يتغير ، وإن حماره الذى يركبه قد أصبح عظاماً بخره !! يا لهول الموقف ..
الطعام لم يفسد ، والحمار تفرقت عظامه !!
وإذا بالنداء الإلهى : قال بل لست مائة عام !!

وهاهى ذى تجربة إحياء الموتى : العظام تتجمع وتتألف فى تناسق عجيب ، وتتوالى عليها لحومها ودماؤها ، وتدب الحياة فيها ، وينطلق الحمار بصاحبه يحمل متاعه ويسير على الطريق .

قال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ .

وفى الحوار الثالث تساءل إبراهيم الخليل عليه السلام عن كيفية إحياء الله الموتى ، ليس شكاً فى القدرة الإلهية ، ولكن انتقالاً من علم اليقين إلى عين اليقين ، فأمره الله تعالى بإمساك أربعة طيور وتقطيعها إرباً إرباً ، والرمى بها على رؤوس الجبال .

فإن ذلك لن يعجز الله ، ولن يمنع قدرته على إحياء الموتى .

(١) سورة النقرة الآية ٢٥٩ .

لقد وقف إبراهيم عليه السلام ودعا الأجزاء المبعثرة والمتباعدة ، فأسرع كل جزء إلى مثله ، وتجمعت أجزاء كل طائر على حدة ، وبعث الله فيه الحياة وعاد الطائر طليقاً كما كان .

أليس ذلك القادر واحداً في تدبيره ، واحداً في علمه ، واحداً في قدرته ، واحداً في سلطانه ، واحداً في عدله وحكمه ، واحداً في حسابه وجزائه ، واحداً في ثوابه وعقابه ، متفرداً بالجلال والكمال والجمال ؟ .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّئَنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

٧ - أحدية الله في الخلق والجزاء :

وتأكيداً لحقيقة أن الخالق الواحد الأحد هو الفتح العليم ، وهو الحكم العدل اللطيف ، جاءت الآيات بعد ذلك تدعو إلى تجريد العمل لله وحده ، وإخلاص النية له سبحانه ، فنهت عن الرياء ، وضربت لذلك الأمثال .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَا شَاءَ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

فالمرائي لا ثواب له عند الله رغم بذله وانفاقه وكثرة صدقاته ، ومثله كمثل صفوان : أى حجر كبير أملس ، عليه تراب يشبه تربة الأرض ، فنزل عليه المطر شديداً عظيم القطر ، فلم يثبت الماء ولم يبق التراب وتركه المطر بلا أثر صلداً ، لا نبات فيه ، ولا ثمر ، ولا يصلح لشيء مما ينفع الناس .

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٦٤ .

أما المخلصون لله وحده فإن أعمالهم تتنامى ، وثوابهم يتضاعف كمثّل حديقة غناء فى موقع مرتفع من الأرض يصيبها المطر الشديد والقطر الخفيف ، ولا ينقطع ثمرها لجودة أرضها وخصوبة موقعها ، فيظل الانتفاع بها دائماً .

قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشِبُّوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ^(١) .

ونقترب من ختام السورة لتأتى آخر آية نزلت من القرآن تبين ختام قصة الحياة وأن المنتهى إلى الله ، وأن هناك الحساب والجزاء بميزان العدل الإلهى .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ^(٢) .

فالله جل جلاله هو الأول والآخر ، وهو سبحانه الواحد الأحد فى الخلق والتدبير والجزاء .

* * *

(١) سورة البقرة الآية . ٢٦٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨١

المبحث الرابع

جدال في الله

- * أهمية الجدل .
- * أنواع الجدل .
- * دليل الحدوث .
- * اعتراض الفلاسفة الإسلاميين .
 - قضية الجوهر الفرد .
 - قضية التسلسل .
 - الإرادة والقدرة الإلهيتان .
- * دليل الإمكان .
- * إشارات ابن سينا .
- * دليل التوارد والتمانع .
- * الوسوسة .

جدال في الله

أهمية الجدل :

الجدل والحوار والمناقشة والمحااجة والمناظرة قد تلتقى وقد تختلف ، ولسنا في مجال تحقيق القول في ذلك ، لكننا نريد أن نقتصر على لفظ الجدل ومشتقاته في البيان القرآني ، وبداية فإن كتب اللغة تبين أن مادة الجدل تدور حول الشدة مطلقاً ، تقول :

جدلت الحبل إذا شددت فتله .

جدل الحب في سنبله إذا قوى واشتد .

ورجل جدل إذا قوى في الخصومة .

وغلام جادل إذا اشتد .

هذا وقد جعل القرآن الجدل من طبيعة الإنسان ، فقال : ﴿ .. وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾^(١) .

فإن الجدل مرتبط بالبيان ، والقدرة على البيان هي خاصة الخصائص لبني الإنسان ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾^(٢) .

وجاء التأكيد القرآني في مناهج الدعوة إلى الله على أهمية الجدل بالتي هي أحسن بمعنى صدق الدليل واحترام الخصم والتلطف معه والحرص عليه .. قال تعالى : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٣) .

(١) سورة الكهف الآية : ٥٤ .

(٢) سورة يس الآية : ٧٧ .

(٣) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

وقال جل شأنه : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ... ﴾^(١) .

إن الجدال ذو أهمية كبيرة في حياة الناس الخاصة والعامة ، ولهذا جاءت في القرآن سورة تسمى سورة المجادلة (بفتح الدال على المصدر) أو المجادلة (بكسر الدال - اسم فاعل) ، لتحكى قصة امرأة ظاهر منها زوجها ، فجاءت تشكو إلى رسول الله ﷺ وتستفتيه في أمر علاقتها الزوجية ، وكان الظهار طلاقاً في الجاهلية ، وظلت المرأة تراجع رسول الله ﷺ ، وتجادله حرصاً منها على مستقبل أولادها وظروف حياتها ، وقالت : يا رسول الله أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني .

هنا نزل القرآن بحكم حديد هو كفارة الظهار ، وجاءت السورة تحمل اسم المجادلة ، قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُزَكَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(٢) .

وتتجلى أهمية الجدال في الدنيا والآخرة ، فإن موقف الحساب والجزاء يوم القيامة تجتمع فيه من الشواهد والبيّنات والوثائق ما لا يمكن إنكاره أو التكرار له ، ويتولى كل إنسان الدفاع عن نفسه بلا واسطة ، وتوضع موازين القسط .. قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(٣) .

* * *

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٦ .

(٢) سورة المجادلة الآية : ١ .

(٣) سورة الحل الآية : ١١١ .

أنواع الجدل

الجدال قد يكون محموداً ، وقد يكون مذموماً ، شأنه في ذلك شأن كثير من أمور هذه الحياة .. تمدح بالنية أو الوسيلة ، وقد تذم بأحدهما أو بهما معاً . فالجدل المحمود ما كان دفاعاً عن الحق ، ونصرة للفضيلة ، وتأيداً لمسالك الرشد ومحاسن الأخلاق .

وقد قام به الأنبياء والمصلحون والدعاة في كل زمان ومكان ، يحملون دلائل الحق واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، ويقدمون براهين الحقيقة عذبة كأنها ماء الحياة .

فشيخ الأنبياء نوح عليه السلام نصح قومه ، وكشف لهم بينات الهدى ، ووضح لهم طريق الرشاد ، وناقشهم مناقشة ضافية حول قدرة الله تعالى وإبداع صنعه ، ولكنهم أصروا واستكبروا استكباراً :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(١) ﴾

والجدال المذموم ما كان دفاعاً عن الباطل ، أو ترويحاً للكذب ، أو تزييماً للقيح ، أو تأييداً للبدعة أو إشاعة للمنكر ..

وقد حكى القرآن المجيد جدال المشركين حول قضايا التوحيد وأصول الدين حين قالوا : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ^(٢) ﴾ .

﴿ .. مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ^(٣) ﴾ .

﴿ .. لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ^(٤) ﴾ .

(١) سورة هود الآية ٣٢

(٢) سورة ص ، الآية ٥ .

(٣) سورة يس الآية ٧٨ .

(٤) سورة الرحمن الآية ٣١

﴿ .. لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ... ﴾^(١) .

وهذا كله جدل بالباطل فى الله وآياته لا يصدر عن فكر ولا يقدم دليلاً ولا يسلك مسلك البرهان .. قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۚ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾^(٢) .

فهؤلاء فقدوا العلم الضرورى ، والنظر السليم والوحى الصحيح ، فليس لديهم سند لمعتقدهم ، وإنما ساقهم إلى الجدل بالباطل الكبرياء على الحق والكبر على الخلق .

وقد عبر القرآن عن هذا المعنى فى آية أخرى هى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٣) .

وأكد القرآن أن الجدل بالباطل موجود فى كل أمة ، ويتبناه المفسدون فى كل جيل ، ويتصارع مع الحق فى كل عصر ، لكن تبقى العاقبة لقوة الحق ونور الحقيقة .. قال تعالى : ﴿ .. وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالبَّاطِلِ لِيُذْهِبُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾^(٤) .

وتلك العاقبة الحميدة للحق لن تتخلف .

وهذه النهاية المشعومة للباطل لن تتبدل .

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مُّجِيبٍ ﴾^(٥) .

* * *

(١) سورة الزخرف الآية : ٢٠ .

(٢) سورة الحج الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٣) سورة عافر الآية : ٥٦ .

(٤) سورة غافر الآية : ٥ .

(٥) سورة الشورى الآية : ٣٥ .

دليل الحدوث

. استدلل المتكلمون على وجود الله تعالى بدليل الحدوث ، ويعنون به أن العالم - وهو كل ما سوى الله تعالى - حادث وجد بعد عدم ، وأن موجدَه هو الله وحده ، ويصوغون الدليل هكذا :

العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث قديم .

إذن فالعالم لابد له من محدث قديم .

فالقضية الأولى « العالم حادث » هي صغرى القياس من الشكل الأول .

والقضية الثانية « كل حادث لابد له من محدث قديم » هي كبرى القياس من الشكل الأول .

والقضية الثالثة « العالم لابد له من محدث قديم » هي نتيجة القياس .

والمقدمتان الأولى والثانية نظريتان تحتاجان إلى استدلال كى نسلم بالنتيجة .

دليل المقدمة الأولى :

العالم حادث :

استدلل المتكلمون على حدوث العالم بالتغير وقالوا :

العالم متغير ، وكل متغير حادث .. إذن فالعالم حادث .

فنحن بالمشاهدة ندرك التغير فى الليل والنهار ، والحركة والسكون ، والحرارة والبرودة ، والسواد والبياض ، والحياة والموت ... إلخ .

وما قد شاهده على حال واحدة فإن تغيره ممكن وواقع قد يدركه جيل بعدنا ، فالجبال الشوامخ ألفناها ثابتة قروناً عديدة ، وهى الآن تُزال وتُدمر تدميراً ، وإن العلم الحديث يثبت أن الكواكب السيارة يمكن أن تخرج عن مسارها وتتفجر فى أية لحظة .

فكل شىء متغير ..

الإنسان يكون نطفة وعلقة ومضغة ، وطفلاً وشاباً وكهلاً .
والذرة تتحول إلى طاقة .

والعناصر تتفاعل .. إن تركيب الأكسجين والهيدروجين بنسبة معينة ينتج الماء ،
وهذا الماء تحت ضغط حرارة معينة يتحول إلى بخار ، والبخار يمكن تكثيفه فيعود إلى
ماء .

وقد حاول الأقدمون تقسيم العالم إلى جواهر وأعراض^(١) وحكموا على
الأعراض بالتغير والحدوث بالمشاهدة ، وحكموا على الجواهر بالتغير والحدوث
بملازمة الأعراض .

ولهم سلسلة من الاستدلالات .

لقد أثبتوا حدوث الأعراض بمطالب سبعة نظمها بعضهم في قوله :
زَيْدٌ ، مَ قَامَ ، مَا انْتَقَلَ ، مَا كَمُنَا مَا انْفَكَ ، لَا عُذْمٌ قَدِيمٌ ، لَا حِنَا^(٢)

لقد أثبت المتكلمون : أولاً : زيادة الأعراض على الجواهر بالمشاهدة .

وثانياً : نفوا أن يقوم العرض بنفسه لأنه لا يعقل صفة من غير موصوف .

وثالثاً : نفوا أن ينتقل العرض من جوهر إلى جوهر ، لأنه في حال الانتقال
يكون قائماً بنفسه وهو ما يتناقض مع تعريف العرض .

ورابعاً : نفوا أن يكون العرض كامناً في الجوهر عند طريان ضده ، لأنه يلزم
عليه الجمع بين التقيضين أو الضدين في محل واحد .

وخامساً : نفوا أن ينفك الجوهر عن الأعراض مطلقاً ، لأنه لا يعقل خلو جوهر
عن الحركة والسكون معاً ، فذلك رفع للتقيضين محال .

وسادساً : نفوا أن يكون العرض قديماً ، ثم عدم في حال طريان ضده ، لأن

(١) الجوهر ما قام بنفسه ، والعرض ما قام بغيره .

(٢) لاحنا نحت من قولهم : استحالة حوادث لا أول لها ، وقوله : «عُذْمٌ» بضم العين وسكون
الدال ، وقوله : «ما انتقل» بسكون اللام للورن ، وقوله : «م قام» بحذف ألف ما الساكنة للورن .

راجع حاشية على شرح أم الرايين تأليف محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ
وبهامشه شرح أم الرايين للشيخ القوسي ط ١٣٥٨ هـ ص ١٥٢ .

القديم الواجب لا يقبل العدم وإلا كان قلباً للحقائق .

وسابعاً : نفوا أن تكون الأعراض حادثة بلا بداية ، فما من حادث إلا وقبله حادث ، لأن مفهوم الحادث ما له بداية ، فكيف يعقل حادث لا بداية له .

وبعد أن انتهى المتكلمون من إثبات حدوث الأعراض حكموا بحدوث الجواهر بدليل الملازمة هكذا :

الجواهر ملازمة للأعراض الحادثة ، وكل ما لازم الحادث فهو حادث .
إذن الجواهر حادثة .

دليل المقدمة الثانية :

وكل حادث لا بد له من محدث قديم :

الحادث هو ما وجد بعد عدم .

وهذا الوجود قائم على إبداع وحكمة وإتقان .

وليس معقولاً أن يكون الحادث الذي هو العالم وجد مصادفة ، فإن المصادفة لا تخلق نظاماً .

وليس يعقل أن يكون الحادث أوجده حادث مثله ، لأنهما متساويان ، يجرى في أحدهما ما يجرى في الآخر ، فيحتاج كل منهما إلى محدث قديم ، وإلا دار الأمر أو تسلسل وكلاهما باطل .

فالدور توقف شيء على شيء قد توقف على الأول بمرتبة أو مراتب ، كتوقف وجود « أ » على « ب » ، وتوقف « ب » على « أ » .

أو توقف « أ » على « ب » ، وتوقف « ب » على « ح » ، وتوقف « ج » على « د » ، ثم توقف « د » على « أ » .

فالدور باطل ، لأنه يقتضى التقدم والتأخر في لحظة واحدة ، أو الوجود والعدم في وقت واحد ، وهذا جمع بين النقيضين محال .

فهو يقتضى وجود « أ » باعتباره محدثاً ، ويقتضى في اللحظة نفسها عدم « أ » باعتباره حادثاً .

أما التسلسل فهو تعاقب الحوادث في الماضي بلا بداية ، فما من حادث إلا وقبلة حادث إلى ما لا نهاية .. وهذا باطل ، لأن ما حصره الوجود فهو حادث له بداية ، وهو يختلف عن حوادث المستقبل ؛ لأنها مجرد تخيل ويمكن للذهن أن يتصور حوادث بعدها حوادث مستقبلاً بلا انقطاع .

هذا وليس يعقل أن يكون الحادث وجد من ذاته وطبيعته ، لأن ما بالذات لا يتخلف ، فإذا كان من طبيعته الوجود تحتم القدم له ولزومه الوجود وانقلابت حقيقته من الحادث إلى القديم ، ومن الممكن إلى الواجب ، وقلب الحقائق محال .

فلا بد أن ينتهي الحادث إلى محدث قديم ، منحه الوجود وأبدع صنعه وتولى شئونه .

ذلكم المحدث القديم هو الله تعالى واجب الوجود بذاته .

* * *

اعتراض الفلاسفة الإسلاميين

الفلاسفة يقولون بقديم العالم ، ويشبتون وجود الله تعالى ، ويتبنون ما يسمى بنظرية العقول العشرة ، ويزعمون أن العالم صدر عن الله تعالى صدور العلة عن معلولها ، ويصفون العالم بالقديم الزماني ، وهو ما لا يسبقه عدم ويحتاج إلى مؤثر ، هو الله تعالى الموصوف وحده بالقديم الذاتي .

ويذهبون إلى أن الله تعالى واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه إلا واحد .. وهذا الواحد الصادر عن الله متكرر بالاعتبار ، فهو متصف بالإمكان من حيث إن غيره أثر فيه ، وبالوجوب من حيث إنه علة للقديم ، فهذا الواحد قديم بقديم علته .

ويتوالى الفيض ويتكاثر الصدور حتى تصل الأفلاك إلى تسعة ، والعقول إلى عشرة ، ويصبح فلک القمر هو الفلك التاسع ، ويصير عقل فلک القمر هو العقل العاشر المسمى عندهم بالعقل الفعال ، وهو الذى يدير العالم الأرضي ^(١) .

وعلى هذا فالعالم فى جملة عندهم قديم بالزمان ، حادث بالذات ، ولا أول له ، لأن العلة والمعلول مقترنان ، ويرون أن الجزئيات والأفراد حادثة ذاتاً وزماناً .

وهناك بحوث مطولة ونزاع كبير حول قدم العالم وحداثته ، اشترك فيها الفلاسفة والمتكلمون وأنصار الاتجاه السلفى ، وقد كَفَّرَ الإمام أبو حامد الغزالي الفلاسفة لقولهم بقديم العالم ^(٢) ، وجاء ابن رشد ليهون من نظرية قدم العالم ، ويرى أن نصوص الكتاب العزيز تشير إلى مادة أزلية سابقة على خلق العالم المشاهد مثل الماء فى قوله تعالى : ﴿ .. وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى السَّمَاءِ ... ﴾ ومثل الدخان فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ... ﴾ ^(٣) .

(١) راجع كتابا (المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه) ص ١٩٦ - ٢١٠ طعة دار المعارف بمصر ، وكتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) للغزالي .

(٢) راجع كتاب (نهافت الفلاسفة) تحقيق د. سليمان دينا ، ط دار المعارف بمصر .

(٣) راجع كتاب (مناهج الأدلة فى عقائد الملة) تحقيق د. محمود قاسم - ط مكتبة الأجلو المصرية

ثم تبنى أنصار الاتجاه السلفي القضية القائلة بجواز حوادث لا أول لها في الماضي وجعلوها أظهر الأقوال ، وانتصروا للرأى القائل بأن العالم مخلوق من مادة ، وكأن المادة ليست من العالم .

وقال شارح العقيدة الطحاوية :

وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها من القائلين بحوادث لا آخر لها ^(١) فأظهر في الصحة من قول من فرق بينهما فإنه سبحانه لم يزل حياً ، والفعل من لوازم الحياة ، فلم يزل فاعلاً لما يريد كما وصف بذلك نفسه حيث يقول ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۖ فَعَلَّ لِمَا يُرِيدُ ﴾ ^(٢) .

وحمل الشارح الآية على أن الفعل أكمل من عدم الفعل ، وأن الفعل والإرادة متلازمان ، ووصف القائلين بأن الحوادث لها أول بأنهم معطلة ^(٣) .

لقد تمحضت مسألة حدوث العالم أو قدمه عن قضايا جدلية كثيرة منها :

١ - قضية الجوهر الفرد :

اعتمد المتكلمون في إثبات حدوث العالم على نظرية ديمقريطس اليوناني (ت ٣٦٠ ق . م تقريباً) في الذرة ، وهي جزيئات مادية غير قابلة للانقسام ، لا تختلف إلا بصورها وأحجامها ، وقد رفض هذه النظرية كثير من العلماء ، وخاصة في العصر الحديث ، حيث تبين أن الذرة نفسها مركبة وأنها قابلة للانصهار والتحول من المادة إلى الطاقة .

ومن السهل أن نلقى بقضية الجوهر الفرد في اليم ، ولا يضير ذلك مسألة حدوث العالم ، فالتغير قائم في كل شيء ، وقضية وجود الله تعالى أعمق من كل دليل ، وأصح من كل برهان ، وأقوى من كل حجة .

(١) من الناس من ذهب إلى أولية الحوادث ونهايتها ، فقال بقاء الحية والنار مثل حهم من صفوان ، ومنهم من قال بعدم أولية الحوادث وعدم آخرتها كالأنصار الاتجاه الفلسفي والسلفي ، ومنهم من فرق فأحال عدم أولية الحوادث وأحاز عدم نهايتها كجمهور العلماء .

(٢) سورة البروج الآيتان . ١٥ ، ١٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣٧ - طبعة المكتب الإسلامي .

﴿.. قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(١) .

٢ - قضية التسلسل :

انتصر القائلون بحدوث العالم لقضية استحالة التسلسل إلى غير بداية في الماضي ، وشنعوا على من قال بحدوث لا أول لها .

وقد تبني قضية « حوادث لا أول لها » فلاسفة وسلفيون ، ووقعوا في تناقض ظاهر حين جمعوا بين الحدوث والقدم ، فإن مفهوم الحادث ما له أول ، وهو يناقض قولهم : لا أول له ، وما تركب من حوادث فهو حادث قطعاً .

ثم إن حديث القرآن عن الخلق سبقه كلمة بدأ ، أو يبدأ ، أو يبدئ ، مما يدل دلالة قوية على أن للخلق أولية ، وللحدوث بداية ، ولكل شيء في الكون نقطة ابتداء سبقها العدم المحض الذي ليس بشيء .

وجاء ذلك في أساليب بيانية متنوعة ، منها :

« أسلوب التأكيد بإن ، كما في قوله تعالى : ﴿.. إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(٢) »

« أسلوب التأكيد بالجملة الاسمية وضمير الفعل وحرف التأكيد كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ ، وهذه الآية من سورة البروج ، تسبق بآيتين قوله تعالى : ﴿فَعَالٍ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وكأنها تفسير لمعنى الفعل الذي لا يكون إلا حدوثاً له بداية .

« أسلوب الاستفهام الانكاري الذي ينزع فعل الخلق من الشركاء المزعومين ويثبتته لله وحده ، وهو فعل له بدء وليس قديماً .. قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾^(٣) »

(١) سورة الأعمام الآية ٩١٠

(٢) سورة يونس الآية ٤٠ .

(٣) سورة يونس الآية : ٣٤

« أسلوب الاستفهام التقريرى للحقيقة نفسها ، وهى بدء الخلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ نَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ نُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَآئِثُوا بِرَهَآئِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) .

« أسلوب الاستفهام التقريرى للعلم بهذه الحقيقة ، وكأن بدء الخلق من الوضوح والظهور بحيث لا يخفى على ذى فطنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ^(٢) .

« أسلوب الأمر بالبحث عن حقيقة بدء الخلق وأول النشأة لهذا الكون الفسيح وتلك المخلوقات العجيبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٣) .

فقضية « حوادث لا أول لها » وهم كبير وشدعة لا تخفى على ذى لب !!

٣ - الإرادة والقدرة الإلهيتان :

تساءل الفرقاء عن الإرادة والقدرة الإلهيتين : هل هما متلازمتان ؟ فما أرادته الله أزلاً أوجده أزلاً ، ولا تنفك الإرادة عن الفعل ولا يتفصل الفعل عن الإرادة ؟

لقد رفض القائلون بقدوم العالم ما يسمى عند المتكلمين بالصلوحى القديم والتنجزى الحادث ، بمعنى صلاحية القدرة فى الأزل للإيجاد فيما لا يزال .

وجرت مداخلات فكرية حول قوله تعالى : ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ، وظن البعض أن الفعل أكمل من عدم الفعل ، وذهبوا إلى القول بقدوم العالم ، ووقعوا فى تصور خاطئ حين أخذوا القضية على إطلاقها ، لأنه لا أحد يقول : إن الله لا يفعل مطلقاً حتى يقال له : إن الفعل أكمل من عدم الفعل .

وإنما الخلاف حول مفهوم الإرادة والاختيار ، فال مختار المرید يفعل ما يشاء متى شاء وكيف شاء ، وعدم الفعل ليس عجزاً ، والفعل نفسه ليس قهراً وقسراً .

(١) سورة السمل الآية . ٦٤ .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ١٩ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٢٠ .

ورغم أن القضية برمتها من أفق سام يتعلق بالذات الأقدس ، ويفوق التصور
البشرى إلا أن الأقرب إلى الفهم هو القول ببدء الخلق وأولية النشأة وبداية التكوين
وحدوث العالم .

وإن تلازم الفعل للإرادة أزلاً بحيث يؤدي إلى قدم العالم وحوادث لا أول لها
هو قول بالعلة ، ونفى للاختيار لا يتناسب مع جلال الله وكماله ، ويتنافى مع قوله
تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يُخْلِقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ... ﴾^(١) .
﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾^(٢) .

وليتأدب الفرقاء فإن هذه المسألة من غيب الغيوب ، وقد قال الله تعالى :
﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَلَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخَذَّ
الْمُضِلِّينَ عَصْدًا ﴾^(٣) .

* * *

(١) سورة القصص الآية : ٦٨ .
(٢) سورة الأنبياء الآية : ٢٣ .
(٣) سورة الكهف الآية : ٥١ .

دليل الإمكان

يستدل الفلاسفة على وجود الله تعالى بدليل الإمكان ، ويرفضون دليل الحدوث ، لأن العالم عندهم قديم بالزمان ، لم يسبقه عدم ، وهو يحتاج إلى مؤثر ، فقدم العالم تابع لقدم الله تعالى بطريق العلة التي لا تتخلف عن المعلول .

وقد يسمون هذا المعنى بالحدوث الذاتي .

والمتكلمون لا يمنعون الاستدلال بدليل الإمكان ، لأن كل ممكن عندهم حادث بالزمان : أي سبقه عدم .

ويصاغ دليل الإمكان هكذا :

العالم ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته مفتقر إلى واجب الوجود لذاته ، فتكون النتيجة : العالم مفتقر إلى واجب الوجود لذاته .

ونشرح هذا الدليل على النحو التالي :

١ - الممكن يستوى طرفا وجوده وعدمه ، فليس وجوده من ذاته وإلا صار واجب الوجود لا يقبل عدم .. وليس عدمه من ذاته ، وإلا صار مستحيلاً لا يقبل الوجود أصلاً .. فقبول العالم للوجود والعدم دليل إمكانه .

٢ - وجود الممكن يحتاج إلى مرجح ، لأن وجوده ليس ذاتياً .

٣ - هذا المرجح إما أن يكون نفس الممكن أو غير الممكن .

٤ - إذا كان المرجح نفس الممكن فهو باطل ، لأنه يقتضي التقدم باعتباره فاعلاً ، والتأخر باعتباره مفعولاً ، كل ذلك في لحظة واحدة ، وهذا جمع بين النقيضين محال .

٥ - إذا كان المرجح غير الممكن فهو أحد أمرين لا ثالث لهما :

(أ) المستحيل . (ب) واجب الوجود .

٦ - إذا كان المرجح هو المستحيل فهو باطل ، لأن المستحيل عدم ، فلا يعقل أن يمنح الوجود ، لأنه فاقد له ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

٧ - فلا يبقى إلا أن يكون المرجح واجب الوجود ، وهو الله تعالى .

إشارات ابن سينا

قدم الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) الدليل الفلسفى على وجود الله تعالى فى إشاراتهِ وتنبيهاته بألفاظهِ الموجزة وتعبيراته الدقيقة ، فقال :

الفصل التاسع : تنبيه :

كل موجود إذا التفت إليه من حيث ذاته من غير التفات إلى غيره :

فإما أن يكون بحيث يجب له الوجود فى نفسه أو لا يكون .

وإن لم يجب لم يحز أن يقال : إنه ممتنع بذاته بعدما فرض موجوداً ، بل إن قرن باعتبار ذاته شرط مثل شرط عدم علة صار ممتنعاً ، أو مثل شرط وجود علة صار واجباً .

وإن لم يقرن بها شرط ، لا حصول علة ولا عدمها ، بقى له فى ذاته الأمر الثالث وهو الإمكان ، فيكون باعتبار ذاته الشيء الذى لا يجب ولا يمتنع .

فكل موجود :

إما واجب الوجود بذاته .

أو ممكن الوجود بذاته .

* * *

الفصل العاشر : إشارة :

ما حقه فى نفسه الإمكان فليس يصير موجوداً من ذاته ، فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه ، من حيث هو ممكن .

فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء أو غيبته .

فوجود كل ممكن هو من غيره .

الفصل الحادى عشر : تنبيه :

إما أن يتسلسل ذلك إلى غير النهاية ، فيكون كل واحد من آحاد السلسلة ممكناً في ذاته ، والجملة متعلقة بها ، فتكون غير واجبة أيضاً ، وتجب بغيرها .. ولنزد هذا بياناً .

الفصل الثانى عشر : شرح :

كل جملة ، كل واحد منها معلول ، فإنها تقتضى علة خارجة عن آحادها ، وذلك لأنها :

• إما أن لا تقتضى علة أصلاً ، فتكون واجبة غير ممكنة ، وكيف يتأتى هذا وإنما يجب بآحادها ١٩

• وإما أن تقتضى علة هي الآحاد بأسرها ، فتكون معلولة لذاتها ، فإن تلك الجملة والكل شيء واحد .

وأما الكل بمعنى كل واحد فليس تجب به الجملة .

• وإما أن تقتضى علة هي بعض الآحاد ، وليس بعض الآحاد أولى بذلك من بعض ، إذا كان كل واحد منها معلولاً ، لأن علته أولى بذلك

وإما أن تقتضى علة خارجة عن الآحاد كلها وهو الباقي

* * *

الفصل الثالث عشر : إشارة :

كل علة جملة هي غير شيء من آحادها ، فهي علة أولاً للآحاد ، ثم للجملة وإلا فلتكن الآحاد غير محتاجة إليها .

فالجملة إذا تمت بآحادها لم يحتج إليها ، بل ربما كان شيء ما علة لبعض الآحاد دون بعض ، فلم تكن علة للجملة على الإطلاق .

* * *

الفصل الرابع عشر : إشارة :

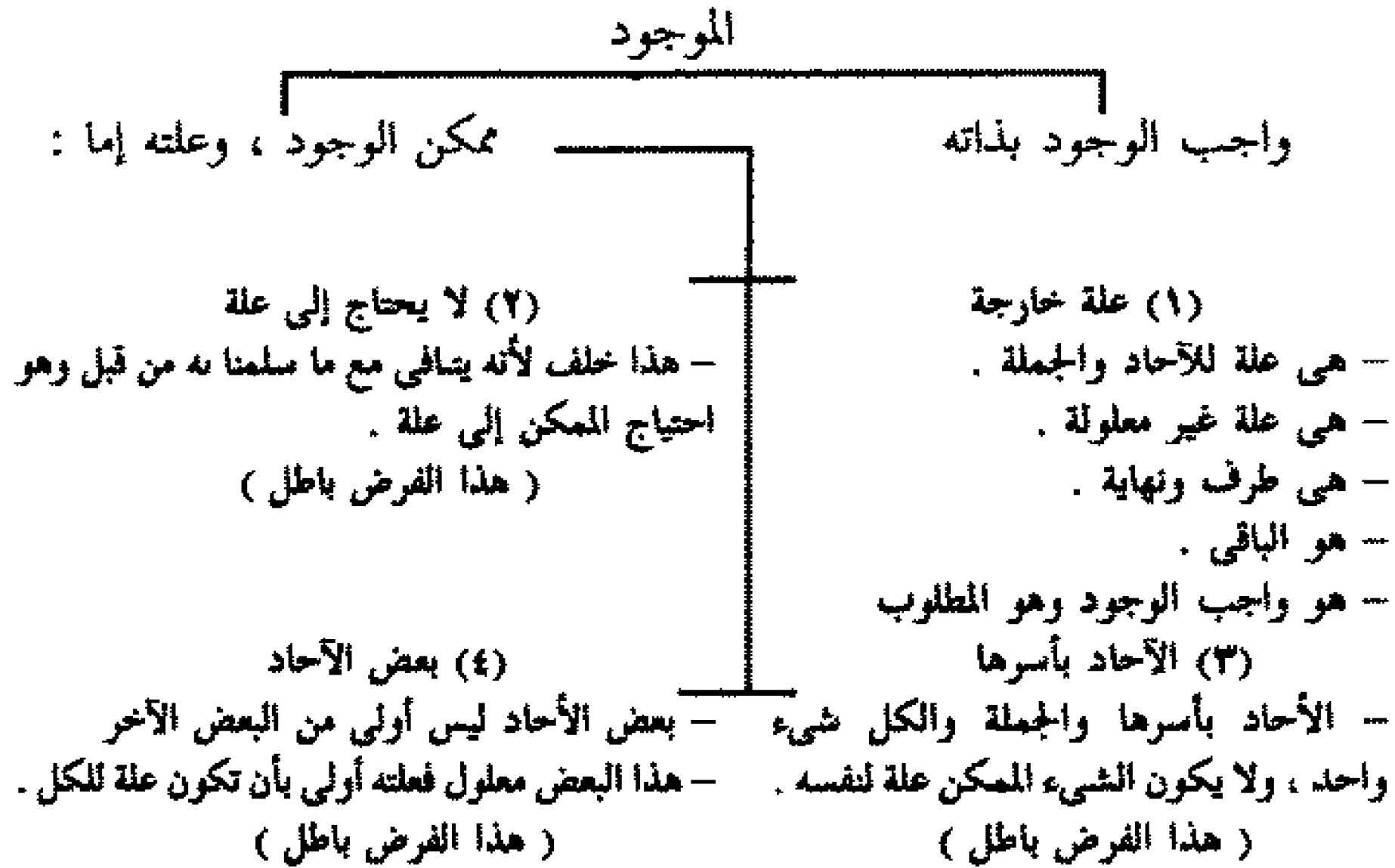
كل جملة مترتبة من علل ومعلولات على الولاء ، وفيها علة غير معلولة فهي طرف ، لأنها إن كانت وسطا فهي معلولة .

الفصل الخامس عشر : إشارة :

كل سلسلة مترتبة من علل ومعلولات - كانت متناهية أو غير متناهية - فقد ظهر أنها إذا لم تكن فيها إلا معلول احتاجت إلى علة خارجة عنها ، لكنها تتصل بها لا محالة طرفاً .

وظهر أنه إن كان فيها ما ليس بمعلول فهي طرف ونهاية ..
فكل سلسلة تنتهي إلى واجب الوجود بذاته^(١) .

رسم توضيحي لفكرة ابن سينا



(١) الإشارات والتسميات لأبي علي بن سينا ، مع شرح نصير الدين الطوسي تحقيق د. سليمان دنيا - القسم الثالث - الطبعة الثانية - دار المعارف .

دليل التوارد والتمانع

يقدم المتكلمون مجموعة أدلة على وحدانية الله تعالى ، أشهرها ما يسمى دليل التوارد والتمانع ، ويستخلصونه من مثل قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١) .

وقوله جل شأنه : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَغْضُهُمْ عَلَى بَغْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٢) .

ويصاغ الدليل هكذا :

لو فرض إلهان مستجمعان لشرائط الألوهية بحيث يكون كل منهما كامل القدرة ، كامل الإرادة ، كامل العلم ، له كل الجلال والجمال والكمال .

لترتب الفساد المفضى إلى عدم وجود العالم .

وكل ما أدى إلى الفساد يكون باطلاً .

فالنتيجة : لو فرض إلهان لكان ذلك باطلاً .

فهذا قياس اقتراني ، مقدمته الصغرى شرطية ، ومقدمته الكبرى حملية^(٣) .

دليل التلازم :

والدليل على التلازم بين المقدم والتالى فى القضية الصغرى الشرطية : أى

الدليل على ترتب الفساد على فرض وجود إلهين هو ما يلي :

لو فرض إلهان ، فإما أن يتفقا أو يختلفا .

وعلى كل يترتب الفساد المفضى إلى عدم وجود العالم .

وفرض الاتفاق يسمى دليل التوارد ، وفرض الاختلاف يسمى دليل التمانع .

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٩١ .

(٣) القضية الحملية هى التى حكم فيها بمرتب شىء لشيء أو نفيه عنه ، والشرطية هى التى حكم فيها بالتلازم أو العناد بين شيئين أو نفيه بينهما ، والقياس الاقتراني هو الذى لم تذكر فيه النتيجة ولا نقيضها بالفعل وإنما ذكرت بمادتها فقط .

دليل التوارد :

لو فرض وجود إلهين يتفقان على وجود (س) مثلاً ، فهناك عدة صور يتخيلها العقل ، وكلها باطلة وهي :

١ - إن اتفق الإلهان على وجود (س) استقلالاً في لحظة واحدة ، بأن يوجد كل واحد منهما على انفراد في وقت واحد ، فهذه صورة باطلة ، لأنها تؤدي إلى اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، إذ كل إله مؤثر له أثر ، وتعدد الآثار بتعدد المؤثرين ، لكن الأثر هنا واحد ، وهو ما اتفقا عليه ، وهو ما رمزنا إليه بالحرف (س) .

وقد يعبر عن ذلك بامتناع مقدور بين قادرين .

٢ - إن اتفق الإلهان على إيجاد (س) استقلالاً ، مرتباً ، بأن يوجد كل واحد من الإلهين مستقلاً عن الآخر ، في وقتين متتالين ، بحيث يبدأ الأول وينتهي ثم يبدأ الثاني وينتهي .

فهذه صورة باطلة لأن الأثر قد وجد بالأول ، فماذا يوجد الثاني ؟
فيلزم تحصيل الحاصل وهو باطل .

٣ - إن اتفق الإلهان على تقسيم العمل ، بحيث يوجد كل واحد منهما جزءاً من الشيء المتفق عليه ، فهذا عجز يتنافى مع كمال الألوهية ، فالذي يقبل المشاركة والتقسيم يكون محدود القدرة والإرادة ، ممنوعاً من العمل فيما عمل فيه الآخر ، فلا يكون كل منهما إلهاً .

٤ - إن اتفق الإلهان على التعاون والعمل المشترك ، يبدأ بيد ، من غير تحديد أو تقسيم ، فتلك أيضاً مصيبة ، لأن الذي يقبل المعونة هو العاجز الذي لا يستطيع تدبير أموره كلها بنفسه .

٥ - هناك صورة خامسة محتملة وهي أن يتنازل أحد الإلهين المفترضين ، ويترك العمل مطلقاً ، ويرضى بما يفعله الآخر .

وهذه صورة موهلة في البطلان ، لأنها تعطيل لصفات الإله وعزل له عن ممارسة اختصاصاته فلا يكون إلهاً .

فهذه كلها صور احتمالية للاتفاق على فرض وجود إلهين ، وكلها تؤدي إلى الفساد الذي هو عدم وجود الكائنات .

ويسمى هذا الدليل دليل التوارد أي التوافق .

دليل التمانع :

لو فرضنا وجود إلهين مستجمعين لشرائط الألوهية ، واختلفا حول إيجاد شيء معين ، فإما أن ينفذ مرادهما معاً ، أو لا ينفذ مرادهما معاً ، أو ينفذ مراد أحدهما فقط . وهذه كلها صور باطلة لما يأتي :

١ - إن نفذ مرادهما معاً أصبحنا أمام شيء موجود ، معدوم في لحظة واحدة ، وهذا جمع للتقيضين محال .

٢ - وإن لم ينفذ مرادهما معاً أصبحنا أمام إلهين عاجزين عن تنفيذ مرادهما ، وبالتالي فلا يعقل أن يكونا إلهين ، ثم إنه يؤدي إلى أن يكون الشيء غير موجود نظراً لعدم نفاذ مراد من أراد إيجاداه ، وغير معدوم نظراً لعدم نفاذ مراد من أراد إعدامه . وهذا رفع للتقيضين محال^(١) .

٣ - وإن نفذ مراد واحد فقط كان الآخر - وهو الذي لم ينفذ مراده - عاجزاً ، فلا يعقل أن يكون إلهاً .

ثم إن الفرض أتتهما متماثلان في كل شيء ، فما يثبت لأحدهما يثبت للآخر ، ومن ثم ينسحب العجز على الذي نفذ مراده ، لأنه مماثل للآخر ، فيكون كل منهما عاجزاً ، والعاجز ليس إلهاً .

فهذه الصور الثلاث احتمالات باطلة لما يسمى دليل التمانع والتخالف ..

ومن هنا فإن كل صور التوارد والتمانع باطلة فبطل ما أدى إليها ، وهو فرض وجود إلهين ، وثبت أنه إله واحد ، لا شريك له ، يختص وحده بالجلال كله والكمال بأجمعه .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾^(٢) .

(١) التقيضان لا يجمعان ولا يرتفعان معاً ، بل لابد أن يثبت أحدهما كالوجود والعدم ، أو الحركة والسكون ، فالشيء إما موجود أو معدوم ، وإما ساكن أو متحرك ولا يحلو عن أحدهما .
(٢) سورة الإسراء الآية ١١١ .

الوسوسة

عقيدة التوحيد مستقرة فى الفطرة السليمة ، يطمئن إليها العقل والقلب اطمئناناً يسعد به الإنسان ، فتصدر السلوكيات - على مقتضى تلك العقيدة - نوراً فى الحياة ورحمة بالأحياء ، ويمارس المرء حياته العملية مستشعراً قدرة الله وحكمته .

وإذا كان إبليس اللعين قد أخذ على نفسه العهد أمام الله عز وجل أن يقعد للناس الصراط المستقيم ، ويجلب عليهم كل وسائل الإغراء والخديعة ، فإن الله تعالى قد استثنى عباده المخلصين من عمل الشيطان وجنبهم سوءاته وخطواته ، ولن يجد الشيطان سبيلاً على المؤمنين الصادقين فى كبائر الإثم والفجور .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾^(١) .

لكن الشيطان يظل متربصاً بالإنسان ، ويحيط به من كل جانب ، وقد يجد لدى بعض المؤمنين منفذاً عن طريق الوسوسة ، وإثارة الشبهات ، وطرح تساؤلات باطلة ، كأن يلقى فى روع الإنسان هذا السؤال :

إذا كان الله قد خلق السماء والأرض وما بينهما فمن خلق الله ١٢

وطرح السؤال فى حد ذاته باطل عقلاً ، لأنه يفترض حدوث واجب الوجود ، وهذا قلب للحقائق مستحيل ، فإن الواجب لا يتقلب ممكناً ، وإن الممكن لا يتقلب واجباً أو مستحيلاً ، وإن المستحيل لا يتقلب واجباً أو ممكناً .. فحقائق الأشياء ثابتة .

وقد استشعر الصحابة رضى الله عنهم مثل هذه الوسوسة ، وتلك الخواطر العابرة ، وجاءت أحاديث تفيد هذا المعنى .

ففى صحيح مسلم هذه الروايات :

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب النبى ﷺ فسألوه :

(١) سورة الحجر الآية ٤٢ .

إننا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان .

« عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل النبي ﷺ عن الوسوسة قال : « تلك محض الإيمان » .

« عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الناس يتساءلون ، حتى يقال : هذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمن بالله » .

« عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ، حتى يقول له من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته » .

وفي التعليق على هذه الأحاديث نلتقط من شرح الإمام النووي ما يلي :

« قوله ﷺ « ذاك صريح الإيمان » ، « تلك محض الإيمان » معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان ، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به ، فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً ، وانتفت عنه الرية والشكوك .

وقيل معناه : إن الشيطان إنما يوسوس لمن آيس من إغوائه ، فينكد عليه بالوسوسة لمجزه عن إغوائه ، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء ، ولا يقتصر في حقه على الوسوسة ، بل يتلاعب به كيف أراد .

فعلى هذا فمعنى الحديث سبب الوسوسة محض الإيمان ، أو الوسوسة علامة محض الإيمان .

« قوله صلى الله عليه وسلم : « فليقل آمن بالله » ، « فليستعذ بالله ولينته » معناه الإعراض عن هذا الخاطر الباطل ، والالتجاء إلى الله تعالى في إذهابه .

قال الإمام المازري رحمه الله : ظاهر الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها .

والذى يقال فى هذا المعنى أن الخواطر على قسمين :

فأما الخواطر التى ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت فهى التى تدفع بالإعراض عنها ، وعلى هذا يحمل الحديث ، وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة ، وكأنه لما كان أمراً طارئاً بغير أصل دفع بغير نظر فى دليل إذ لا أصل له ينظر فيه .
وأما الخواطر المستقرة التى أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر فى إبطالها .. والله أعلم « ^(١) .

* * *

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

الفصل الثاني

الأسماء والصفات

- أهمية الأسماء الحسنى .
- بين التقييد والإطلاق .
- اسم الله الأعظم .
- بين الاختصاص والعموم .
- جماع المعانى .
- الصفات الإلهية بين العقل والنقل :
 - الصفات العقلية .
 - وأخر متشابهات :
 - ١ – التفويض .
 - ٢ – التشبيه .
 - ٣ – التأويل .
 - ٤ – الإثبات بضوابط .
 - تعقيب ورأى :
 - ١ – حكمة التشابه .
 - ٢ – نبذ التشبيه .
 - ٣ – حرية الاختيار .
 - ٤ – وجهة نظر .

أهمية الأسماء الحسنى

لا يعرف الله إلا الله ، وللعقل الإنسانى مجاله المحد فى آيات الأنفس والآفاق ، كى يرى عظمة الله وجلاله وكبريائه وسلطانه ، وحتى يسير العقل فى تأملاته سيراً حسناً ، فإن له فى الأسماء الحسنى لله تعالى معلم هداية وموقف حكمة ، ومساط تفكير ، ومجال تأمل ، وملجأ عاصماً من الزلل فى الدلالة على أكمل الصفات وأجلها وأعلاها لربنا جل شأنه .

وقد جاء التعبير بالأسماء الحسنى فى القرآن المجيد فى أربع آيات ، نقف معها متأملين خاشعين :

الآية الأولى :

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) .

والمعنى أن لله أسماء هى أحسن الأسماء لدلالاتها على التمجيد والتقديس ، والمؤمن الحق يدعو الله ويعبده بما سمي به نفسه ، ويلتزم التزاماً صادقاً وأميناً بما شرع الله تعالى لا يتعداه ، أما الذين ينحرفون فى أسماء الله تعالى ويحرفونها فيطلقونها على الأصنام كما أطلق العرب اللات من لفظ الله ، والعزى من لفظ العزيز ، أو يكذبون بها ويصفون الله تعالى بما لا يليق كما قال اليهود : يد الله مغلولة ، إن الله فقير ، فإن لهم موعداً لن يخلف سيلقون فيه جزاء كفرهم وإلحادهم .

الآية الثانية :

قال الله جل شأنه : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

جاء فى أسباب النزول عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تهجد رسول الله ﷺ ذات ليلة بمكة فجعل يقول فى سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال المشركون : كان محمد يدعو إلهاً واحداً فهو الآن يدعو إلهين اثنين ، الله والرحمن ، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذاب ، فأنزل الله هذه الآية (١) .

ومعنى قوله : ﴿ .. اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ سمووا الإله الحق باسم الله أو باسم الرحمن واذكروه بهذا أو ذاك ، فإن الله جل شأنه واحد أحد له الأسماء الحسنى المتعددة ، وتعدد الأسماء لا يدل على تعدد الذات وإنما يدل على أن كمالات الله لا تتساهى .

الآية الثالثة :

قال الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٢) .

وقد جاءت هذه الآية عقب آيات كريمات فى صدر سورة طه تتحدث عن الله جل جلاله فى واسع سلطانه ، وعظيم ملكه ، وكريم جوده على خلقه ، فقد أنزل القرآن حيراً وبركة الذى وسع ملكه السموات والأرض وأحاط علمه بكل شىء ، وله تدبير الكون والكائنات .

﴿ طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذِكْرَةً لِّمَن يَخْشَى . تَنزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَلَاتِ الْعُلَى . الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِي السَّمَلَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (٣) .

ثم جاءت الآية الكريمة عقب ذلك ببيان أن هذا الإله الخالق المدبر العليم الحكيم - واحد أحد فى ذاته ، له أسماء بالغة الحسن فى التعظيم والتقديس .

الآية الرابعة :

قال الله عز وجل : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٣ ط مكتبة المتنبى بالقاهرة .

(٢) سورة طه الآية ٨٠ . (٣) سورة طه الآيات : ١ - ٧ .

الْمُؤْمِنُ الْمُتَّقِينَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ
الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ .

فقد بدأ هذا النص الكريم بتعداد بعض الأسماء التي تطلق على الله تعالى ، ثم
جاء قوله : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ كتعميم بعد تخصيص .

وإذا انتقلنا إلى السعة النبوية المطهرة وجدنا حديثاً صحيحاً أخرجه الإمام مسلم
بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لله تسعة وتسعون اسماً
من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر » وفي رواية :

« إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » .

والمراد من حفظها وإحصائها الإيمان بها ، وتعقل معناها ، وفهم دلالتها ،
والتخلق بها على قدر الطاقة البشرية ، فإذا كان الله عالماً رحيماً قادراً ... إلخ فشأن
المسلم أن يحرص على العلم النافع وأن يرحم عباد الله ، وأن يستعمل قدرته في
خدمة الضعفاء وذوى الحاجات .. وهكذا .

وفي معنى : « إن الله وتر يحب الوتر » قال الإمام النووي :

الوتر الفرد ، ومعناه في حق الله تعالى الواحد الذي لا شريك له ، ولا نظير ،
ومعنى « يحب الوتر » تفضيل الوتر في الأعمال وكثير من الطاعات ، فجعل الصلاة
خمساً ، والطهارة ثلاثاً ، والطواف سبعاً ، والسعي سبعاً ، ورمى الحمار سبعاً ، وأيام
التشريق ثلاثاً ، والاستنجاء ثلاثاً ، وكذا الأكفان ، وفي الزكاة خمسة أوسق ،
 وخمس أواق من الورق ، ونصاب الإبل وغير ذلك ، وجعل كثيراً من عظيم
مخلوقاته وترّاً ، منها السموات والأرضون والبحار ، وأيام الأسبوع ، وغير ذلك .
وقيل : إن معناه منصرف إلى صفة من يعبد الله بالوحدانية ، والتفرد مخلصاً له
والله أعلم ^(١) .

* * *

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٧ ، ص ٦ .

بين التقييد والإطلاق

كثير من المسلمين يحفظون الأسماء الحسنی على النحو التالي :

١ - الله ^(١)	٢ - الرحمن	٣ - الرحيم	٤ - الملك
٥ - القدوس ^(٢)	٦ - السلام ^(٣)	٧ - المؤمن ^(٤)	٨ - المهيمن
٩ - العزيز	١٠ - الجبار ^(٥)	١١ - المتكبر	١٢ - الخالق
١٣ - الباري	١٤ - المصور	١٥ - الغفار	١٦ - القهار
١٧ - الوهاب	١٨ - الرزاق	١٩ - الفتاح ^(٦)	٢٠ - العليم
٢١ - القابض	٢٢ - الباسط	٢٣ - الخافض	٢٤ - الرافع
٢٥ - المعز	٢٦ - المذل	٢٧ - السميع	٢٨ - البصير
٢٩ - الحكيم	٣٠ - العدل	٣١ - اللطيف ^(٧)	٣٢ - الخبير ^(٨)
٣٣ - الحليم	٣٤ - العظيم	٣٥ - الغفور	٣٦ - الشكور
٣٧ - العلي	٣٨ - الكبير	٣٩ - الحفيظ	٤٠ - المغيث
٤١ - الحسيب ^(٩)	٤٢ - الجليل	٤٣ - الكريم	٤٤ - الرقيب

(١) لفظ الخلافة اسم خاص بذاته تعالى ، لا يطلق على غيره ، قيل : إنه علم جامد ، وقيل : مشتق من إليه إذا عند وأصله الإله ، ثم حذفت الهمزة تحفيفاً ، وأدغمت اللام الأولى في الثانية ، وقيل : من وله إذا تحير وأصله ولاه ، فأبدلت الواو همزة لانكسارها ، فقيل : إله كما في وشاح وإشاح ، ثم أدخلت الألف واللام وحذفت الهمزة ، فقيل : الله .

(٢) القدوس : المنزه المعظم .

(٣) السلام : السالم عن القائص أو مانح السلام لعباده .

(٤) المؤمن : المصدق لنفسه ورسوله بالمعجزات والآيات ، أو الذي يمسح الأمان لعباده المؤمنين يوم الفرع الأكبر .

(٥) الجبار : من الحر بمعنى الإصلاح ومنه جبر العظم ، وقيل بمعنى الإكراه : أي يحجر خلقه على ما يريد ، وقيل : مبيع لا يبال ، عرير لا يبالغ ، عظيم لا مثل له .

(٦) الفتاح : ميسر العسير ، أو خالق الفتح : أي النصر ، أو الحاكم .

(٧) اللطيف : خالق اللطف والتيسير ، وقيل : العالم بالخفيات .

(٨) الخبير : العالم بالدقائق ، المحصى لمناقب الذر ، المطلع على السرائر واليوطن .

(٩) الحسيب : الكافي بخلق ما يكفي العباد ، أو المحاسب لعباده على ما قدمت أيديهم .

٤٥ - المجيب	٤٦ - الواسع ^(١)	٤٧ - الحكيم	٤٨ - الودود
٤٩ - المجيد	٥٠ - الباعث	٥١ - الشهيد ^(٢)	٥٢ - الحق
٥٣ - الوكيل ^(٣)	٥٤ - القوى	٥٥ - المتين ^(٤)	٥٦ - الولي ^(٥)
٥٧ - الحميد	٥٨ - المحصى	٥٩ - المبدي	٦٠ - المعيد
٦١ - المحيي	٦٢ - المميت	٦٣ - الحي	٦٤ - القيوم
٦٥ - الواجد ^(٦)	٦٦ - الماجد ^(٧)	٦٧ - الواحد	٦٨ - الصمد ^(٨)
٦٩ - القادر	٧٠ - المقتدر	٧١ - المقدم	٧٢ - المؤخر
٧٣ - الأول	٧٤ - الآخر	٧٥ - الظاهر ^(٩)	٧٦ - الباطن ^(١٠)
٧٧ - الوالي ^(١١)	٧٨ - المتعالي	٧٩ - البر	٨٠ - التواب
٨١ - المنتقم	٨٢ - العفو	٨٣ - الرؤوف	٨٤ - مالك الملك
٨٥ - نور الخلال والإكرام	٨٦ - المقسط ^(١٢)	٨٧ - الجامع ^(١٣)	٨٨ - العني
٨٩ - المغنى	٩٠ - المانع	٩١ - الضار	٩٢ - النافع
٩٣ - النور ^(١٤)	٩٤ - الهادي	٩٥ - البديع ^(١٥)	٩٦ - الباقي
٩٧ - الوارث ^(١٦)	٩٨ - الرشيد	٩٩ - الصبور ^(١٧)	

- (١) الواسع : عظيم الجود والكرم ، كبير السلطان والملك .
(٢) الشهيد : العالم بكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل .
(٣) الوكيل : المتكفل بأمر خلقه .
(٤) المتين : الكامل القدرة على كل شيء .
(٥) الولي . المتولي أمور خلقه .
(٦) الواحد . العسى وقيل . العالم .
(٧) الماجد : العلى الشأن ، العظيم المكانة .
(٨) الصمد : المقصود من الخواص ، المستغنى عن خلقه .
(٩) الظاهر . المعلوم بالأدلة الواضحة الجلية ، وقيل . الغالب الذى لا يقهر .
(١٠) الباطن . المحتجب عن الحواس ، ولا تدركه الأبصار . وقيل . العالم بالخفيات .
(١١) الوالى . الحاكم .
(١٢) المقسط . العادل .
(١٣) الجامع . الذى يجمع الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .
(١٤) النور : منور السموات والأرض والأكوان كلها .
(١٥) البديع : الخالق على غير مثال سبق ، نظام وإحكام وإتقان .
(١٦) الوارث . الباقي بعد فناء خلقه .
(١٧) الصبور : الذى لا يعجل العقوبة ويهمل ولا يهمل .

وهذا الترتيب والتقيد للأسماء الحسنی جاء فی رواية الترمذی وحکم علیها بأنها حديث غریب .

وفی رواية أخرى أخرجها الطبرانی جاءت المخالفة فی بعض الأسماء علی النحو التالي :

القائم ، الدائم	بدلاً من	القابض الباسط .
والشديد	بدلاً من	الرشيد
والأعلى ، المحيط ، مالك يوم الدين ،	بدلاً من	الودود ، المجيد ، الحكيم ،

ورواها ابن خزيمة فقال :

الحاكم	بدل	الحكم
والقريب	بدل	الرقب
والمولى	بدل	الوالى
والأحد	بدل	المغنى

وقارن العلماء بين رواية لزهير ، ورواية لصفوان ف وقعت المخالفة فى ثلاثة وعشرين اسماً هى :

الفتاح - القهار - الحكم - العدل - الحسيب - الجليل - المحصى - المقتدر -
المقدم - المؤخر - البر - المنتقم - المغنى - النافع - الصبور - البديع - الغفار -
الحفيظ - الكبير - الواسع - الواحد - مالك الملك - ذو الجلال والإكرام .

فجاء فى رواية زهير بدلاً منها :

الرب - الفرد - الكافى - القاهر - المبين - الصادق - الجميل - البادى -
القديم - البار - الوفى - البرهان - الشديد - الواقى - القدير - الحافظ - العادل
المعطى - العالم - الأحد - الأبد - الوتر - ذو القوة .

ولهذا ترجع بين العلماء أن سرد الأسماء ليس مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ ،
ولم يثبت أن النبى الكريم عين الأسماء المذكورة ، وإنما هى من جمع الرواة وإلحاقهم
بإياها بالحديث الصحيح القائل : « إن لله تسعة وتسعين اسماً »^(١) .

(١) راجع تفصيل الروايات فى فتح البارى ، ج ١١ ، ص ٢١٤ .

وقال الإمام ابن حزم : وجاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين اسماً مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً ، وإنما تؤخذ من نص القرآن ، ومما صح عن النبي ﷺ (١) .

وإذا كانت هذه النصوص الواردة بشأن إحصاء التسعة والتسعين اسماً على تلك الشاكلة من الاضطراب والغرابة فهل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » مراد به التحديد والتقيد للأسماء الحسنی ؟

وقد أجاب الإمام النووي قائلًا :

اتفق العلماء أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى ، فليس معناه أنه ليس له غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء (٢) .

وقد خالف الإمام ابن حزم هذا الاتجاه وذهب إلى أن أسماءه تعالى لا تزيد على التسعة والتسعين ، واستدل بالحديث الشريف نفسه وبقوله تعالى : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ... ﴾ (٣) .

وهذا الاستدلال من ابن حزم يمكن الرد عليه ، فالحديث ليس نصاً في التحديد ، ويفهم على أن قوله : « من أحصاها » خبر ، تسعة وتسعين ، والجار والمجرور في قوله : « لله » ليس خبراً ، كقولنا : لفلان مائة جنيه أعدها للصدقة ، فلا ينفي أن له غيرها . فالمراد الإخبار عما أعده للصدقة وليس الإخبار عما يملكه .

ويكون النص على الأسماء المذكورة لمنزلتها الخاصة لكونها جامعة لصفات الجلال والكمال .

أما الآية الكريمة من سورة النجم فليست مما يستدل به على نفى الزيادة ، لأنها

(١) المحلى ، ج ٨ ، ص ٣١ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٢ ، ص ٥ .

(٣) سورة النجم الآية : ٢٣ .

واردة فى شأن الأصنام وإطلاق المشركين عليها أسماء لا تعبر عن حقيقة وضعها ،
فهى لا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها أو لغيرها شيئاً ، ومع ذلك يسمونها اللات
من لفظ الله ، والعزى من لفظ العزيز ، ويعبدونها من دون الله ويقدمون لها القرابين .

ومما يستدل به على أن أسماء الله تعالى لا حصر لها - حديث ابن مسعود
رضى الله عنه الذى أخرجه الإمام أحمد وصححه ابن حبان ، قال رسول الله ﷺ :
« ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك أسألك
بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من
خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبى ، ونور
صدرى ، وذهب حزنى ، وجلاء همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله
مكانه فرحاً ، فقليل يا رسول الله : ألا نتعلمها ؟ فقال : بلى ينبغى لمن سمعها أن
يتعلمها » .

ويضاف إلى ذلك ما تقدم من اختلاف الأسماء فى الروايات ، بحيث لو
جمعنا ما اتفق منها وما اختلف لوصلنا إلى عدد أكثر من تسعة وتسعين ، وعلى هذا
فيكون الوارد شرعاً أكثر من هذا العدد .

لكن هل يجوز إطلاق أسماء على الله تعالى لم يرد بها الشرع ؟

حكى الشريف الجرجاني أقوالاً هى :

١ - ذهب المعتزلة والكرامية إلى أنه إذا دل العقل على اتصافه تعالى بصفة
وجودية أو سلبية جاز أن يطلق عليه اسم يدل على اتصافه بها سواء ورد بذلك
الإطلاق إذن شرعى أو لم يرد ، وكذا الحال فى الأفعال .

٢ - قال القاضى أبو بكر : كل لفظ دل على معنى ثابت لله تعالى جاز إطلاقه
عليه بلا توقيف إذا لم يكن إطلاقه موهماً لما لا يليق بكبريائه ، فمن ثمة لم يجر أن
يطلق عليه لفظ العارف ، لأن المعرفة قد يراد بها : علم يسبقه غفلة ، ولا لفظ
الفقيه ، لأن الفقه : فهم غرض المتكلم من كلامه ، وذلك مشعر بسابقة الجهل ، ولا
لفظ العاقل ، لأن العقل : علم مانع عن الإقدام على ما لا ينبغى ، مأخوذ من العقال ،
وإنما يتصور هذا المعنى فيمن يدعوه الداعى إلى ما لا ينبغى .

ولا لفظ الفطن ، لأن الفطانة : سرعة إدراك ما يراد تعريضه على السامع فتكون مسبقة بالجهل .

ولا لفظ الطيب ، لأن الطب يراد به علم مأخوذ من التجارب .. إلى غير ذلك من الأسماء التي فيها نوع إيهام بما لا يصح في حقه تعالى .

وقد يقال : لا بد مع نفي ذلك الإيهام من الإشعار بالتعظيم حتى يصح الإطلاق بلا توقيف .

٣ - ذهب الشيخ (الأشعري) ومتابعوه إلى أنه لا بد من التوقيف وهو المختار ، وذلك للاحتياط احترازاً عما يوهم باطلاً لعظم الخطر في ذلك ، فلا يجوز الاكتفاء في عدم إيهام الباطل بمبلغ إدراكنا بل لا بد من الاستناد إلى إذن الشرع^(١) .

* * *

(١) شرح المواقف ، الموقف الخامس - تحقيق د. أحمد المهدي ص ٣٥٢ .

اسم الله الأعظم

شاع بين الناس أن الله تعالى اسماً هو أعظم الأسماء ، له مدخل خاص في إجابة الدعاء وطلب الحاجات من الله عز وجل ، واختلف العلماء اختلافاً كبيراً في هذا الاسم ، وقد انقسموا فريقين :

(أ) فريقاً يرى أنه اسم خاص أو لفظ معين ، وقد ساق الإمام ابن حجر في تعيين هذا الاسم أربعة عشر رأياً منها :

- ١ - لفظ الجلالة (الله) .
 - ٢ - الرحمن الرحيم الحي القيوم .
 - ٣ - ذو الجلال والإكرام .
 - ٤ - كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) .
 - ٥ - الحنان المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام الحي القيوم .
- وقدم الإمام ابن حجر استدالات لهذا الفريق لا تخلو من مطعن في السند أو الاستدلال ، وعلى سبيل المثال ما أخرجه ابن ماجه عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ أن يعلمها الاسم الأعظم فلم يفعل ، فصلت ودعت : اللهم إني أدعوك الله ، وأدعوك الرحمن ، وأدعوك الرحيم ، وأدعوك بأسمائك الحسنی كلها ما علمت منها وما لم أعلم .. وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : « إنه لفي الأسماء التي دعوت بها » .

قال ابن حجر : وسنده ضعيف وفي الاستدلال به نظر لا يخفى .

وما أخرجه أبو يعلى من طريق السرى بن يحيى عن رجل من طي وأثنى عليه قال : كنت أسأل الله أن يريني الاسم الأعظم فأريته مكتوباً في الكواكب في السماء ، يعني « بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام » ^(١) .

والرؤى والأحلام لعامة المسلمين ليست مما يستدل به في الدين .

(١) فتح الباری ، ج ١١ ، ص ٢٢٤ .

وساق الإمام الرازى حججاً لهذه الآراء لا تنهض دليلاً على الدعوى مثل قولهم فى الاستشهاد على لفظ الجلالة (الله) :

أن هذا الاسم ما أطلق على غير الله تعالى ، فإن العرب كانوا يسمون الأوثان آلهة إلا هذا الاسم ، فإنهم ما كانوا يطلقونه على غير الله سبحانه وتعالى ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ ^(٢) ، معناه هل تعلم من اسمه الله سوى الله ، ولما كان هذا الاسم فى الاختصاص بالله تعالى على هذا الوجه وجب أن يكون أشرف أسماء الله سبحانه وتعالى ^(٣) .

فإن المسألة لا تخضع لترجيحات البشر ، وإنما المرجع فيها إلى تعيين الشرع ، وحيث لم يرد النص الصريح فىكون التعيين تحكما .

(ب) الفريق الآخر : يرى أن المراد باسم الله الأعظم حالة نفسية يستشعر المرء معها جلال الله وكماله ، فتجعله يدعو الله ضارعا موقناً بالإجابة شأن دعوة المضطر ، فيحقق الله رجاءه ويعجيب دعاءه .

ونقل ابن حجر أن قوماً أنكروا الاسم الأعظم كأبى جعفر الطبرى وأبى الحسن الأشعري وجماعة بعدهما كأبى حاتم بن حبان ، والقاضى أبى بكر الباقلانى وقالوا :

لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ، ونسب ذلك بعضهم لما لك لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل .

وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم ، وأن أسماء الله كلها عظيمة ، وعبرة أبى جعفر الطبرى :

اختلفت الآثار فى تعيين الاسم الأعظم ، والذي عندى أن الأقوال كلها

(١) سورة الزمر الآية . ٣٨ .

(٢) سورة مريم الآية : ٦٥ .

(٣) شرح أسماء الله الحسنى للرازى - تعليق طه عبدالرؤف سعد - ص ٩١ - طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه ، فكأنه يقول : كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم .

وقال ابن حبان : الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما أطلق ذلك في القرآن والمراد به مزيد ثواب القارئ^(١) .

وساق الإمام الرازي ثلاث حجج لهذا الفريق هي :

١ - أن الاسم كلمة مركبة من حروف مخصوصة اصطلاحوا على جعلها معرفة للمسمى ، فعلى هذا ، الاسم لا يكون له في ذاته شرف ومنقبة ، إنما شرفه ومقبته بشرف المسمى ، وأشرف الموجودات ، وأكملها هو الله سبحانه وتعالى ، وكل اسم ذكر العبد ربه به على ما يكون عارفاً بعظمة الرب فذلك الاسم هو الاسم الأعظم .

٢ - أنه تعالى فرد محض ، أحد محض ، منزّه عن التركيب والتأليف ، فيستحيل أن يقال بعض أسمائه يدل على الجزء الأشرف من ذاته ، والآخر يدل على الجزء الذي ليس بالأشرف ، ولما كان هذا محالاً كان جميع أسمائه دالة على ذاته الموصوفة بالوحدانية الحقيقية والفردانية الحقيقية ، وإذا كان كذلك امتنع كون بعض أسمائه أعظم من بعض .

٣ - الآثار المروية في هذا الباب ، منها ما روى أن واحداً سأل جعفر الصادق رضى الله عنه عن الاسم الأعظم فقال له : قم واشرع في هذا الخوض واغتسل حتى أعلمك الاسم الأعظم ، فلما شرع في الماء واغتسل وكان الزمان زمان الشتاء ، والماء في غاية البرد ، فلما أراد أن يخرج من حانب الماء أمر جعفر أصحابه حتى منعه من الخروج عن الماء ، وكلما أراد أن يخرج ألقوه في ذلك الماء البارد ، فتضرع الرجل إليهم كثيراً فلم يقبلوا قوله ، فغلب على ظن ذلك الرجل أنهم يرون قتله وإهلاكه ، فتضرع إلى الله تعالى في أن يخلصه منهم ، فلما سمعوا منه ذلك الدعاء أخرجوه من الماء وألبسوه الثياب وتركوه حتى عادت القوة إليه .

(١) فتح الباري ، ح ١ ، ص ٢٢٤ .

ثم قال لجعفر الصادق : الآن علمني اسم الله الأعظم ، فقال جعفر : يا هذا إنك قد تعلمت الاسم الأعظم ودعوت الله به وأجابك ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال جعفر : إن كل اسم من أسمائه تعالى يكون في غاية العظمة إلا أن الإنسان إذا ذكر اسم الله عند تعلق القلب بغير الله لم يتففع به ، وإذا ذكره عند انقطاع طمعه من غير الله كان ذلك الاسم الأعظم ، وأنت لما غلب على ظنك أنا بقتلك لم يبق تعويل إلا على فضل الله ، ففي تلك الحالة : أي اسم ذكرته فإن ذلك الاسم هو الاسم الأعظم ^(١) .

ومما يؤكد هذا الاتجاه أن النصوص الواردة شرعاً في اسم الله الأعظم أطلقت على أسماء متعددة ولم تلتزم اسماً معيناً ، وهي على نوعين :

١ - نصوص لم يقلها رسول الله ﷺ وإنما أقرها .

٢ - نصوص قالها الرسول ﷺ وعلمها أصحابه .

من النوع الأول حديث بريدة أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

فقال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

وحديث أنس : دخل النبي ﷺ المسجد ورجل يصلي وهو يدعو ويقول في دعائه : اللهم لا إله إلا الله ، أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام .

فقال : « أتدرون بما دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » .

ففي هذين الموقفين نطق الرجلان بما ألهمهما الله وبما استشعرا معناه واستقر في القلب ، وترجم عنه اللسان ، فأقرهما الرسول ﷺ ووصف حالهما ودعائها بأنه دعاء مستجاب باسم الله الأعظم .

(١) شرح أسماء الله الحسنى للرازي ، ص ٨٨ .

ومن النوع الثانى حديث أسماء بنت يزيد : قال النبى ﷺ : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ وفاتحة آل عمران : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ .

وحديث سعد بن مالك قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ؟

الدعوة التى دعا بها يونس حيث نادى فى الظلمات الثلاث : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

فقال رجل : يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال : ألا تسمع قول الله عز وجل ﴿ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ففى هذين الحديثين لم يكن هناك التزام بلفظ معين مما يؤكد الاتجاه القائل بأن الاسم الأعظم ليس له لفظ مخصوص ولكنه موقف دعاء ينقطع فيه القلب عن الخلق ، ويعظم اتصاله بالملا الأعلى ، ويقوى الرجاء فى الله ، وتتأكد الخشية منه سبحانه .

* * *

بين الاختصاص والعموم

الأسماء الحسنی لها دلالات خاصة عند إطلاقها على الله تعالى ، لا يشركه فيها أحد غيره ، لأن كل ما هو متصل بالله تعالى وصفاته لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، فهو سبحانه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وإذا أطلقت بعض الأسماء على غير الله فبمعان أخرى ودلالات تناسب المخلوق . وقد ذكر العلماء أن هناك أسماء يقتصر إطلاقها على الله تعالى لا يجوز إطلاقها على غيره مثل :

الله - القدوس - مالك الملك - المحي المميت - ذو الجلال والإكرام ..
وهناك أسماء يوصف بها الله تعالى وصفاً مطلقاً ، ولا يوصف بها غيره إلا مقيداً مثل :

الرب - القابض - الباسط - الخافض - الرفع .
فإذا أطلقت على البشر قيدت مثل : رب الأسرة ، الرحم القابض ، خافض درجات التلاميذ ، رافع مرتبات العاملين .

وهناك أسماء تطلق بالفاظها على الله تعالى وعلى البشر مثل :
العالم - العليم - الحكيم - القادر - الحليم - الملك - السيد .

وقد استعملها القرآن في كلا الإطلاقين :
قال تعالى في حق إبراهيم : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾^(١) .
وقال جل شأنه في حق إسحق : ﴿ .. وَتَشْرُوهُ بِغَلَامٍ غَلِيمٍ ﴾^(٢) .
وقال سبحانه في حق يحيى : ﴿ .. وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٣) .

(١) سورة هود الآية . ٧٥ . (٢) سورة الداريات الآية . ٢٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية . ٣٩ .

وقال عز وجل في حق فرعون مصر ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. ﴾ ^(١) .

فاللفظ المشترك يطلق بحقيقتين مختلفتين تماماً ، فعلم البشر لا يرقى إلى علم الله ، وحلم البشر لا يتساوى مع حلم الله ، وملك البشر يتضاءل أمام ملك الله ، وسيادة البشر تصغر أمام سيادة الله .. وهكذا ..

وهناك أسماء تطلق على الله مرتبطة بإضافة مثل :

قابل التوب - شديد العقاب ، رفيع الدرجات ، ذوالعرش ، ذو الجلال ، ذو المعارج ..

فلا يقال : قابل ، أو شديد ، أو رفيع ، أو ذو .

وهناك أسماء تطلق على الله تعالى مقترنة بأضدادها منعاً للإيهام مثل :

القابض الباسط ، المحيي المميت ، المعز المذل ..

فإطلاق لفظ المميت أو القابض أو المذل منفرداً عن ضده قد يوهم نقصاً في حق الله تعالى وكأن أفعال الله مختصة بهذه المعاني فقط ، ولذا كان من الأدب اقتران هذه الألفاظ ..

وقد تشتق أسماء الله تعالى من أفعاله كالقابض الباسط من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ ^(٢) ، وقد يمتنع هذا الاشتقاق مثل قوله سبحانه ﴿ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرُؤًا لِّئَلَّا تُفْلِحُوا ﴾ ^(٣) فلا يقال : الماكر ، ومثل قوله جل شأنه ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ ^(٤) ، فلا يقال : الساقى ، ومثل قوله عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ^(٥) ، فلا يقال : المصلى .

* * *

(١) سورة يوسف الآية : ٥٤ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٤٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية . ٥٤ .

(٤) سورة الإنسان الآية ٢١٠ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٥٦ .

جماع المعانى

الأسماء الحسنى يجمعها عدة معانى تلتقى تحت كل معنى منها مجموعة أسماء ، ونقل الإمام البيهقى أن الحاكم أبا عبد الله الحسين بن الحسن الحلیمی ذكر خمس عقائد تنطوى تحتها الأسماء الحسنى ، هى :

١ - إثبات وجود البارى جل حلاله لتقع به مفارقة التعطيل مثل الأول والآخر والباقي والحق المبين .

٢ - إثبات وحدانيته لتقع به البراءة من الشرك مثل الواحد والكافى والعلى ..

٣ - إثبات أنه تعالى ليس بجوهر ولا عرض لتقع به البراءة من التشبيه مثل الأحد والعظيم والعزیز والمتعالى والكبير والعنى والسبح والقدوس ..

٤ - إثبات أن وجود كل ماسواه كان من إبداعه واختراعه إياه لتقع به البراءة من قول من يقول بالعلة والمعلول مثل : الله والحقى والعالم والقادر والحكيم والسيد والجليل والبدیع والبارىء والخالق والمصور والمقتدر ..

٥ - إثبات أنه تعالى مدبر ما أبدع ومصرفه على ما يشاء لتقع به البراءة من قول القائلين بالطبائع أو بتدبير الكواكب أو تدبير الملائكة مثل المدبر والقيوم والرحمن الرحيم والحليم والكريم والعفو والغفار والغفار والغفور والرعوف والصمد والحميد والفتاح والمهيمن والمقيت^(١) .

ثم قال : إن أسماء الله تعالى جده التى ورد بها الكتاب والسنة وأجمع العلماء على تسميته بها منقسمة بين العقائد الخمس ، فيلحق بكل واحدة منهن بعضاً وقد يكون منها ما يلتحق بمعنيين ويدخل فى باين أو أكثر^(٢) .

وإذا كان جمهور المتكلمين قد فصلوا الصفات الإلهية إلى ثلاث عشرة صفة مجمع عليها وهى :

(١) المقيت : خالق الأقوات وقيل بمعنى الشهيد العالم بالعب والخاص

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى ص ٢١ ط دار الكتب العلمية .

- ١ - الوجود ، وعدوه صفة نفسية . ٢ - القدم .
- ٣ - البقاء . ٤ - المخالفة للحوادث .
- ٥ - القيام بالنفس ٦ - الوجدانية .

وهذه الصفات الخمس عدوها صفات سلبية .

- ٧ - القدرة . ٨ - الإرادة . ٩ - العلم .
- ١٠ - الحياة . ١١ - السمع . ١٢ - البصر .
- ١٣ - الكلام .

وهذه الصفات السبع عدوها صفات معان .

ويعرفون الصفة النفسية بأنها نفس الذات دون معنى زائد عليها والوصف بها غير معلل بعلة .

والصفة السلبية التي مفهومها سلب ضدها عن موصوفها أو ما كان السلب داخلاً في مفهومها .

وصفة المعانى التي تدل على معنى زائد يقوم بالذات .

إذا كان علماء التوحيد هكذا يدرسون الصفات فلا منافاة بين تركيزهم على هذه الصفات وبين الأسماء الحسنى فى تعدادها وكثرتها ، فإن صفة العلم قد يلتقى تحتها أسماء العالم والعليم والخبير والمحصى والشهيد والحكم والحسيب والحكيم .. إلخ . وإن صفة القدرة قد يلتقى تحتها أسماء الخالق والرازق والمحيى والمميت والباعث والقادر والمقتدر والمغنى والنافع الضار والقابض الباسط .. إلخ وهكذا .

وكمالات الله لا تنهاى وبالتالي فالأسماء الحسنى وصفات الله عز وجل لا يتنافيان ولا يتعارضان ، فالاسم والصفة هنا بمعنى واحد ، اللهم إلا لفظ الجلالة « الله » فهو اسم علم غير مشتق وليس بصفة على الأصح فهو يدل على الذات دلالة مطلقة ، وبه تعرف جميع الأسماء والصفات فيقال مثلاً : الرحمن من أسماء الله ، ولا يقال : الله من أسماء الرحمن .

وقد ثار بحث حول الاسم والمسمى ، هل الاسم عين المسمى أو غيره ؟ .

قال شارح الطحاوية :

وطالما غلط كثير من الناس في ذلك وجهلوا الصواب فيه ، فالاسم يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى .

فإذا قلت : قال الله كذا أو سمع الله لمن حمده ، ونحو ذلك ، فهذا المراد به المسمى نفسه .

وإذا قلت : الله اسم عربي ، والرحمن اسم عربي ، والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك ، فالاسم هنا هو المراد لا المسمى ولا يقال غيره . (غير المسمى) لما في لفظ الغير من الإجمال ، فإن أريد بالمعاصرة أن اللفظ غير المعنى فحق ، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى ^(١) .

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣١ ط المكتب الإسلامي .

الصفات الإلهية بين العقل والنقل

الصفات العقلية

وجود الله تعالى وصفات جلاله وكماله أمور يوجبها العقل ، ويوقن بها من خلال نظرة تأملية يسيرة :

- * فوجود الخلق دليل وجود الخالق ..
- * واستقامة الخلق دليل وحدة الخالق ..
- * وتنوع الخلق دليل لإرادة الخالق ..
- * وعظم الخلق دليل قدرة الخالق ..
- * وحكمة الخلق دليل علم الخالق ..
- * وكل هذه الأشياء دليل حياة الخالق ..
- * وحدوث الخلق دليل قدم الخالق ..
- * ومن كان خالقاً قديماً فهو باق أبدي مابين خلقه ، مالك لهم ، غنى عنهم ، وهو العلي الكبير ..
- وهكذا تتوالى صفات الجلال والكمال ..

وجاءت نصوص القرآن المجيد تؤكد هذه الصفات ، وتوقظ الفطر السليمة للإيمان بها ..

ففى قضية الوجود الإلهي نقرأ على سبيل المثال .. قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿^(١) .

وفى قضية الوجدانية نقرأ قوله سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾^(٢) .

وفى قضية القدرة الإلهية نقرأ قوله جل شأنه :

(١) سورة الطور الآية ٣٥ - ٣٦ . (٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢٠ .

﴿ إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

وفي قضية الإرادة الإلهية نقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَزُودُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢) .

وفي قضية العلم الإلهي نقرأ قوله عز اسمه :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(٣) .

وفي قضية الحياة الإلهية نقرأ قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾^(٤) .

وفي قضية القدم والبقاء نقرأ قوله سبحانه :

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٥) .

﴿ .. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٦) .

وهكذا توافق النقل والعقل على هذه الصفات الإلهية ، والتقيا على وجوبها لله سبحانه وتعالى .

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٤ . (٢) سورة آل عمران الآيات : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) سورة الأنعام الآيات : ٥٩ ، ٦٠ . (٤) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

(٥) سورة الحديد الآية : ٣٠ . (٦) سورة القصص الآية : ٨٨ .

وهذا القدر مما لا يختلف عليه عاقلان ، ولا يمارى فيه فريقان ، ولا يختصم حوله علماء المسلمين ، لكن شطحات الفكر وخیالات العقل دفعت بهم إلى جدل طويل حول مباحث ، لا يدركون كنهها ، ولا يعرفون حقيقتها ، ولا يستطيعون لها حلاً ، فقد طرحوا تساؤلات حول الصفات مثل :

هل الصفات الإلهية عين الذات ، أو غير الذات ، أو لا عين ولا غير ؟
واتهم الفرقاء بعضهم بعضاً ١١

لقد اختار المعتزلة والفلاسفة الأول ، واختار جمهور المتكلمين الثانى ، واختار الأشعرى الثالث .

وشنع المعتزلة على مخالفينهم بأنهم يعددون القدماء ويلزمهم القول بآلهة شتى ، وإذا كان النصارى قد كفروا بثلاثة أقانيم فكيف بمن يقول بسبع صفات قديمة مغايرة للذات الإلهية ؟

ورد مشبو الصفات بأن المعتزلة معطلة ، جردوا الذات الإلهية عن التأثير فى الكون والكائنات ، وجعلوها وهماً لا حقيقة لها ، وخیالاً لا وجود لها .
ورأى المحققون من العلماء أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأصول التى يتعلق بها تكفير أحد الطرفين ، ونقل الإمام جلال الدين الدوانى المتوفى سنة ٩١٨ هـ عن بعض الأصفياء أنه لا يرى بأساً فى اعتقاد أحد طرفى النفى والإثبات فى هذه المسألة .

وقدم الشيخ الدوانى تحقيقاً لقول الفلاسفة بعينية الصفات بأن ذاته تعالى من حيث إنه مبدأ لانكشاف الأشياء عليه - علم ، ولما كان مبدأ الانكشاف على ذاته بذاته كان عالماً بذاته .

وكذا الحال فى القدرة والإرادة وغيرها من الصفات .. قالوا : وهذه المرتبة أعلى من أن تكون الصفات مغايرة للذات ، فإننا مثلاً نحتاج فى انكشاف الأشياء علينا إلى صفة مغايرة لنا ، قائمة بنا ، وهو تعالى لا يحتاج إليها ، بل بذاته تنكشف الأشياء عليه .
ولذلك قيل : محصول كلامهم نفى الصفات وإثبات نتائجها وغاياتها ، وأما المعتزلة فظاهر كلامهم أنها عندهم من الاعتبار العقلية التى لا وجود لها فى الخارج ^(١) .

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين - تحقيق د. سليمان دنيا - ج ١ ، ص ٢٧٨ .

وأخر متشابهات

وردت نصوص شرعية تضيف ألفاظاً إلى الله تعالى ، يقف العقل أمامها دون أن يقطع بها إثباتاً أو نفيّاً ، وذلك كإضافة الوجه واليد والعين إلى الله سبحانه في مثل قوله جل شأنه : ﴿ كَلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ... ﴾^(١) .

﴿ .. يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... ﴾^(٢) .

﴿ وَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ... ﴾^(٣) .

فكيف يفهم المسلم هذه النصوص ؟

إن الفرق الإسلامية على أربعة اتجاهات هي :

التفويض ، أو التشبيه ، أو التأويل ، أو الإثبات بضوابطه .

وهاك التفصيل :

أولاً : التفويض :

عامة السلف الذين تلقوا هدى الكتاب الكريم بقبول حسن ، وآثروا صحة الاعتقاد وكثرة العمل ، ونزهوا عقولهم عن الجدال والخوض فيما لا يعنى - هؤلاء وجدوا أن في آيات التنزيل ألفاظاً قد توهم التشبيه مثل قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾^(٤) ، فجعلوها من المتشابه .

وأدركوا بسلامة فطرتهم أن العقل الإنسانى قاصر عن إدراك حقيقة الذات الإلهية وصفاتها ، فتوقفوا عن الخوض فيها ، وآثروا السلامة ، فقوضوا علم هذه الآيات إلى الله تعالى ، وقالوا :

أمروها كما جاءت ، وإذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسرها .

(٢) سورة الفتح الآية . ١٠

(٤) سورة طه الآية ٥ .

(١) سورة القصص الآية : ٨٨ .

(٣) سورة الطور الآية ٤٨ .

وقد نقل الإمام البغوى فى تفسيره رواية عن سفيان الثورى ، والأوزاعى ،
والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة
فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهات :
« أمروها كما جاءت بلا كيف » .

ونقل الإمام الخازن فى تفسيره روايات للبيهقى منها :
« رواية يحيى بن يحيى قال : كنا عند مالك بن أنس ، فجاء رجل فقال : يا أبا
عبد الله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف استواءه ؟
فأطرق مالك برأسه حتى علت له الرحضاء^(١) ثم قال : الاستواء غير مجهول^(٢) ،
والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وما أراك إلا مبتدعاً ،
فأمر به أن يخرج .

« رواية عن ابن عيينة قال : كل ما وصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره
تلاوته والسكوت عنه .

« ثم ذكر الخازن أن البيهقى قال :
« والآثار عن السلف فى مثل هذا كثيرة ، وعلى هذه الطريقة يدل مذهب
الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل ، والحسن بن الفضل
البهجلى ، ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابى »^(٣) .

وقد تكلم الإمام الشهرستانى عن فريق من السلف توقف فى التأويل وقالوا :
لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه ، ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات
وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له ، وليس كمثل شئ ،
وذلك قد أثبتناه يقيناً .

(١) الرحضاء : العرق .

(٢) أى معلوم معناه اللغوى لكنه غير معقول الثبوت لله تعالى .

(٣) لباب التأويل فى معانى التنزيل للإمام علاء الدين على بن محمود بن إبراهيم البغدادى الصوفى
المعروف بالخازن - فرع من تأليفه يوم الأربعاء العاشر من رمضان ٧٢٥ هـ ، وبهامشه معالم التنزيل للإمام
البعرى ج ٢ ، ص ١٩٦ - طبعة المكتبة التجارية الكبرى .

وأكد الشهرستاني أن منهاج السلف المتقدمين هو طريق السلامة فقالوا : تؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ، ولا تتعرض للتأويل^(١) ، بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، وأن كل ما تمثل في الوهم فإنه خالقه ومقدره .

ونقل الشهرستاني أنهم كانوا يحترزون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى « خلقت يدي » ، أو أشار بأصبعه عند رواية : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » ، وجب قطع يده وقلع أصبعيه .

واحتاط بعضهم أكثر حتى لم يقرأ اليد بالفارسية ، ولا الوحه ، ولا الاستواء ، ولا ما ورد من جس ذلك ، بل إن احتاج في ذكره إلى عبارة عبّر عنها بما ورد لفظاً بلفظ ، فهذا هو طريق السلامة^(٢) .

ولعل هذا المنهج التفويضي هو ما كان شائعاً على عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وقد أخرج الدارمي في مسنده ، ونصر المقدسي في الحجة عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له : صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر ، وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟ إليه عمر ، وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبد الله عمر .

فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين فضربه حتى دمي رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين حسبك فقد ذهب الذي كنت أجد في رأسي !!

وأخرجه الدارمي أيضاً من وجه آخر وفيه : أنه ضربه ثلاث مرات ، يتركه في كل مرة حتى يبرأ ثم يضربه . وأخرج أصل القصة ابن عساكر في تاريخه عن أنس . وأخرج الدارمي وابن عساكر أن عمر كتب إلى أهل البصرة أن لا يجالسوا صبيغاً^(٣) .

(١) التأويل بمعنى التفسير : أي لا يفسرها .

(٢) راجع الملل والنحل - تحقيق عبد العزيز الوكيل ص ٩٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ - طبعة دار الفكر - بيروت .

(٣) نقلا عن تفسير الإمام الشوكاني « فتح القدير » ج ١ ص ٣١٩ ، وراجع حياة الصحابة للكاتب الهلوي ج ٣ ، ص ٧٤٦

لقد كان الصحابة يسارعون إلى الخيرات ، ولم يتوقفوا عند لفظة أو ألفاظ قد يعيب فهمها عنهم ، أو تعلو على مداركهم ، ومضوا في يقين الصادقين وإخلاص المؤمنين وطهارة الأبرار ينشرون الإسلام في كل مكان .

ونقل عن الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًا﴾^(١) ، فقال : أى سماء تظلمنى ، وأى أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم .

وجاءت مقولة حكيمة تنسب إلى مسروق قال :

اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله^(٢) !!

وهؤلاء المفوضة يقفون وقفاً لازماً على لفظ الجلالة فى قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ تم يستأنفون القراءة :

﴿ .. وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ... ﴾^(٣) .

فهم يرون أن تأويل المتشابه وتفسيره وإدراك معناه مقصور على الله تعالى ، وأن شأن الراسخين فى العلم التفويض والإيمان بأن له معنى يليق بالله تعالى - يعلمه الله .

وهذا الاتجاه التفويضى لدى السلف أبرزه ابن حلدون وجعله فاتحة كلامه عن كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة ، وقال : ويدل على أن التأويل فيها غير معلوم للبشر أن الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعانى التى وضعها العرب لها ، فإذا استحال إسناد الخبر إلى المخبر عنه جهلنا مدلول الكلام حيثئذ ، وإن جاءنا من عند الله فوضنا علمه إليه ، ولا نشغل أنفسنا بمدلول بلتمسه ، فلا سبيل لنا إلى ذلك .

(١) سورة عس الآية . ٣١ .

(٢) نقلاً عن «المواقفات فى أصول الشريعة» للإمام الشاطبى ، ح ٣ ، ص ٣١٦ ، ط دار الكتب العلمية .

(٣) سورة آل عمران الآية : ٧ .

وقد قالت عائشة رضى الله عنها : « إذا رأيتم الدين يجادلون في القرآن فهم الذين عني الله فاحذروهم » .

هذا مذهب السلف في الآيات المتشابهة ، وجاء في السنة ألفاظ مثل ذلك ، محملها عندهم محمل الآيات ، لأن المنبع واحد ^(١) .

وانتهى ابن خلدون إلى تقرير أن مذهب السلف هو تفويض المراد بها إلى الله ، والسكوت عن فهمها .

٢ - التشبيه :

ترتكز عقيدة التشبيه على ظواهر النصوص ، وتفسيرها من خلال معاجم اللغة ، بناء على أن القرآن نزل بلسان عربي مبين .

فحن جميعاً نبحت عن ألفاظ القرآن لفهمها من حيث الوضع العربي ما لم يرد صارف شرعى ينقلها إلى معنى آخر ، فالصلاة - مثلاً - نأخذها بالمعنى اللغوى وهو الدعاء في قوله تعالى : ﴿ .. وَصَلُّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۖ ﴾ ^(٢) .

ونأخذها بالمعنى الشرعى في قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ ^(٣) ، فهي أقوال وأفعال مفتحة بالتكبير ، مختمة بالتسليم .

فإذا قرأنا مثل هذه الآيات :

﴿ .. ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... ﴾ ^(٤) .

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ... ﴾ ^(٥) .

(١) مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ص ٣٧٥ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م .

(٢) سورة التوبة الآية : ١٠٣ .

(٣) سورة النقرة الآية : ٢٣٨ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

(٥) سورة هود الآية : ٣٧ .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾^(١) .

﴿ وَيَتَّقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾^(٢) .

فالمرجع إلى اللغة العربية ، فيكون لله تعالى استواء كاستوائنا ، وعين كعيننا ، ويد كيدنا ، ووجه كوجهنا ... إلخ .

ووصل هؤلاء المشبهة - كما قال الشهرستاني - إلى أنهم أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة ، وأن المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حد الإخلاص والاتحاد المحض .

وحكى الكعبى عن بعضهم أنه كان يجوز الرؤية في دار الدنيا ، وأن يزوروه ويذورهم ، وحكى عن داود الجواربي أنه قال :
اعفونى عن الفرج واللحية واسألونى عما وراء ذلك !!

وقال : إن معبوده جسم ولحم ودم ، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس ، ولسان وعينين وأذنين ، ومع ذلك جسم لا كالأجسام ولحم لا كاللحوم ، ودم لا كالدماء !!

وكذلك سائر الصفات ، وهو لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء !!
وحكى عنه أنه قال : هو أجوف من أعلاه إلى صدره ، مصمت ما سوى ذلك ، وأن له وفرة^(٣) سوداء ، وله شعر قطط^(٤) هـ^(٥) .

ومن زعماء المشبهة أبو عبد الله محمد بن كرام من سجستان ، وبلغ أتباعه في خراسان أكثر من عشرين ألفاً ، وكان له مثل ذلك في أرض فلسطين ، وصفه الشهرستاني فقال :

(١) سورة يس الآية : ٧١ .

(٢) سورة الرحمن الآية : ٢٧ .

(٣) الوفرة : ما سال على الأديب من الشعر

(٤) قطط : أى حعد شديد العودة .

(٥) الملل والنحل ص ١٠٥ .

ونبغ رجل متهمس^(١) بالزهد من سجستان ، يُقال له : أبو عبد الله محمد بن كرام ، قليل العلم ، قد قمش^(٢) من كل مذهب ضعفاً^(٣) ، وأثبتته في كتابه ، وروجه على أغتنام^(٤) غرجة ، وعور ، وسواد بلاد خراسان .

فانتظم ناموسه ، وسار ذلك مذهباً ، وقد نصره محمود بن سبكتكين السلطان ، وصب البلاء على أصحاب الحديث والشيعة من جهتهم ، وهو أقرب مذهب إلى مذهب الخوارج ، وهم مجسمة ، وحاش ، غير محمد بن الهيصم فإنه مقارب^(٥) .

وذكره ابن كثير في تاريخ سنة خمس وخمسين ومائتين ، ونقل أنه ينسب إلى ابن كرام حواز وضع الأحاديث على الرسول ﷺ وأصحابه وغيرهم .. وأنه كان يقول : إن الإيمان قول بلا عمل .

ولما حبس وطال حبسه كان يتأهب لصلاة الجمعة ، ويأتى إلى السجن فيقول له : دعنى أخرج إلى الجمعة فيمنعه فيقول : اللهم إنك تعلم أن المنع من غيرى^(٦) !!

ثالثاً : التأويل :

وجد فريق من العلماء أن المشبهة قد وقعوا في مزلق خطير هو تشبيه الخالق بالخلق ، وهو نقص يتنزه عنه المولى سبحانه .

ونقموا على المتشبهة أنهم لم يفهموا لغة العرب ، فإن فيها الحقيقة والجاز ، وأنه إذا خلا الكلام من الجاز فقد خلا من الحسن .

فبدأ هؤلاء العلماء يصرفون الآيات عن ظواهرها اللغوية ويفسرونها تفسيراً مجازياً مناسباً للمقام .

فاليد بمعنى القدرة أو العطاء أو النعمة .

والوجه كناية عن الذات بأجمعها .

(١) أى متستر . (٢) أحد ردائل المذاهب .

(٣) الباطل والفساد . (٤) عرام هذه المناطق .

(٥) الملل والنحل ص ٣١ .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق محمد عبد الكريم النجار .

والعين مجاز عن الرعاية .

والاستواء تعبير عن الاستيلاء والقهر والسلطان .

وقالوا ليس يعقل أن يكون لله تعالى صفة تسمى اليد فهماً من قوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، وصفة تسمى اليدين فهماً من قوله جل شأنه : ﴿ لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ ﴾ وصفة تسمى الأيدي فهماً من قول سبحانه ﴿ مِمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا ﴾ !!

وإذا كان صرف اللفظ من حقيقته إلى مجاره يحتاج إلى قرينة ، فإن القرينة في مثل هذه الآيات هو التشبيه الذي لا يليق بجلال الله وكماله ، فيكون المعنى الحقيقي غير مراد ، وينبغي صرف اللفظ إلى المجاز .

ونسوق هنا نموذجاً تفصيلياً للراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢ هـ قال :
يد : اليد الجارحة .

واستعير اليد للعمة ، فقيل : يَدَيْتُ إليه : أى أسديت إليه ، وتجمع على أيادٍ ، وقيل : يدئ ، قال الشاعر :

* فَإِنْ لَهُ عِنْدِي يَدِيًّا وَأَنْعَمَا *

وللحوز والمِلْك مرة ، يقال : هذا في يد فلان ، أى في حوزة وملكه ، قال تعالى : ﴿ .. إِلَّا أَنْ يَغْفُورَ أَوْ يَغْفُورَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النَّكَاحِ ... ﴾ ^(١) .

وقولهم : وقع في يَدَيَّ عدل .

وللقوة مرة ، يقال لفلان يد على كذا ، ومالي بكذا يد ، ومالي به يدان ، قال الشاعر :

فَاغْتَمَدَ لَمَّا تَعْلُو فَمَا لَكَ بِالذِّى لَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْأُمُورِ يَدَانِ

ويقال : وضع يده في كذا إذا شرع فيه .

ويده مطلقة عبارة عن إيتاء النعيم .

ويد مغلولة عبارة عن إمساكها ، وعلى ذلك قيل : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٧ .

مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُغْتُوْا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿١﴾ .
ويقال : نفضت يدي عن كذا : أى حليت .

وقوله عز وجل : ﴿ .. إِذْ أَيْدُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... ﴾ ^(٢) أى قويت يدك .

وقوله : ﴿ .. فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ... ﴾ ^(٣) فنسبته إلى أيديهم تنبيه
على أنهم اختلقوه ، وذلك كنسبة القول إلى أفواههم فى قوله عز وجل : ﴿ .. ذَلِكَ
قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ^(٤) تنبيهاً على اختلاقهم .

وقوله : ﴿ .. أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِطُشُونَ بِهَا ... ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿ .. أُولَى
الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ﴾ ^(٦) إشارة إلى القوة الموجودة لهم .

وقوله : ﴿ .. وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ ^(٧) أى القوة .

وقوله : ﴿ .. حَتَّى يَغْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ^(٨) أى يعطون
ما يعطون عن مقابلة نعمة عليهم فى مقارنتهم ، وموضع قوله : (عن يد) فى
الإعراب حال ، وقيل : بل اعتراف بأن أيديكم فوق أيديهم : أى يلتزمون الذل .
ويقال : فلان يد لفلان : أى وليه وناصره .

ويقال لأولياء الله : هم أيدي الله ، وعلى هذا الوجه قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ
الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... ﴾ ^(٩) فإذا يده عليه
الصلاة والسلام يد الله ، وإذا كان يده فوق أيديهم فيد الله فوق أيديهم ، ويؤيد
ذلك ما روى : « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت
سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى
يمشى بها ... الحديث » .

وقوله : ﴿ .. تَمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ... ﴾ ^(١٠) ، وقوله : ﴿ .. لِمَا خَلَقْتُ

(٢) سورة المائدة الآية : ١١٠ .

(٤) سورة التوبة الآية . ٣٠ .

(٦) سورة ص الآية ٤٥ .

(٨) سورة التوبة الآية ٢٩ .

(١٠) سورة يس الآية ٧١ .

(١) سورة المائدة الآية ٦٤ .

(٣) سورة النقرة الآية ٧٩ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٩٥ .

(٧) سورة ص الآية ١٠ .

(٩) سورة الصبح الآية ١٠ .

يَتَدَيُّ ﴿^(١)﴾ ، فعبارة عن توليه لخلقه باحتراعه الذي ليس إلا له عز وجل ، وتُحَصُّ لفظ اليد ليتصور لنا المعنى ، إذ هو أجل الجوارح التي يتولى بها الفعل فيما بيننا ، ليتصور لنا اختصاص المعنى لا ليتصور منه تشبيهاً .

وقيل : معناه بنعمتي التي رشحتها لهم ، والباء فيه ليس كالباء في قولهم قطعت بالسكين بل هو كقولهم خرج بسيفه : أى معه سيفه ، معناه خلقتهم ومعه نعمتي الدنيوية والأخروية اللتان إذا رعاهما بلغ بهما السعادة الكبرى .

وقوله : ﴿.. يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ...﴾ : أى نصرته ونعمته وقوته .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَسَّمَا سَقُطَ فِي أَيْدِيهِمْ ...﴾ ^(٢) : أى ندموا ، يقال سقط في يده وأسقط ، عبارة عن المتحسر ، أو عمن يقلب كفيه كما قال عز وجل : ﴿.. فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ...﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ : أى كفوا عما أمروا بقبوله من الحق ، يقال : ردّ يده في فمه : أى أمسك ولم يجب .

وقيل : ردوا أيدي الأنبياء في أفواههم : أى قالوا ضعوا أناملكم على أفواهكم واسكتوا .

وقيل : ردوا نعم الله بأفواههم : أى بتكذيبهم .. هـ ^(٤) .

وزعماء هذا الاتجاه جمهور المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة .

لكن المعتزلة يجعلون التأويل الاختيار الأوحده ، ولا بديل عنه ، أما الأشاعرة فيجعلون التأويل ثانى اثنين ، فهم يقولون بالتأويل أو التفويض ، بل يميل كثير منهم إلى ترجيح جانب التفويض .

وعلى سبيل المثال فإن الإمام الرازى فى تفسيره يختار التفويض ويقول : « لا يعلم المتشابه إلا الله ، وهذا قول ابن عباس وعائشة ومالك بن أنس والكسائى

(١) سورة ص الآية : ٧٥ . (٢) سورة الأعراف الآية : ١٤٩ .

(٣) سورة الكهف الآية : ٤٢ .

(٤) المفردات فى غريب القرآن لأبى القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهائى - تحقيق محمد سيد كيلانى ص ٥٥٠ - طبعة دار المعرفة - بيروت

والفراء ، ومن المعتزلة أبو علي الحياتي ، وهو المختار عندنا .. » .

ثم يقول : دل الدليل على أنه يمتنع أن يكون الإله في مكان ، فعرفنا أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ما أشعر به ظاهرها .. إلا أن في مجازات هذه اللفظة كثرة ، وصرف اللفظ إلى البعض دون البعض لا يكون إلا بالترجيحات اللغوية الظنية .

والقول بالظن في ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بإجماع المسلمين .. وهذه حجة قاطعة في المسألة .

والقلب الخالي عن التعصب يميل إليه .
والفطرة الأصلية تشهد بصحته ، وبالله التوفيق » ^(١) .

وفي موضع آخر من التفسير يسوق للعلماء الراسخين مذهبين ، يجعل أولهما أن نقطع بكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله .

ثم يعلق عليه قائلاً : « وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ، ونعتمد عليه » ^(٢) .

وانتقد عضد الدين الإيجي موقف أبي الحسن الأشعري من هذه النصوص ، وساقها تحت عنوان ، صفات اختلف فيها ، وقال عن الاستواء : « وذهب الشيخ (الأشعري) في أحد قوليه إلى أنه صفة زائدة ، ولم يقم دليلاً ، ولا يجوز التعويل على الظواهر مع قيام الاحتمال » ، وقال عن الوجه :

« أثبتته الشيخ في أحد قوليه ، وأبو إسحق الإسفرايني والسلف صفة زائدة ، وقال في قول آخر ، وواقفه القاضي : إنه الوجود ، وهو - كما قبله - في عدم القاطع ^(٣) » .
ومن هنا جاء نظم الشيخ اللقاني في جوهرة التوحيد :
وكل بص أوهم التشبيهاً أوله أو فوض ، ورم تنزيهاً

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .

(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، ج ١٤ ، ص ١٢١ .

(٣) المواقف ص ٢٩٧ .

رابعاً : الإثبات بضوابط :

رفض جمع من السلف والخلف الاتجاهات الثلاثة السابقة ، واصطنعوا مذهباً يقوم على الإثبات للوصف مع نفي التشبيه ، ورفض التأويل ، والطعن في التفويض . وجاء في كتاب « الفقه الأكبر » المنسوب إلى الإمام أبي حنيفة :

« وله (تعالى) يد ووجه ونفس ، كما ذكره الله تعالى في القرآن ، فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفته بلا كيف ، وغضبه ورحمته صفتان من صفاته تعالى بلا كيف » (١) .

وللإمام محمد بن إسحق بن خزيمة كتاب في هذا الموضوع يسمى « التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل » قال فيه :

« فأول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا جل وعلا في كتابنا هذا - ذكر نفسه ، جل ربنا عن أن يكون نفسه كنفس خلقه ، وعز عن أن يكون عدماً لا نفس له ، قال الله جل ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ... ﴾ (٢) .

* * *

« فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا أنا تثبت لله ما أثبتته لنفسه ، نقر بذلك بألسنتنا ، ونصدق بذلك بقلوبنا ، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين ، وعز ربنا عن أن يشبهه بالمخلوقين ، وجل ربنا عن مقالة المعطلين ، وعز عن أن يكون عدماً كما قال المبطلون » .

* * *

(١) شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، للملا علي القاري المتوفى سنة ١٠١٤ هـ ، ص ٥٨ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤ .

« وصفة سبحات ^(١) وجهه عز وجل ، تعالى ربنا عن أن يكون وجه ربنا كوجه بعض خلقه ، وعز أن لا يكون له وجه ، إذ الله قد أعلمنا في محكم تنزيله أن له وجهاً دواه بالجلال والإكرام ، ونفى الهلاك عنه ^(٢) .

* * *

وذهب أبو الحسن الأشعري إلى نفس الاتجاه في كتابه « مقالات الإسلاميين » وحكى حملة ما عليه أهل الحديث والسنة من عقائد في الإلهيات ومنها : الإقرار بأن الله سبحانه على عرشه كما قال : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وأن له يدين بلا كيف كما قال : ﴿ خلقت يدي ﴾ ، وكما قال : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ ، وأن له عينين بلا كيف كما قال : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ ، وأن له وجهاً كما قال : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ ^(٣) .

وتبنى ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ هذا الاتجاه ودافعوا عنه بشدة ، وأنكروا أن يكون التفويض مذهباً للسلف ، وأكدوا أن علماء السلف لم يكفوا عن بيان معنى الآيات المتشابهات ولا تركوا تفسيرها ، وإنما حملوها على أنها كلها صفات لله عز وجل ، فهي معلومة عندهم ، والكيف هو المجهول كما في سائر ما يخص الله تعالى .

ويرى شارح الطحاوية ابن أبي العز الدمشقي المتوفى سنة ٧٩٢ هـ أن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصحيح .

ويذهب إلى أن ما دلّ عليه الكتاب والسنة ليس تشبيهاً طالما فهمناه في إطار قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ، ويرى أن الشق الأول

(١) سبحات الله - بصم السين المهملة والباء الموحدة - حلاله وعظمته ، وهي في الأصل جمع سحرة ، وقيل أصواء وجهه ، وقيل : محاسنه لأنك إذا رأيت حس الوجه قلت سبحان الله .

(٢) كتاب « التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل » لابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١ هـ ، راحه وعلق عليه د. محمد خليل هراس ، ص ٥ ، ١٠ ، ١٩ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٣٩٨ هـ .

(٣) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٧٨ م .

من هذا النص : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ رد على المشبهة ، وأن التقى الثاني ﴿ وهو السميع البصير ﴾ رد على النفاة المعطلة .

ويحفظ شارح الطحاوية للمذهبين حسن نيتهما ومدخلهما الصحيح في نظره ويقول :

فالنفاة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ، ولكن أساءوا في نفي المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الأمر .

والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه ٥ (١) .

وقد رفض ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ أن يكون الإثبات بضوابطه مذهباً للسلف ، ونسبه إلى جماعة منهم هم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة ، ووصفهم بالارتباك في محمل هذه الصفات ، حين حملوها على صفات ثابتة لله تعالى مجهولة الكيف ، وأكد أنهم بذلك قد ولجوا في باب التشبيه الذي تنفيه آيات السلوب ، من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (٢) .

﴿ .. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٣) .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٤) .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٥) .

وأن ما يسمونه تنزيهاً في قولهم : يد لا كالأيدي ، أو وجه لا كالوجوه ، هو قول متناقض سفساف ٥ (٦) .

نموذج تطبيقي :

نقدم للقارئ الكريم توضيحاً لهذه المذاهب الأربعة حول قوله تعالى : ﴿ .. يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... ﴾ :

-
- (١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٤ - طبعة المكتب الإسلامي ١٣٩٩ هـ .
(٢) سورة الشورى الآية ١١٠ . (٣) سورة المؤمنون الآية : ٩١ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٤٣٠ . (٥) سورة الإخلاص الآيات : ٣ ، ٤ .
(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

فالمفوضة يقولون : الله أعلم بمراده ، ولا يشتون يداً ولا ينفونها ، ولا يقولون إنها حقيقة أو محاز .

والمتشبهة يقولون : إن لله تعالى يداً تشبه أيدينا ، لأن هذا هو وضع اللغة ، ونحن لا نعرف اليد إلا اليد البشرية .

والمؤولة يقولون : اليد هنا مجاز عن القدرة ، وقد صرفنا اللفظ عن ظاهره اللغوي بقرينة النقص اللازم له وهو التشبيه ، والله تعالى منزّه عن النقص ومشابهة خلقه .

ومذهب الإثبات يرى أن لله يداً حقيقية تثبت له تعالى ، بلا تفويض فلا يقال الله أعلم بمراده ، وبلا تشبيه فلا يقال : إن له يداً تشبه أيدينا ، وبلا تأويل فلا يقال : إن اليد مجاز عن القدرة .

* * *

تعقيب ورأى

١ - حكمة التشابه :

إن العقل المسلم الذى بدأ مع الأمر القرآنى الأول « اقرأ » لا يكون إلا عقلاً مجتهداً ، يبحث وينقب ، ويحلل ويركب ، ويعلل ويستنبط .. وقضية المحكم والمتشابه ما هى إلا تأكيد لأهمية الاجتهاد فى الدين .

وقد ساق الإمام الزمخشري تساؤلاً هو : هلا كان القرآن كله محكماً ؟
وأجاب قائلاً : لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال .

ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به .
ولما فى التشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه .

ولما فى تقادح العلماء وإتباعهم القرائح فى استخراج معانيه ، ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة ، والعلوم الجمة ، ونيل الدرجات عند الله .. ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ، ولا اختلاف ، إذا رأى فيه ما يتناقض فى ظاهره ، وأهمه طلب ما يوفق بينه ، ويجريه على سنن واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة التشابه المحكم - ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة فى إيقانه ^(١) .

إن آية سورة آل عمران فى المحكم والمتشابه ترشد إلى أن أصول الكتاب واضحة المعنى ، بينة الدلالة ، محروسة من الاحتمال ، ولهذا كانت محكمات يلتقى عليها المؤمنون الصادقون فى عقائدهم وعباداتهم ، فالتوحيد الخالص لله تعالى ، ونوة محمد ﷺ وعموم رسالته وختمها للوحى الإلهى ، وفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وحرمة الربا والزنا والقتل والسرقة ... إلخ . هذه كلها محكمات .

(١) الكشاف ، ج ١ ، ص ١٣٤ - الطبعة الأولى ١٣٤٣ هـ .

وهناك متشابهات تحتاج إلى فطنة عقل وروية فكر واجتهاد علم ، كى تحمل على أحسن المحامل وأقرب الوجوه وأصدق التأويل .

وهذا شأن الراسخين فى العلم بما منحهم الله من الحجة والبيان كما منح المرسلين من خلقه .. قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

والراسخون فى العلم هم الذين يوكل إليهم أمر البيان والاستنباط ، وهم أهل الذكر المشار إليهم فى قوله تعالى : ﴿ .. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... ﴾ (٢) .

وقوله جل شأنه : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ولهذا فنحن نرجح أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابهات على قدر طاقتهم البشرية ، ونرى أن العطف أولى من الوقف فى قوله تعالى : ﴿ .. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ... ﴾ (٤) .

ونقل القرطبى عن شيخه أبى العباس أحمد بن عمر قوله :

وهو الصحيح ، فإن تسميتهم راسخين تقتضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب .

وفى أى شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ١١٩

لكن المتشابه متنوع ، فمنه ما لا يعلم ألبتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بعلمه ، وهذا لا يتعاطى علمه أحد ، فمن قال من العلماء الخذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه ، فإنما أراد هذا النوع .

وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة فيتأول ويعلم تأويله المستقيم ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم (٥) .

(١) سورة الأنعام الآية : ٨٣ . (٢) سورة النساء الآية ٨٣ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٧٠ . (٤) سورة آل عمران الآية ٧٠ .

(٥) نقلا عن : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير للإمام محمد بن على بن محمد الشوكانى المتوفى ١٢٥٠ هـ ، ج ١ ، ص ٣١٧ - طبعة دار الفكر .

٢ - فنبد التشبيه :

نحن نقبل المذاهب الاجتهادية فى الصفات ، اللهم إلا مذهب التشبيه ، فإنه لا مستند له من العقل ، ولا تأييد له من الشرع ، فنبد التشبيه هو الأكرم للعقل والأصح فى الدين .

ولا يعنينا ما يقال : إن المشبهة أرادوا الإثبات ثم غلوا فيه ، فكم من النوايا الحسنة الحمقاء تلقى بأصحابها فى الدرك الأسفل من النار ، ولقد ابتدع النصارى الرهبانية ابتغاء رضوان الله وقبحهم الله وذمهم .. فقال :

﴿ .. وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾^(١) .

وعبد المشركون الأصنام زلفى إلى الله ، ولحقهم مذمة الكفر والكذب ، وعار الجهل وعاقبة الخسران ، قال تعالى :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾^(٢) .

إن المشبهة - عند حسن الظن بهم - أغبياء جهلاء ، فإن الله تعالى لا يماثله أحد من خلقه :

﴿ .. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٣) .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾^(٤) .

والمشبهة - عند سوء الظن بهم - عملاء دخلاء ، يحملون أفكاراً وثنية ، يريدون إقحامها على العقيدة الإسلامية ، فالوثنية كلها قائمة على تشبيه الخالق

(١) سورة الحديد الآية - ٢٧ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٣ .

(٣) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٤) سورة الإخلاص الآية : ٤ .

بالمخلوق ، وإثبات النقص للمعبود .. قال تعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا سَهْلًا عَافِيَيْنَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ^(١) .

٣ - حرية الاختيار :

لا حرج على المسلم - بعد نبذ التشبيه - أن يعتقد مذهباً من المذاهب الثلاثة :
التفويض ، أو التأويل ، أو الإثبات بضوابطه .
فإن التفويض تسليم ، فالمسألة أكبر من العقل وأعظم من أن نحكم فيها بيقين كامل ، بل هو ترجيح وكفى .

وإن التأويل تنزيه ، وليس تعطيلاً كما يزعم البعض ، فالمثولة يعرفون جلال الله وكماله حق المعرفة ، ولا ينازع في ذلك إلا مكابر .

وإن الإثبات بضوابطه هو لون من التأويل ، فإنهم عندما يقولون : ثبت ما أثبتته الله لنفسه بلا تشبيه ، فقد قالوا بالمجاز ، فإن صرف اللفظ عن ظاهره في الوضع العربى هو مجاز وتأويل ، فإن اللغة لا تعرف يداً حقيقية إلا اليد البشرية بلحمها وشحمها وعظمها ، ومتى أثبتوا لله تعالى يداً لا كالأيدى فقد لزمهم المجاز .

ومن هنا فنحن نخفف الوطء ندعو إلى التقارب بين هذه المذاهب ، ونرجو عدم التصايح بعبارات التفسير والتبديع تجاه هؤلاء الفرقاء ، فلم تكن المسألة في يوم ما على عهد النبوة الأولى موضع أخذ ورد ، ولا تساؤل واستفهام وتركت المسألة لفهم الصافى الذى درج عليه العربى القصيح .

٤ - وجهة نظر :

إن الذين يخوضون فى الصفات الخبرية ويجمعونها ويجادلون حولها ، ويجعلونها محور العقيدة وأساس الدين - هؤلاء يفقدون الحس اللغوى البليغ ،

(١) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٧٤ .

وتنقصهم الخشية من الله تعالى .. فإن آيات ما يسمى بالصفات الخبرية لم ترد لإثبات أجزاء للذات الإلهية ولا لتحديد أعضائها !!

إنها آيات ذات دلالة حكيمة لها صلة موضوعية بالسياق الذى وردت فيه .. فقله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ لم يرد فى القرآن المجيد لإثبات اليد ، ولا للحديث عن أوصاف الإله ، وإنما جاء لتأكيد بيعة المؤمنين لرسول الله ﷺ ، وحثهم على الوفاء لها والالتزام بها والحرص عليها .

ولنقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وقوله جل شأنه : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ لم يأت لإثبات العين لله تعالى ولا علاقة له بهذا الجواب مطلقاً ، لقد جاء التعبير الكريم دعوة للصبر ، وتثبيتاً لقلب النبي ﷺ ، ودعماً له فى موقفه أمام أعدائه ، وبياناً لفضل الله عليه ورعايته له .

ولنقرأ : ﴿ وَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ما جاء لإثبات صفة ذات لله تعالى ، وإنما لتأكيد صفة فعل للواحد القهار .

إن السياق القرآنى لهذا التعبير الكريم فى سابقه ولاحقه يجلى آثار الإبداع والقدرة والهيمنة الإلهية .

ولنقرأ : ﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ (٣)

(١) سورة الفتح الآية : ١٠ .

(٢) سورة الطور الآيتان . ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة طه الآيات ٤ - ٦ .

ولنقرأ أيضاً :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (١) .

ولو أخذنا مثلاً من الحديث النبوى الشريف لوجدنا أن الأمر لا يختلف عما قلناه من أن السياق اللغوى هو الذى يحدد المعنى المراد .

ففى صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

فبالله عليك ماذا يفهم الإنسان السوى من هذا الحديث الشريف ؟!

هل المسألة المطروحة هنا هى إثبات الفرح صفة لله تعالى ؟!

لقد أراد النبى ﷺ أن يفتح باب الأمل أمام الإنسان ، وينتشله من وهدة ديوه ومعاصيه ، ويرتفع به إلى سمو الطهارة الروحية والأخلاقية .. وهذا هو محور الحديث ومقصده .

إن هؤلاء الذين يتخذون من تلك النصوص الكريمة دلائل لما يسمى الصفات الخيرية يفقدون الحس اللغوى البليغ !!

لقد أتى بعضهم بأمر عجب حين جمع ما تفرق من النصوص الشرعية ، وألف كتباً تحمسوا لها وساقوا ما يلى :

باب ما جاء فى إثبات العين ، واليدين ، واليمين ، والكف ، والأصابع ، والساعد ، والذراع ، والساق ، والقدم ، والرجل ، والتقرب ، والاتيان ، والهرولة ،

(١) سورة الرعد الآية : ٢ .

والضحك ، والفرح ، والنظر ، والغيرة ، والملال ، والتردد ، والصبر ^(١) .
إن هذا الموقف تنقصه الخشية من الله عز وجل .

ولم يكن أحد من صحابة رسول الله ﷺ يسأل عن اليمين والأصابع ، ولم يتوقف إيمان أحد منهم على إثبات صفة الضحك والفرح ، وأدركوا بحسهم الفطري المعاني العظيمة للغة القرآن المجيد الذي نزل بلسان عربي مبين يعرف الحقيقة والمجاز في التعبير ، وأنه إذا خلا الكلام عن المجاز خلا عن الحسن !!
إن هذه النصوص الشرعية لا تقدم صفة من صفات الذات الإلهية ، ولا تأمر بعقيدة يرتبط بها الإيمان .

* * *

(١) ولا تدري كيف يفهم هؤلاء قوله تعالى : ﴿ إنا نسيناكم ﴾ وقوله ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ ، فهل يشتون السيان على الله تعالى ويزعمون أنه نسيان يليق بجلاله ١٩ سبحانه الله عما يصفون .

الفصل الثالث

رؤية الله تعالى

* تمهيد .

* مذاهب العلماء .

* النصوص القرآنية في الرؤية :

- سؤال بنى إسرائيل .
- نفى إدراك الأبصار .
- موسى عليه السلام في الميقات .
- لقاء الله تعالى .
- الحسنى وزيادة .
- النظر إلى الله تعالى .
- الملك الكبير .
- المحجوبون عن الله .

* أحاديث الرؤية .

* ولنا تعقيب .

- سلاح المعرفة .
- خلاف لفظي .
- بعيد عن الأصول .
- * على هامش الرؤية .
- الرؤية في الدنيا .
- رؤية الله تعالى مناماً .
- أنواع الرؤية .

تمهيد

اختلف الفرقاء المسلمون في رؤية الخلائق لربهم سبحانه وتعالى ، وكان موضع الخلاف ومحل النزاع متعدد الجوانب :

* هل رؤية الله تعالى ^(١) جائزة عقلاً أو مستحيلة ؟

هذه النقطة تعد مدخلاً أساسياً لفهم بصوص القرآن والسنة ، وبناء على جواب هذا السؤال يطرح سؤال تال وهو :

* هل تقع رؤية الخلائق لربهم سبحانه أو لا ؟

لأنه على فرض جواز الرؤية فقد لا تقع لأنه ليس كل جائز واقعاً وحاصلاً ، فالوقوع يحتاج إلى دليل شرعى يؤكد الوقوع ..

ثم لو سلمنا برؤية الخلائق لربهم سبحانه فإن هناك تساؤلات تتوارد : من يكون الراى ؟ هل هم المؤمنون فقط أو الخلائق أجمعون ؟

وأين تقع الرؤية ؟ هل فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة فقط ؟

وإذا وقعت الرؤية فى الدنيا فهل تقع يقظة أو مناماً ؟

وإذا وقعت فى الآخرة فهل تقع فى الجنة فقط أو فى مواقف خاصة من مواقف الحشر يوم القيامة ؟

هذا هو مجمل الخلاف .. !!

* * *

(١) رؤية الله من إضافة المصدر لمفعوله أى رؤية المؤمنين أو الخلائق ربهم وليس من إضافة المصدر لفاعله لأن المعنى حيثئذ يكون صفة البصر لله تعالى وهو مسحط أحر .

مذاهب العلماء

تعددت مذاهب العلماء فى موضوع الرؤية على النحو التالى :

١ - المشبهة

هؤلاء المشبهة لا يخلطون من إثبات رؤية الخلائق لربهم سبحانه كرؤية البشر بعضهم بعضاً ، فى جهة ومقابلة ، وتجسيم واتصال شعاع ، وكافة شروط الرؤية البشرية ..

بل قالوا بالتزاور والتعائق والتصافح فى الدنيا والآخرة .. وهؤلاء المشبهة هم جماعة من الشيعة الغالية وجماعة من أصحاب الحديث الحشرية (١) .

٢ - المعتزلة والشيعة

اتفق المعتزلة على استحالة رؤية الخلائق لربهم سبحانه ، بناء على أن الرؤية تستلزم التشبيه والتجسيم ، وهو نقص مستحيل فى حق الله تعالى ..

والشيعة الإمامية على مذهب الاعتزال ، وهم ينقلون أقوال مشايخ المعتزلة ويدافعون عنها ، فالشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى نقل فى تفسيره عند آية الأعراف ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قول الجبائى : « وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك شىء من خلقك ، فأنا أول المؤمنين من قومى باستعظام سؤال الرؤية » (٢) .

والشيخ أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى نقل فى تفسيره عند آية سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ

(١) راجع كتاب .. الملل والنحل - للشهرستانى - تحقيق عبد العزيز الوكيل ص ١٠٥ .
(٢) تفسير الثبيان - تحقيق أحمد حبيب قصير العاملى - المجلد ٤ ص ٥٣٧ ط مكتبة الأمين بالسجف الأشرف ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .

الصَّاعِقَةُ وَأَلْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿ استدلّال أبي القاسم البلخي بهذه الآية على أن الرؤية لا تجوز على الله تعالى لأنها إنكار تضمن أمرين :

أ - ردهم على نبيهم .

ب - تجويزهم الرؤية على ربهم .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ^(١) .

فدل ذلك على أن المراد إنكار الأمرين .. وتدل هذه الآية أيضاً على أن قول موسى ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ^(٢) .

كان سؤالاً لقومه .. ^(٣) .

* * *

٣ - الأشاعرة وجمهور المتكلمين :

هؤلاء يقولون بحواز الرؤية عقلاً ، ووقعها شرعاً ، ويرفضون التلازم بين الرؤية وبين التشبيه والتجسيم ، ويثبتون رؤية بلا كيفية ولا جهة ولا مقابلة ، ويفسرونها بنوع من الإدراك أو العلم المخصوص أو الرؤية القلبية .

٤ - أنصار السلفية :

هؤلاء يثبتون الرؤية بلا كيفية ، ولكن في جهة ومقابلة .

يقول الشيخ ابن أبي العز الدمشقي : فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟

ومن قال : يُرى لا في جهة فليراجع عقله .

فإما أن يكون مكابراً لعقله أو في عقله شيء .

(١) سورة الساء الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن ، ح ١ ، ص ٢٥٥ - طبعة مكتبة الحياة - بيروت ١٣٨٠ /

١٩٦١ م .

والأخيراً قال : « يُرى لا أمام الرائي ، ولا خلفه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ، ولا فوقه ولا تحته ، ردّ عليه كل من سمعه بفطرته السليمة » ^(١) .

* * *

وبنظرة تأملية في هذه المذاهب نرى ما يلي :

١ - استبعاد المشبهة في بحثنا هنا ، لأن الخلاف معهم ليس في الرؤية ابتداء وإنما في قضية التشبيه أساساً .

٢ - استبعاد أنصار السلفية لأنهم يلتقون مع جمهور المتكلمين في إثبات الرؤية ودلائلها ، ونقطة الخلاف معهم هي الجهة والفوقية وليست وفقاً على موضوعنا هذا .

٣ - استبعاد الشيعة لأنهم عالة على المعتزلة في كثير من آراء العقيدة وهم تلاميذ واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد وغيرهم من أئمة الاعتزال .

٤ - تنحصر المذاهب - إذن - في اتجاهين :

(أ) اتجاه يثبت جواز الرؤية عقلاً ووقوعها شرعاً ، وهو رأى جمهور المتكلمين .

(ب) اتجاه ينفي الرؤية لاستحالتها عقلاً وشرعاً ، وهو رأى المعتزلة .

٥ - دلائل العقل المجرد في هذا الموضوع قد لا تقف عندها كثيراً في بحثنا هنا ، لأن مؤداها في النهاية عند المثبتين هو الإمكان ، وعند النافين هو الاستحالة ، وهناك قدر مشترك بين الإمكان والاستحالة هو عدم الوقوع ، فالشيء قد لا يقع إما لأنه مستحيل الوقوع أو لأنه ممكن لم يترجع وجوده .

وسنحاول أن نقتصر على دلالة النص وفهمه لدى الفريقين ، فهذه الدلالة كافية في موضوعنا ، وتجلى حقيقة مواقف الطرفين .

ثم إن النصوص الشرعية في الإسلام لها منحنى عقلى يلجأ إليه الفريقان لتأييد

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١١ - طعة المكتب الإسلامى ١٣٩٩ هـ .

مذهبهم ، فطبيعة الاستدلال وكيفية توجيه النص هي فيصل التفرقة بين الاستحالة والجواز .

٦ - عرضنا لآراء الفريقين من خلال فهم النصوص القرآنية نقتبسه من أهم كتب التفسير في هذا المجال ، وهي :

* « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل » ، للإمام أبي القاسم جار الله ، محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

وهذا التفسير اعتزالي النزعة ، وقد طبع على هامشه كتاب « الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال » للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي المتوفى ٦٨٣ هـ .

* « تفسير البيان » للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي شيخ الطائفة الإمامية ، المتوفى ٤٦٠ هـ .

* « مجمع البيان في تفسير القرآن » للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى ٥٤٨ هـ ، وهو من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس الهجري .

وكلا الكتابين في الفكر الشيعي الذي يتبنى كثيراً من العقائد الاعتزالية ويدافع عنها .

* « التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب » للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي المتوفى ٦٠٤ هـ ، وهذا التفسير يمثل الاتجاه الأشعري والكلامي .

* * *

النصوص القرآنية في الرؤية

١ - سؤال بني إسرائيل :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(١) .

فهم المعتزلة :

استدل المعتزلة بهذه الآية على استحالة الرؤية ، وقال الإمام الزمخشري :
« وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه السلام رآهم القول ، وعرفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة - محال ، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض » .

وأكد الزمخشري أن الذين سألوا موسى هذه الرؤية كانوا في الكفر كعبدة العجل ، فسلط الله عليهم صاعقة الموت ، كما سلط علي أولئك توبة القتل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٢) .

فالكفران سواء .. كفر سؤال الرؤية ، وكفر عبادة العجل .

وعندما تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم ، في سورة النساء ، في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ... ﴾ ^(٣) .

(١) سورة البقرة الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٥٤ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٥٣ .

علق الزمخشري قائلاً : « وإنما اسند السؤال إليهم (سؤال الرؤية إلى المعاصرين
لنبوة محمد ﷺ) وإن وجد من آبائهم في أيام موسى ، وهم النقباء السبعون ،
لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين لسؤالهم ومضاهين لهم في التعنت .

وعلل الزمخشري وصفهم بالظلم بسبب سؤالهم الرؤية وهي مستحيلة ، ولو
طلبوا أمراً جائزاً لما سموا ظالمين ، ولما أخذتهم الصاعقة ، كما سأل إبراهيم عليه
السلام أن يريه إحياء الموتى ، فلم يسمه ظالماً ، ولا رماه بالصاعقة .

* * *

فهم أهل السنة :

رد أهل السنة على لسان ابن المنير في حاشيته على الكشف بأن سبب العقوبة
لبنى إسرائيل هو التعنت والشك في خبر موسى عليه السلام بأن الله لا يرى في
الدنيا ولكن يُرى في الآخرة .

وإنما وصف بنو إسرائيل بالظلم لكونهم اقترحوا على موسى خصوصية علقوا
إيمانهم بها ، ولم يعتبروا المعجز الذي اختاره الله لهم .. فيكفيهم الاقتراح والتعنت
كى يوصفوا بالظلم ، حتى ولو طلبوا أيسر الأشياء ، فظلمهم مسبب عن اقتراحهم ،
لا عن كون المقترح ممتنعاً عقلاً .

ألا ترى أن المشركين على عهد رسول الله ﷺ طلبوا أموراً جائزة ولم يجابوا
إليها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ
تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ (١) .

٢ - نفى إدراك الأبصار :

قال الله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

(١) سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٣ . (٢) سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

فهم المعتزلة :

فى تفسير « التبيان » لأبى جعفر الطوسى أن هذه الآية تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى لا يرى بالأبصار ، لأنه تمدح بنفى الإدراك عن نفسه ، وكل ما كان نفيه تمدهاً فإثباته لا يكون إلا نقصاً ، والنقص لا يليق بالله تعالى ، فثبت أنه لا يجوز إدراكه . ويرى الشيخ الطوسى أن الإدراك إذا أضيف إلى واحد من الحواس أفاد ما تلك الحاسة آلة فيه ، فيقال :

أدركته بأذنى : أى سمعته ، وأدركته بأنفى : أى شمته ، وأدركته بفمى : أى ذقته ، وكذلك أدركته ببصرى : أى رأيته .

ويذهب الشيخ الطوسى إلى أن تفسير الإدراك بالإحاطة باطل ، لأنه لا يقال أدرك السور بالمدينة ، ولا أدرك الحب بالماء ، ولا أدرك الجراب بالدقيق مع إحاطة جميع ذلك بما فيه .

وقوله تعالى : ﴿ .. حَتَّى إِذَا أَذْرَكَ الْفَرْقُ ... ﴾ ^(١) ليس المراد به الإحاطة بل المعنى حتى إذا لحقه الفرق ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ^(٢) أى ملحقون .

فالإدراك فى اللغة قد يكون بمعنى اللحق كقولهم أدركت فلاناً إذا لحقته ، وقد يكون بمعنى النضج كقولهم أدركت الثمرة إذا نضجت ، وأدرك القدر إذا نضج ، وأدرك الغلام إذا بلغ حال الرجال .

فهم أهل السنة :

فسر الإمام الرازى هذه الآية الكريمة على مجموعة آراء تؤيد إثبات الرؤية هى : (أ) الأبصار صيغة جمع دخل عليها الألف واللام ، فهى تفيد الاستغراق ، فقوله : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يفيد أنه لا يراه جميع الأبصار ، فهذا يفيد سلب العموم ، ولا يفيد عموم السلب ، فالتنفى منصب على البعض دون البعض ، فالمؤمنون يرون ربهم ، والكافرون محجوبون .

(١) سورة يونس الآية : ٩٠ . (٢) سورة الشعراء الآية : ٦١ .

(ب) إن المنفى هو إدراك الأبصار المادية التي هي إحدى حواس الإنسان ، فلا ينفى أن يخلق الله يوم القيامة حاسة سادسة بها يحصل الإدراك والرؤية .

(ج) الرأيان السابقان يجعلان الإدراك والرؤية بمعنى واحد ، لكن قد يكون الإدراك رؤية إحاطة بجوانب الشيء ، ونهاياته وجميع حدوده ، والرؤية دون ذلك ، فهي أعم من الإدراك .

والآية نفت الإدراك وهو الأنحص ، ونفى الأنحص لا يلزم منه نفى الأعم ، نقول : رأيت البحر ولا نقول : أدركته .

والله تعالى لا يحيطون به علماً ، ولا تدركه الأبصار على الحقيقة الكاملة .

٣ - موسى في الميقات :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

في الزمان والمكان الذي عينه الله تعالى وحدده لموسى عليه السلام ، وقعت مفاجأة علوية قدسية ، ودار حوار حول الرؤية تمسك به المعتزلة وأهل السنة في تأييد مذهبهم ، وذلك من عدة جوانب :

(أ) سؤال موسى : ﴿ .. أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ... ﴾ .

(ب) جواب الله تعالى : ﴿ .. قَالَ لَن تَرَانِي ... ﴾ .

(ج) تعليق الرؤية على استقرار الجبل : ﴿ .. وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ... ﴾ .

(د) صبح موسى وتوبته : ﴿ .. وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

فكيف استدل الفريقان على مذهبهم ١٩

استدلال المعتزلة :

استدل المعتزلة على استحالة الرؤية من هذه الجوانب على النحو التالي :

* إن موسى عليه السلام لم يسأل الرؤية لنفسه ، فهو أجل من أن يجعل الله تعالى منظوراً إليه مقابلاً بحاسة النظر ، وهو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، والنظام وأبي الهذيل وجميع المتكلمين .

وإنما سأل موسى عليه السلام الرؤية ليكت سفهاء قومه الذين قالوا : أرنا الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك .. وأضاف الرؤية إلى نفسه لأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه كان غيره أولى بالإنكار ، ولأن الرسول إمام أمته فكل ما يخاطب به أو ما يخاطب راجع إليهم .

* ويرى الزمخشري أن « لا » تنفي المستقبل ، تقول : لا أفعل غداً ، فإذا أكدت نفيها قلت : لن أفعله غداً ، والمعنى أن فعله ينافي حالي .

فقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ نفى للرؤية في المستقبل ، وقوله تعالى : ﴿ لن تراني ﴾ تأكيد وبيان لأن النفي منافي لصفاته سبحانه ، فلن تشعر باستحالة النفي بها عقلاً ، كقوله تعالى : ﴿ .. لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ... ﴾ (١) .

* ويفسر الزمخشري اتصال قوله تعالى ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ بما قبله على معنى استحالة الرؤية فلا تطلبها يا موسى ولكن عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به ، وكيف أدكه دكاً بسبب طلبك الرؤية ، لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من علم أثره .

كأنه عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله تعالى : ﴿ .. وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ (٢) .

* ويذهب الزمخشري إلى أن الرؤية علقت على مستحيل ، وهو استقرار الجبل حال تحركه ، فتكون الرؤية مستحيلة .

(١) سورة الحج الآية : ٧٣ .

(٢) سورة مريم الآيات ٩٠ ، ٩١ .

فإن الله تعالى حقق الوعيد بالرجفة بسبب طلب الرؤية ، ثم جعل وجود الرؤية مشروطاً بمستحيل وهو استقرار الجبل حين يسويه بالأرض ويجعله دكاً ، فطالما تعلق العلم الإلهي بدك الجبل وتنفيذ الوعيد فلن يستقر الجبل ، لأن خلاف المعلوم الإلهي لا يقع تحت القدرة الإلهية .

وفسر الزمخشري تجلى الرب للجبل بتنفيذ الوعيد وتفتيت الجبل وتقطيعه وتسويته بالأرض .

« عندما أصبح الجبل دكاً أصابت القوم صاعقة الموت ، وغشى على موسى عليه السلام ، فلما أفاق من صعقته لجأ إلى الله منزهاً إياه عن الرؤية ، وتاب من إجراء الكلمة على لسانه حتى ولو كانت لغرض صحيح هو إقناع قومه ، وأكد موسى أنه أول المؤمنين بأن الله ليس بمبرئى ، ولا يدرك بشيء من الحواس ، وقد وصف موسى طالبي الرؤية بالسفه وعاب عليهم وتبرأ منهم : ﴿ .. قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ ^(١) .

* * *

استدلال أهل السنة :

استدل أهل السنة على جواز الرؤية بما يلي :

« إن موسى عليه السلام سأل الرؤية لنفسه ، وهو نبي مرسل يعلم ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق الله تعالى ، فلو كانت الرؤية مستحيلة لما سألها لنفسه ولا لغيره ، ولزجرهم عنها كما قال لهم : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ حين قالوا : ﴿ .. اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ^(٢) .

ولو كان موسى سألها لقومه لقال : أرهم ينظروا إليك ، ولجاء الرد بقوله : « لن يروني » .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٥٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٣٨ .

• قوله تعالى : ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ نفى لرؤية موسى لربه ، وليس نفياً للرؤية بالكلية ، ولو كانت الرؤية مستحيلة لقال « لا أرى » أو لست بمرئى .

وشبه الإمام الرازى هذا بمن يحمل فى يده حجراً ، فقال له إنسان : ناولنى هذا لآكله ، فإن الجواب : هذا لا يؤكل ، ولا يقال له : لا تأكله .

ولو كان فى يده بدل الحجر تفاحة لقال له : لا تأكلها ، أى هذا مما يؤكل ولكنك لا تأكله .

فلما قال تعالى : ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ ولم يقل : لا أرى ، علم أن هذا يدل على أنه تعالى فى ذاته جازى الرؤية .

ودعوى استحالة المنفى بكلمة « لن » مردودة بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَشْذَبُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾^(١) .

فخروج المنافقين للقتال مع رسول الله ﷺ ليس مستحيلاً عقلاً ، وقد خرجوا من قبل فى غزوة أحد ، وغزوة الخندق ، والذى منع من خروجهم فى غزوة تبوك هنا هو خبر الشرع ونهيه وليس استحالة العقل .

ولو كان المنفى بحرف « لن » مستحيلاً ما علق على شيء ، وقد قال الله تعالى على لسان كبير إخوة يوسف : ﴿.. فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٢) .

فلو كانت مفارقة أرض مصر مستحيلة عقلاً ما جاز تعليقها على إذن أبيه أو حكم الله له .. لأن المستحيل لا يقع مطلقاً .

• تعليق الرؤية على استقرار الجبل هو تعليق على ممكن وليس على مستحيل ، فإن استقرار الجبل بعد دكه أمر ممكن .

(١) سورة التوبة الآية : ٨٣ .

(٢) سورة يوسف الآية : ٨٠ .

وتجلى الرب للجبل هو الرؤية ، وتقريره أن الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى في هذه الدنيا بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى تفرقت أجزاؤه وصار بساً .
أما كيف يرى الجبل ؟! فهذا شيء متروك لقدرة الله تعالى الذى جعل الطير أبواباً مع داود ، وأنطق النملة مع سليمان .

* التوبة فى حق الأنبياء لا تستلزم كونها عن ذنب ، ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية من موسى عليه السلام - على إذن إلهى سابق كان أكمل ، وسيئات المقرين حسنات الأبرار .

٤ - لقاء الله :

جاءت آيات قرآنية تصف المؤمنين برجاء لقاء الله ، وتصف الكافرين بالتكذيب بلقاء الله ، أو أنهم لا يرجونه أو فى شك منه .

قال الله تعالى فى حق المؤمنين :

﴿ .. فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾^(١) .

وقال جل شأنه فى حق الكافرين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٢)
فيا ترى ماذا يعنى لقاء الله ؟

فهم المعتزلة :

يرى المعتزلة أن لقاء الله للمؤمنين هو لقاء الرضا والقبول ، وللكافرين هو لقاء الذل والهوان ، وأن التكذيب بلقاء الله هو الكفر ببلوغ الآخرة وما يتصل بها من حساب وجزاء .

(١) سورة الكهف الآية . ١١٠ .

(٢) سورة يونس الآيات : ٧ ، ٨ .

ويسوق الشيخ أبو جعفر الطوسي في معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أمرين :

أحدهما : لا يخافون عقابنا ، كما قال الهذلي :
إذا لسعت النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل^(١)
والثاني : لا يطمعون في ثوابها ، كما يقال : تاب رجاء لثواب الله ، وخوفاً من عقابه .

والملاقة وإن كانت لا تجوز إلا على الأجسام ، فإنما أضافها إلى نفسه ، لأن ملاقة ما لا يقدر عليه إلا الله بحسن أن يجعل لقاء الله تفضيماً لشأنه ، كما جعل إتيان الملائكة إتياناً لله ، في قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(٢) ، وإنما يريد وجاء أمر ربك .

فهم أهل السنة :

ساق الإمام الرازي في تفسيره الآيات التي تتحدث عن لقاء الله ، وجعلها ذات حجة قوية في ثبوت الرؤية ، وقال : اللقاء هو الوصول إلى الشيء .
وهذا في حق الله تعالى محال ، لكونه منزهاً عن الحد والنهاية .. فوجب أن يجعل مجازاً عن الرؤية .

وهذا مجاز ظاهر ، فإنه يقال : لقيت فلاناً إذا رأيته .. وحمله على لقاء ثواب الله يقتضي زيادة في الإضمار ، وهو خلاف الدليل^(٣) .

٥ - الحسنى وزيادة :

قال الله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٤) .

(١) لم يرج - أى لم يخف . (٢) سورة الفجر الآية : ٢٢ .

(٣) التفسير الكبير ، ج ١٧ ، ص ٤١ .

(٤) سورة يونس الآية . ٢٦ ، والقرن الفار الأسود .

فهم المعتزلة :

فسر الزمخشري الحسنى بالمشوبة الحسنى ، وفسر الزيادة بما يزيد على المشوبة ، وهو التفضل ، واستأنس بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ... ﴾ (١) .

ونقل عن بعض الصحابة والتابعين تفسيرات تؤيد مذهبه فقال :

- عن علي رضي الله عنه : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة .
- عن ابن عباس رضي الله عنهما : الحسنى الحسنة ، والزيادة عشر أمثالها .
- عن الحسن رضي الله عنه : عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .
- عن مجاهد رضي الله عنه : الزيادة مغفرة من الله ورضوان .
- عن يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة : فتقول : ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم .

ولعل مما يتأيد به رأى المعتزلة حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا ، وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك .. فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » (٢) .

وقد تهكم الزمخشري بأهل السنة ووصفهم بأنهم مشبهة ومجبرة ، ثم اتهمهم بأنهم جاءوا بحديث مرفوع يفسرون به الزيادة بأنها رؤية الله تعالى .

فهم أهل السنة :

رد ابن المنير على الزمخشري بأن تفسير الزيادة بالرؤية تفسير مستفيض منقول عن جملة من الصحابة ، وأن الحديث المروى فيه مدون فى الصحاح متفق على صحته .

(١) سورة النساء الآية : ١٧١ .

(٢) متفق عليه .

واعتمد ابن المنير أيضاً على باقى الآية : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ ، وأنه يصدق صحة هذا التفسير ، فإن فيه تنبيهاً على إكرام وجوههم بالنظر إلى الله تعالى ، فجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب .

وأكد الرازى فى تفسيره بأن الحسنى هى الجنة ، وأن الزيادة أمر مغاير للحسنى حتى لا يلزم التكرار ، فالآية تثبت للمؤمنين شيئين : الجنة ، والرؤية .

ويدعم هذا التفسير الحديث الشريف الذى رواه مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم » .

وفى رواية للترمذى وغيره : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد يا أهل الجنة : إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة .

٦ - النظر إلى الله تعالى :

قال الله جل شأنه : ﴿ أَوْجُوهٌ يَوْمَئِذٍ لَّأَضْرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۖ ﴾ ^(١) .

تفسير المعتزلة :

للمعتزلة وقفات مع هذه الآية الكريمة تتعلق بمدلول كلمة الوجوه ، ومعنى كلمة إلى ، ومفهوم النظر .

فالوجه عندهم عبارة عن الجملة والذات بأجمعها .

والى مفرد آلاء بمعنى النعم .

ويفرقون بين النظر والرؤية ، فالنظر هو تقليب الحدقة نحو المرئى التماساً لرؤيته .

(١) سورة القيامة الآيات ٢٢ ، ٢٣ .

وأهل اللغة يقولون : نظرت إلى الهلال فلم أراه ، فلو كان النظر بمعنى الرؤية لكان الكلام متناقضاً [رأيت الهلال فلم أراه] .

ويجعل أهل اللغة الرؤية غاية للنظر ، فيقولون : مازلت أنظر إلى فلان حتى رأيته ، ولا يجعل الشيء غاية لنفيه ، فلا يقال : مازلت أراه حتى رأيته .

ويقال لغة : دور بنى فلان متناظرة : أى متقابلة ولا يقال : إنها مترائية .. ثم إن الناظر يعلم ناظراً ضرورة ، ولا يعلم كونه رائياً إلا بسؤاله نفسه ، فيقال له : إنك نظرت فهل رأيت أو لا ؟

والنظر يوصف بما لا توصف به الرؤية ، يقال : نظر إليه نظراً شزرأ ، ونظر غضبان ، ونظر راض ، وذلك لأن حركة حدقة العين تدل على هذه الأحوال ، ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك .

وقد جاء في القرآن المجيد نفى نظر الله تعالى إلى الكافرين فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١) .

فالمنفى هنا هو نظر الرحمة وليس رؤية الله للكافرين فإنها حاصلة بداهة .

وقد أثبت القرآن النظر حال عدم الرؤية فقال : ﴿ .. وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾^(٢) .

فدل ذلك على أن النظر غير الرؤية .

والنظر لفظة مشترك بين معان كثيرة ، وقد يذكر ويراد به الانتظار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ .. فَانْظُرْ إِلَى مَيْسَرَةٍ ... ﴾^(٣) وقوله جل شأنه : ﴿ .. فَانْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾^(٤) ، وقوله سبحانه : ﴿ .. انْظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ ... ﴾^(٥) .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٩٨ .

(٤) سورة الملل الآية . ٣٥ .

(١) سورة آل عمران الآية : ٧٧ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٨٠ .

(٥) سورة الحديد الآية ١٣ .

وفى الشعر العربى نجد قول الشاعر المثقب العبدى أو الممزق :
فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غداً لناظره قريب
ويخلص المعتزلة إلى أن معنى الآية الكريمة ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أن المؤمنين ينتظرون
نعم الله وجزيل ثوابه ، ومزيد فضله الذى لا ينقطع ولا يمتنع ، وليس فى ذلك تنغيص ،
لأنه موثوق بوصوله إلى المنتظر ، ولا يحتاج إليه فى الحال فأمامه نعم لا تعد ولا تحصى .
والتنغيص إنما يكون عند عدم الثقة فى الوصول أو عند الاحتياج إليه فى الحال ،
والمؤمنون بخلاف ذلك .

ولو سلم المعتزلة - جدلاً - بأن النظر هو الرؤية فإنهم يفسرونها برؤية ثواب
الله وليس رؤية ذات الله ، فالثواب أنواع من اللذات المأكولة والمشروبة والمنكوحه ،
وكلها تصح رؤيتها .

تفسير أهل السنة :

رد الإمام الرازى على موقف المعتزلة بأن النظر المقرون بحرف إلى ، المعدى
للووجه ليس إلا بمعنى الرؤية ، أو بالمعنى الذى يستعقب الرؤية !!
ويرى أن حمل النظر على الرؤية أولى من حمله على الانتظار .

ويؤيد وجهة نظره هذه بأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة فى
الدنيا ، فلا بد وأن يحصل فى الآخرة شئ أزيد منه حتى يحسن ذكره فى معرض
الترغيب فى الآخرة .

٧ - الملك الكبير :

قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾^(١) .
هذه الآية الكريمة لم أكن أتصور أنها تتعلق بموضوع الرؤية ، لولا أن الإمام
الرازى ذكرها ، وعد الاستدلال بها أقوى من غيرها ، فقال فى معرض تعدادده لحجج
الرؤية عند أهل السنة :

(١) سورة الإنسان الآية ٢٠ .

التمسك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ فإن إحدى القراءات في هذه الآية (مَلِكًا) .. بفتح الميم وكسر اللام ، وأجمع المسلمون على أن ذلك الملك ليس إلا الله تعالى .. وعندى التمسك بهذه الآية أقوى من التمسك بغيرها ^(١) .

ذكر الرازي ذلك في تفسيره لسورة الأنعام ، ولما رجعت إلى تفسيره لسورة الإنسان لم أجد لهذا الرأي أثراً ، بل لم يتطرق إلى موضوع الرؤية مطلقاً ، وفسر (الملك الكبير) بما قد يكون اقتباساً من تفسير الزمخشري ، مع بسط وإيضاح .

قال الزمخشري : (كبيراً) واسعاً وهنيئاً ، يروى « إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ، يرى أقصاه كما يرى أدناه » .

وقيل : لا زوال له ، وقيل : إذا أرادوا شيئاً كان ، وقيل : يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم ^(٢) .

قارن هذا بما قاله الرازي فيما يلي :

فالملك الكبير الذى ذكره الله ههنا لا بد وأن يكون مغايراً لتلك اللذات الحقيرة (حب المال والجاه) ، وما هو إلا أن تصير نفسه منقشة بقدس الملكوت ، متحلية بجلال حضرة اللاهوت .

وأما ما هو على أصول المتكلمين ، فالوجه فيه أيضاً أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم ، فبين الله تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع ، ويّين في هذه الآية حصول التعظيم ، وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم .

وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طبيه ، ويقال : إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ، ويرى أقصاها كما يرى أدناه .

وقيل : لا زوال له ، وقيل : إذا أرادوا شيئاً حصل .

(١) التفسير الكبير ، ج ١٣ ، ص ١٣١ . (٢) الكشف ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .

ومنهم من حمّله على التعظيم ، فقال الكلبي : هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله ، وهو في منزله فيستأذن عليه ، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان^(١) .

وحاولت أن أرجع إلى كتب التفسير الأخرى فوجدت أن أكثر المفسرين لم يتعرضوا لموضوع الرؤية عند هذه الآية ، ولكن بعضهم أشار إليها إشارات عابرة ، فالعلامة النيسابوري قال :

وعن علي أنه قرأ (ملكاً كبيراً) بفتح الميم وكسر اللام ، وهو الله^(٢) .
والعلامة الألوسي ذكر الآراء في معنى (الملك الكبير) ، وعد منها أنه قيل : هو النظر إلى الله عز وجل^(٣) .
والعلامة ابن حبان قدم النظر إلى الله تعالى في أول الآراء في تفسير (الملك الكبير)^(٤) .

ويبدو - والله أعلم - أن تفسير (الملك الكبير) بالنظر والرؤية ليس وفقاً على قراءة « ملكاً » بفتح الميم وكسر اللام ، بل هو جار في كلتا القراءتين .

٨ - المحجوبون عن الله :

قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾^(٥) .

فهم المعتزلة :

يدور فهم المعتزلة للآية الكريمة على النحو التالي :

-
- (١) التفسير الكبير ، ج ٢٩ ، ص ٢٥٢ .
(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، على هامش جامع البيان في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ج ٢٩ ، ص ١٢٠ ، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية بيولاقي مصر المحمية ١٣٢٩ هـ .
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة السيد محمود الألوسي المتوفى ١٢٧٠ هـ ، ج ٢٩ ، ص ٢٠٣ .
(٤) البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٣٩٩ - طبعة النصر الحديثة بالرياض .
(٥) سورة المطففين الآيات : ١٥ - ١٧ .

١ - قال الجبائي : المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون : أى ممنوعون ، كما يُقال فى الفرائض : الإخوة يحجبون الأم عن الثلث ، ومن ذلك يقال لمن يمنع عن الدخول هو حاجب ، لأنه يمنع من رؤيته .

٢ - قال أبو مسلم : لمحجوبون : أى غير مقربين ، والحجاب الرد ، وهو ضد القبول والمعنى أن هؤلاء المنكرين للبعث غير مقبولين عند الله ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿.. وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١) .
٣ - قال القاضى : الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية ، فإنه قد يقال : حجب فلان عن الأمير ، وإن كان قد رآه من البعد .

وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال ، بل يجب أن يحمل على صيرورته ممنوعاً عن رحمة الله .

٤ - قال الزمخشري : كونهم محجوبين عن الله تمثيل للاستخفاف بهم ، وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم .. وساق هذا البيت :
إذا اعتروا باب ذى عُبيّة رُجبوا والناس من بين مرجوب ومحجوب^(٢)

فهم أهل السنة :

احتج أهل السنة على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بهذه الآية ، وقالوا : لولا ذلك لم يكن لتخصيص حجب الكافرين فائدة ، ثم إن الله تعالى ذكر هذا الحجاب فى معرض الوعيد والتهديد للكفار ، وما يكون وعيداً وتهديداً لا يجوز حصوله فى حق المؤمنين ، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب للمؤمنين .
وصرف الحجاب إلى الرحمة أو القول بأنه تمثيل للاستخفاف والإهانة هو عدول عن الظاهر من غير دليل .
وقال الإمام الشافعى : لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا .

(١) سورة آل عمران الآية : ٧٧ .

(٢) اعتروا : قصدوا ، العيبة : الكبر والنخوة ، رجبوا : عظموا ، والترحيب التعظيم ، والمرحوب المأذون له على الملوك لوجامته ، المحجوب : المنوع لمهاتته .

أحاديث الرؤية

رويت أحاديث كثيرة في صحيحى البخارى ومسلم وغيرهما ، استدل بها العلماء على إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ، وأكد الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم أن هذه الأحاديث رواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ (١) .

وذكر الشيخ ابن أبى العز الدمشقى فى شرحه للعقيدة الطحاوية أنه روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً ، ووصفها بأنها متواترة ، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن (٢) .

ونقتبس من صحيح مسلم ما يلى :

« عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .
عبر النبى ﷺ عن زوال المانع ورفعته عن الأبصار بإزالة الرداء على سبيل المجاز .
« عن صهيب عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » .

« عن عطاء بن يزيد الليثى أن أبا هريرة رضى الله عنه أخبره أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون (٣) فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : هل تضارون

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ، ص ١٥ - طبعة دار إحياء التراث الإسلامى - بيروت .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٠٩ - طبعة المكتب الإسلامى .

(٣) قال النووى : تضارون بتشديد الراء وبتخفيفها ، والتاء مضمومة فيهما ، ومعنى المشدد هل =

فى الشمس لىس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فإنكم ترونه كذلك .. الحديث » .

والتشبيه هنا تشبيه رؤية برؤية فى الوضوح وليس تشبيه مرئى بمرئى ، فإن الله تعالى لا يماثله شىء من خلقه .

هذا والنافون للرؤية لا يعوزهم فهم الأحاديث الواردة كفهمهم لآيات القرآن المجيد ، على حذف مضاف أو على سبيل المجاز ، وقد ذكر الزمخشري فى تفسيره لآية سورة الأعراف ﴿ أرئى أنظر إليك ﴾ أن هناك تفسيراً آخر هو :

عرفنى نفسك تعريفاً واضحاً جلياً كأنه إراءة فى جلائها - بآية مثل آيات القيامة التى تضطر الخلق إلى معرفتك ، أنظر إليك : أعرفك معرفة اضطرار كأنى أنظر إليك ، كما جاء فى الحديث : « سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » بمعنى ستعرفونه معرفة جليلة هى فى الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى ^(١) .

* * *

= تضارون غيركم فى حالة الرؤية نرحمة أو مخالفة فى الرؤية أو غيرها لحماة كما تفعلون أول ليلة من الشهر ، ومعنى الخفف هل يلحقكم فى رؤيته ضير وهو الضرر .

وروى أيضاً تضامون بتشديد الميم وتحفيفها ، فمن شددوها فتح التاء ، ومن خففها ضم التاء ، ومعنى المشدد هل تضامون وتتلطمون فى التوصل إلى رؤيته ، ومعنى الخفف هل يلحقكم صيم وهو المشقة والتعب ، وذكر أن بعض أهل اللغة يفتح التاء فى المشدد والمخفف ، وقد يصحها فيهما .

(١) الكشف ص ١١٦ ، ح ٢ - طبعة دار الفكر .

ولنا تعقيب

سلاح المعرفة :

اجتهد العلماء فى موضوع الرؤية ، واستخدموا فى جدلهم كافة فنون المعرفة ، وكان لفقہ اللغة والوضع العربى نصيب الأسد فى الاستدلال .
فدارت مناقشات حول مفهوم الإدراك والرؤية والنظر والحجاب ، والفرق بين النفسى بلا ، والنفسى بلى ، ومعنى رجاء لقاء الله .
وتدخل الشعر فى تحديد المراد ، وجاءت شواهد شعرية تؤيد هذا الفريق أو ذاك .

وساق الشيخ الطوسى هذا البيت :
وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن يأتى بالفلاح^(١)
للدلالة على أن النظر بمعنى الانتظار .
وللبيت رواية أخرى تقول :
وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا
وقد ردها الإمام الرازى وقال : هذا الشعر موضوع ، والرواية الصحيحة :
وجوه ناظرات يوم بكر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا
والمراد من هذا الرحمن مسيلمة الكذاب ، لأنهم كانوا يسمونه رحمن اليمامة ، فأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه التخلص من الأعداء^(٢) .

وساق الإمام الزمخشري البيت التالى :
وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدقنى نعماً^(٣)

(١) التبيان : ص ١٩٧ ، ج ٢٩ .

(٢) التفسير الكبير : ص ٢٢٦ ، ج ٣٠ .

(٣) الكشف : ص ١٩٢ ، ج ٤ .

والمعنى إذا رجوت عطاءك وأنت من الملوك والحال أن البحر أقل جوداً منك
زدتنى نعماً ، يريد معنى التوقع والانتظار والدعاء .

ونظم الزمخشري شعراً يتهم فيه بمبثى الرؤية فقال :
لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة هم لعمري موكفة
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة^(١)
وقد رد عليه ابن المنير قائلاً :

وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعد الله ما لن يخلفه
وتلقبوا عدلية ، قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهم سفة
وتلقبوا الناجين ، كلا إنهم إن لم يكونوا فى لظى فعلى شفه

* * *

هذا وقد تمسك العلماء فى جدلهم بقواعد المنطق ، وأحداث التاريخ ، وعلم
القراءات ، وعلم السنة .

فالمعلق على المستحيل مستحيل ، والمعلق على الجائز جائز ، فما المعلق عليه فى
قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ١٢

وهل النفى فى قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ لسلب العموم أو لعموم
السلب ١٢

وهل سأل موسى عليه السلام الرؤية لنفسه أو لقومه ١٢
وكيف نقرأ لفظ « ملكاً » فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا
كَبِيرًا ﴾ ؟

هل نقرأه بضم الميم وسكون اللام أو بفتح الميم وكسر اللام ١٢
وما المعنى المراد على كلا القراءتين ؟
وهل الزيادة فى قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ هى الرؤية بناء
على الحديث الوارد فى ذلك أو مزيد ثواب وعطاء ؟

(١) الكشاف : ص ١١٦ ، ج ٢ ، والموكفة هى الحمر عليها الرادع ، والبلكفة هم القائلون بإثبات
الرؤية بلا كيف .

وكان للاحتتمالات العقلية دور كبير فى هذا الجدل .. فلماذا أخذت الصاعقة بنى إسرائيل ؟ هل لسؤالهم الرؤية أو لتعتهم واعتراضهم على الله ؟
وم كانت توبة موسى عليه السلام عندما قال : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ ؟ هل تاب لأنه سأل أمراً مستحيلاً ، أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ؟

وإذا كان النظر مشتركاً لفظياً له عدة معان ، فما المراد منه والمرجع فى آية سورة القيامة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ ؟
وهكذا تتداعى الاحتمالات !!

خلاف لفظى :

إن هناك نقطة مهمة تتعلق بتحديد محل النزاع وطبيعة الخلاف ، فى ترى ماذا نفى المعتزلة ؟ وماذا أثبت أهل السنة ؟

لقد نفى المعتزلة الرؤية التى هى إدراك ببعض الحواس ، لأنها تصح فيما كان فى جهة وكان جسماً أو عرضاً ، وتعلق به شعاع البصر ، وهذا محال فى حق الله تعالى .
وأثبت أهل السنة الرؤية بلا كيفية ، وفسروها بإدراك أو علم مخصوص .

قال الإمام النووى : « مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى فى خلقه ، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئى ولا غير ذلك ، لكن جرت العادة فى رؤية بعضنا بعضاً بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط » (١) .

وذكر الإمام الرازى وجوهاً أربعة مستنبطة من آية سورة الأنعام ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ، يمكن التعويل عليها فى إثبات أن المؤمنين يرون الله فى القيامة .

وكان الوجه الرابع ما نقل أن ضرار بن عمرو الكوفى كان يقول :
« إن الله تعالى لا يرى بالعين ، وإنما يرى بحاسة سادسة يخلقها الله تعالى يوم القيامة ، واحتج عليه بهذه الآية فقال : دلت هذه الآية على تخصيص نفى إدراك الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ص ١٦ ، ج ٣ .

تعالى بالبصر ، وتخصيص الحكم بالشيء يدل على أن الحال في غيره بخلافه ، فوجب أن يكون إدراك الله بغير البصر جائزاً في الجملة ، ولما ثبت أن سائر الحواس الموجودة الآن لا تصلح لذلك ثبت أنه تعالى يخلق يوم القيامة حاسة سادسة بها تحصل رؤية الله تعالى وإدراكه .

وعلى هذا فإن النافين للرؤية والمثبتين لها يلتقون على نفى الرؤية البصرية المعروفة لنا وإن الإثبات والنفي في المسألة لم ينصبا على شيء واحد ، فيكون الخلاف - حيثئذ - خلافاً لفظياً ، وقد تنبه الإمام الشهرستاني من قبل إلى ذلك ، وساق اختلاف الفرقاء في مسألة الكلام والرؤية فقال :

المختلفان في مسألة الكلام ليسا يتواردان على معنى واحد بالنفي والإثبات .. فإن الذى قال : هو مخلوق ، أراد به أن الكلام هو الحروف والأصوات فى اللسان ، والرقوم والكلمات فى الكتابة ، قال : وهذا مخلوق .. والذى قال : ليس بمخلوق ، لم يرد به الحروف والرقوم ، وإنما أراد به معنى آخر . فلم يتواردا بالتنازع فى الخلق على معنى واحد .

وكذلك فى مسألة الرؤية فإن النافى قال : الرؤية إنما هى اتصال شعاع بالمرئى ، وهو لا يجوز فى حق البارى تعالى .

والمثبت قال : الرؤية إدراك أو علم مخصوص ، ويجوز تعلقه بالبارى تعالى .

فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد .. إلا إذا رجع الكلام إلى إثبات حقيقة الرؤية فيتفقان أولاً على أنها ما هى ؟ ثم يتكلمان نفيّاً وإثباتاً ، وكذلك فى مسألة الكلام يرجعان إلى إثبات ماهية الكلام ، ثم يتكلمان نفيّاً وإثباتاً ، وإلا فيمكن أن تصدق القضيتان ^(١) .

بعيد عن الأصول :

لو سلمنا جديلاً أن الخلاف فى مسألة الرؤية حقيقة ، فإن المسألة برمتها خارجة عن دائرة الأصول التى يتعلق بها الإيمان والكفر .

(١) الملل والنحل - تحقيق محمد سعد كيلانى ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

فلم يسأل رسول الله ﷺ أحداً الإيمان بها ، ولا كلفه ضرورة الإقرار بإثباتها أو نفيها .

وكل ما سيق من أدلة في هذا المجال هي أدلة ظنية ، تقوم على الأولى والأرجح والأقرب لفهم الفريق المجادل ، ولا علاقة لها باليقين الذي هو أساس الإيمان .

وتفسير النصوص الشرعية بما يؤيد الرؤية أو ينفيها له وجاهته الشرعية واللغوية ، وعملية الترجيح تقوم على التذوق العقلي والحسي الديني ، وقد نرجح أحياناً جانب النفي ، وقد نميل حيناً إلى جانب الإثبات .

وكان للإمام الرازي تعبيرات ذات دلالة ومغزى في هذا المجال ، ففي آية سورة القيامة مثلاً قال : إن حمل النظر على الرؤية أولى من حمله على الانتظار !!

وإن مسألة العدول عن الظاهر التي رُمي بها المعتزلة في فهمهم لكثير من آيات الاستدلال - هي مسألة نسبية ، فالظاهر ليس حجة دائماً ، وفي مواضع عدة عدل أهل السنة عن الظاهر ، كما في آيات الصفات الخبرية .

أما كون العدول عن الظاهر لدليل أو غير دليل فهذا هو بيت القصيد ومحل النزاع ، ولا أحد من الفريقين يعدل عن الظاهر إلا لدليل يراه وحجة يتبناها .

والقول بأن أحاديث الرؤية متواترة غير مسلم ، فهي كلها أحاديث آحاد باتفاق المحدثين ، لكنها قد تلتقى على معنى واحد هو إثبات الرؤية عند القائلين بها ، فتكون من المتواتر المعنوي وليس من المتواتر اللفظي الذي يعز وجوده في السنة .

ثم إن هذا المعنى الذي التقت عليه الأحاديث عند القائلين بإثبات الرؤية هو محل النزاع فكيف يكون متواتراً ، فضلاً عن كونه مسلماً ١٢

وقد قلت من قبل : إن النافين للرؤية لا يعوزهم فهم الأحاديث الواردة كفهمهم لآيات القرآن المجيد ، على حذف مضاف أو على سبيل المجاز .

وحين تعدد التأويلات والاحتمالات فلا يقين ولا قطع وتظل المسألة خاضعة للاجتهاد !!

* * *

على هامش الرؤية

١ - الرؤية في الدنيا :

هناك شبه إجماع لدى أهل السنة على أن الرؤية لم تقع لأحد في الدنيا قبل سيدنا محمد ﷺ .

واختلفوا في وقوعها لسيدنا محمد ليلة الإسراء والمعراج ، وقد ظهر هذا الخلاف مبكراً منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم ، فهناك موقف للسيدة عائشة رضي الله عنها ينفي هذه الرؤية تماماً ، وهناك مذهب لابن عباس رضي الله عنهما يثبت هذه الرؤية ، والعلماء منقسمون بين الموقف والمذهب .

موقف السيدة عائشة :

من المعروف لدى علماء الحديث أن هناك رواية عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، خرجها البخاري في صحيحه ، تحوى أوهاماً أنكرها عليه العلماء ، منها :

- ١ - أن الإسراء وقع مناماً .
- ٢ - أن الإسراء كان قبل أن يوحى إليه .
- ٣ - أن الجبار عز وجل ، رب العزة تبارك وتعالى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما شاء الله .

وقد نقل الإمام النووي عن القاضي عياض قوله :

« وقد جاء في رواية شريك في هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء ، وقد نبه مسلم على ذلك بقوله : فقدم وأخر ، وزاد ونقص »^(١) .

وقال الإمام ابن كثير :

« وقوله في حديث شريك عن أنس .. ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر ..

(١) صحيح مسلم شرح النووي ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

معدود في غلطات شريك أو محمول على أن الانتقال من حال إلى حال يسمى يقظة^(١) .

ويقول أيضاً : « وأما قول شريك عن أنس في حديث الإسراء .. ثم دنا الحبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى .. فقد يكون من فهم الراوى فأقحمه في الحديث .. والله أعلم »^(٢) .

أما موقف السيدة عائشة رضی الله عنها فقد رواه مسلم بسنده عن الشعبي عن مسروق^(٣) قال :

« كنت متكئاً عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .. قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي ، ألم يقل الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمِينِ ﴾^(٤) ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾^(٥) ؟

فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ، ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض .

فقالت : أو لم تسمع أن الله يقول : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(٦) ١٩

أولم تسمع أن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيَا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾^(٧) .

(١) ، (٢) السيرة النبوية - تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ، ح ٢ ، ص ١٠٠ ، ١٠٤ .
(٣) سمي مسروقاً لأنه سرقه إنسان في صغره ثم وجد ، وهو مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية همداني كوفي ، وكان لمسروق بنت تسمى عائشة .

(٤) سورة التكوين الآية : ٢٣ .

(٥) سورة النجم الآية : ١٣ .

(٦) سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

(٧) سورة الشورى الآية : ٥١ .

قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ... ﴾ (١) .

قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ قُلْ لَا يَغْلِبُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبِ إِلَّا اللَّهُ ... ﴾ (٢) .
وفي رواية :

قالت : ولو كان محمد ﷺ كاتباً شيئاً مما أنزل عليه لكتب هذه الآية .. ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ... ﴾ (٣) .
وفي رواية :

سألت عائشة : هل رأى محمد ﷺ ربه ؟
فقالت : سبحان الله ، لقد قف (٤) شعري لما قلت !!
وإذا كان هذا موقف السيدة عائشة ، فما تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ؟

وهنا نسوق وجوها ذكرها الإمام الرازي هي :
أحدها : إن جبريل دنا من النبي ﷺ ، أي بعد ما مدَّ جناحه وهو بالأفق ، عاد إلى الصورة التي يعتاد النزول عليها ، وقرب من النبي ﷺ .
وعلى هذا ففي « تدلى » ثلاثة وجوه :

- ١ - فيه تقديم وتأخير ، تقديره ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ .
- ٢ - الدنو والتدلى بمعنى واحد ، كأنه قال : دنا فقرب .

(١) سورة المائدة الآية ٦٧ . (٢) سورة السمل الآية : ٦٥ .
(٣) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ ، والذي أخفاه الرسول وأنداه الله هو قوله تعالى ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، .
(٤) قام شعري من الفزع وهول المقالة .

٣ - دنا أى قصد القرب من محمد ﷺ ، وتحرك عن المكان الذى كان فيه فتدلى فنزل إلى النبی ﷺ .

الثانى : أن محمداً ﷺ ﴿ دنا ﴾ من الخلق والأمة ، ولأن لهم ، وصار كواحد منهم ﴿ فتدلى ﴾ أى فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ .

وعلى هذا ففى الكلام كمالان :
كأنه تعالى قال : إلا وحى يوحى جبريل على محمد ، فاستوى محمد وكمل ، فدنا من الخلق بعد علوه ، وتدلى إليهم وبلغ الرسالة .

الثالث : وهو ضعيف سخيف ، وهو أن المراد منه هو ربه تعالى ، وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان .

اللهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة ، وعلى هذا يكون منه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى : « من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن مشى إلى أتيته هرولة » ، إشارة إلى المعنى المجازى .. » (١) .

وهناك استدلال طريف مؤيد لموقف السيدة عائشة ، مأخوذ من ختام آية الإسراء وآية النجم ..

ففى آية سورة الإسراء قال تعالى ﴿ لَثَرِيَّةٌ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ .

وفى آية سورة النجم قال جل شأنه ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ فالملحوظ أن الآيتين أثبتتا رؤية الآيات فى رحلة الإسراء والمعراج ، ولم تشيرا إلى رؤية الله تعالى ، فلو وقعت رؤية الله سبحانه لكانت أولى بالتسجيل والتنبيه والإشارة .. بل يذهب بعض العلماء إلى أهمية تفسير آيات سورة النجم برؤية جبريل الأمين فيقول :

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى ، وإن كانت

(١) التفسير الكبير ص ٢٨٦ ج ٢٨ .

رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى ، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها (أى رؤية الله)
عليهما ألبتة ^(١) .

وجاءت أحاديث مؤيدة لموقف السيدة عائشة ، منها ما رواه مسلم فى صحيحه
بسنده عن أبى ذر قال :

سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنى أراه ؟ .

وفى رواية عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيت رسول الله
ﷺ لسألته ، فقال : عن أى شىء كنت تسأله ؟

قال كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟

قال أبو ذر : قد سألت فقال : رأيت نوراً ..

وفى شرح الإمام النووى نقل عن الإمام المازرى قوله :

الضمير فى « أراه » عائد على الله سبحانه وتعالى ، ومعناه أن النور منعنى من
الرؤية ، كما حرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين
الرائى وبينه .

وقوله ﷺ : « رأيت نوراً » معناه رأيت النور فحسب ولم أر غيره .

وقد فسر النور بالحجاب فى حديث آخر « حجاب النور » فيكون الرسول ﷺ
رأى الحجاب الذى هو النور ، وقد منعه ذلك من رؤية الرب عز وجل .. ^(٢) .

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية للشيخ ابن أبى العز الدمشقى ص ٢١٤ ط المكتب الإسلامى
سنة ١٣٩٩ هـ .

(٢) راجع صحيح مسلم بشرح النووى ص ١٢ ج ٣ .

مذهب ابن عباس

جاءت روايات عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبی ﷺ رأى ربه ،
واختلفت هذه الروايات فى آلة الرؤية :

فقل إنه رآه بعينه ، وقيل إنه رآه بقلبه وفؤاده .

وقال ابن عباس : إن الله تعالى اختص موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلة ،
ومحمداً بالرؤية .

وكان الحسن يحلف لقد رأى محمد ﷺ ربه .

وحكى عن أحمد بن حنبل أنه قال : وأنا أقول بحديث ابن عباس بعينه ، رآه ،
رآه ، حتى انقطع نفسه يعنى نفس أحمد .. وفى رواية أخرى قال أحمد : رآه بقلبه ،
وجبن عن القول برؤيته فى الدنيا بالأبصار ..

وحاول بعض العلماء ترجيح رأى ابن عباس بما يلى :

- ١ - ابن عباس حبر هذه الأمة وترجمان القرآن .
- ٢ - إن هذا العلم لا يدرك بالعقل ولا بالرأى ولا بعلم إلا عن طريق النبوة .
- ٣ - ابن عباس أثبت الرؤية ، وعائشة نفتها ، والمثبت مقدم على النافى .
- ٤ - عائشة لم تنف الرؤية بحديث سمعته من رسول الله ﷺ وإنما اعتمدت
الاستنباط من الآيات ، وهو محل نظر وللعلماء عليه أجوبة ..

وكان معمر بن راشد يقول : ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس .. !! بل إن
ابن خزيمة ادعى أن السيدة عائشة قالت : « فقد أعظم على الله الفرية » فى وقت
غضب ، ولو أنها عبرت بلفظة أحسن منها لكان أجمل بها ^(١) .

(١) راجع الشفا تعريف حقوق المصطفى للقاصى عياض ص ١٩٥ ، ج ١ - ط دار الكتب
العلمية ، وصحيح مسلم بشرح النووي ص ٥ ج ٣ ، والتوحيد لابن خزيمة ص ١٩٧ تحقيق د . محمد
خليل هراس - ط مكتبة الكليات الأزهرية .

وهذه الترجيحات ليست راجحة ، ولا ترقى إلى مستوى القبول لموقف السيدة عائشة لما يلي :

١ - عائشة أم المؤمنين ، لازمت الرسول ﷺ في حضره وسفره ، في صحته ومرضه ، وكافة أحواله كلها ، وعرفت الكثير من خفايا حياة المصطفى ، ولها قدم صدق في فقه الإسلام ..

وكان ابن عباس رضى الله عنهما غلاماً حدثاً على عهد رسول الله ﷺ ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ..

٢ - إن مذهب ابن عباس لا يعتمد على نص صريح مرفوع إلى الرسول ﷺ ، ولعله فهم من ابن عباس واجتهاد ، فهو لم يُسند به إلى النبي ﷺ .. ودعوى أن مذهب ابن عباس في الرؤية لا يعلم إلا عن طريق النبوة دعوى مرفوضة فإن الاجتهاد في فهم النصوص أمر وارد وواقع لدى الصحابة ..

وكيف يقال إن موقف السيدة عائشة رضى الله عنها اجتهاد ولا يقال مثله في مذهب ابن عباس ١٩

٣ - إن الزعم بأن السيدة عائشة رضى الله عنها لم تؤيد رأيها بحديث سمعته من رسول الله ﷺ زعم باطل .. فقد قالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيت من هبطاً من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض .

ثم إن الأحاديث الصحيحة الواردة تؤيدها مثل روايات أبي ذر حين سأل رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنى أراه » .

٤ - إن مسألة أن المثبت مقدم على النافي لا محل لها هنا فإن المثبت للرؤية لا دليل معه ولا نص يؤيده ، أما النافي فمعه النص المرفوع الصريح ، ومعه الرأي والاجتهاد فيكون النافي مقدماً ..

* * *

٢ - رؤية الله تعالى مناماً

اتفق المثبتون للرؤية على أنها لم تقع في الدنيا لأحد قبل سيدنا محمد ﷺ ثم اختلفوا في حصولها للرسول ليلة الإسراء والمعراج ، ولما جاء الكلام على رؤية الله تعالى مناماً حكوا الاتفاق على جوازها ووقوعها حتى ولو كانت على صفة لاتليق ، وأنخصموها للتأويل والتعبير ..

جاء ذلك خلال شرحهم لحديث رسول الله ﷺ .. « من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي » .

ونقل الإمام النووي مايلي :

قال القاضي : واتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام وصحتها ، وإن رآه الإنسان على صفة لاتليق بحاله من صفات الأجسام ، لأن ذلك المرئي غير ذات الله تعالى ، إذ لايجوز عليه سبحانه وتعالى التجسم ولا اختلاف الأحوال ، بخلاف رؤية النبي ﷺ ..

قال ابن الباقلاني : رؤية الله تعالى في المنام خواطر في القلب ، وهي دلالات للرائي على أمور مما كان أو يكون كسائر المرئيات .. والله أعلم ^(١) .

ونبه الإمام ابن حجر العسقلاني إلى ذلك فقال :

جوز أهل التعبير رؤية الباري عز وجل في المنام مطلقاً ، ولم يجروا فيها الخلاف في رؤيا النبي ﷺ ، وأجاب بعضهم عن ذلك بأمور قابلة للتأويل في جميع وجوهها ، فتارة يعبر بالسلطان ، وتارة بالوالد ، وتارة بالرئيس في أى فن كان ..

فلما كان الوقوف على حقيقة ذاته ممتنعاً ، وجميع من يعبر به يجوز عليهم الصدق والكذب ، كانت رؤياه تحتاج إلى تعبير دائماً ، بخلاف النبي ﷺ ، فإذا رأى على صفته المتفق عليها ، وهو لا يجوز عليه الكذب ، كانت في هذه الحالة حقاً محضاً لا يحتاج إلى تعبير ..

وقال الغزالي : ليس معنى قوله « رآني » أنه رأى جسمي وبدني ، وإنما المراد أنه

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٥ ، ص ٢٥ .

رأى مثلاً ، صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذى فى نفسى إليه ، وكذلك قوله « فسيرانى فى اليقظة » ، ليس المراد أنه يرى جسمى وبدنى ، والآلة تارة تكون حقيقية ، وتارة تكون خيالية ، والنفس غير المثال المتخيل ، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ولا شخصه ، بل هو مثال له على التحقيق .

ومثل ذلك من يرى الله سبحانه وتعالى فى المنام ، فإن ذاته منزهة عن الشكل والصورة ، ولكن تنتهى تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره ، ويكون ذلك المثال حقاً فى كونه واسطة التعريف ، فيقول الرائي رأيت الله تعالى فى المنام ، لا يعنى أنى رأيت ذات الله تعالى كما يقول فى حق غيره .

وقال أبو القاسم القشيري ما حاصله :

إن رؤياه على غير صفته لا تستلزم أن لا يكون هو ، فإنه لو رأى الله على وصف يتعالى عنه ، وهو يعتقد أنه منزّه عن ذلك - لا يقدح فى رؤيته بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأويل - كما قال الواسطى : من رأى ربه على صورة شيخ كان إشارة إلى وقار الرائي ، وغير ذلك ^(٢) .

ولعل هذه التشقيقات والافتراضات تتلمس من حديث تعددت طرقه ، منها :

« احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نترأى عين الشمس ، فخرج سريعاً ، فتوب بالصلاة فصلى رسول الله ﷺ وتجاوز فى صلاته ، فلما سلم دعا بصوته .

فقال لنا : على مصافكم كما أنتم ، ثم انفتل إلينا فقال : أما إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة ..

إنى قمت من الليل فتوضأت فصليت ماقدّر لى ، فنعست فى صلاتى فاستثقلت ، فإذا بربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة ، فقال : يا محمد ، قلت : رب لييك ، قال : فيم يختصم الملائ الأعلى ؟

قلت لا أدري رب ، قالها ثلاثاً .

(١) فتح البارى بشرح البحارى ج ١٦ ص ٤٣ ط الحلبي سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٥٩ م .

قال : فرأيتَه وضع كفه بين كتفي ، فوجدت برد أنامله بين ثديي ، فتجلى لى كل شيء وعرفت ..

فقال : يا محمد ، قلت : لبيك رب .

قال : فيم يختصم الملائ الأعلئ ؟

قلت : فى الكفارات . قال : ما هن ؟

قلت : مشئ الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس فى المساجد بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء فى المكروهات .

قال : ثم فيم ؟ . قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة بالليل والناس نيام .

قال : سل ، قلت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت فتنة فى قوم فتوفنى غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك .

قال رسول الله ﷺ : إنها حق فادرسوها ثم تعلموها .

ونحن أمام هذا الحديث نضع مجموعة ملاحظات :

أولاً : علماء السنة مجمعون على أن رؤية الله تعالى يقظة لم تقع لأحد فى الدنيا قبل سيدنا محمد ﷺ ، بل لم تقع لأحد مطلقاً كما هو رأى السيدة عائشة ، فكيف نتصور وقوعها مناماً ؟ .

فإذا إضفنا ما فى هذه الروايات من رؤية الرب تبارك وتقدس على أحسن صورة أو على صورة شاب ، ووضع الكف وبرد الأنامل ^(١) كان التوقف فى قبولها راجحاً .

ثانياً : إن الحديث يبدو أنه مقلوب المعنى ، فهو يثبت أن الله تعالى هو السائل وأن الرسول هو المجيب ، والشأن الصحيح أن يكون الرسول سائلاً ربه عما يجرى فى الملائ الأعلئ ..

(١) راجع الروايات فى . « مجمع الروائد ومنبع الفرائد » للإمام الهيثمى ج ١ ، ص ٢٣٧ ، وج ٧ ، ص ١٧٦ ، طعة دار الكتاب العربى .

ومما يؤكد الاضطراب في هذا الحديث أن الدعاء المذكور في آخره ينسب مرة إلى الله تعالى تعليماً لرسوله ، وينسب أخرى إلى الرسول تضرعاً إلى مولاه .. ففي رواية للترمذى عن ابن عباس : « وقال : يا محمد ، إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات .. إلخ » .

وفي رواية لأحمد عن بعض أصحاب النبي ﷺ : « وقال : يا محمد ، إذا صليت فقل اللهم إني أسألك الطيبات .. إلخ » .

وفي رواية للترمذى عن معاذ بن جبل : « قال : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات .. إلخ » .

ويضاف إلى ذلك اضطراب آخر ، وهو هل وقعت هذه الرؤية مناماً أم يقظة ؟ وهل كانت في صلاة أم لا ؟

ففي رواية الترمذى عن ابن عباس قال : « أحسبه قال في النوم » .

وفي رواية الترمذى عن معاذ قال : « فنعست في صلاتي فاستثقلت فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة » .

وفي رواية لأحمد : « فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة .. » .

وذهب بعض الشراح إلى أن رواية (حتى استيقظت) تصحيف ، وأن المحفوظ هو (حتى استثقلت)^(١) .

ثالثاً : بعض المفسرين ساق هذا الحديث تفسيراً للآية الكريمة : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

والحديث والآية بينهما بون شاسع ، فالآية تثبت الوحي للنبي ﷺ بإعلامه بالغيب الذي أوحاه الله تعالى إليه في شأن آدم واختصام الملائكة حول خلقه وأمر الله لهم بالسجود ، ولنقرأ ما قبلها وما بعدها : ﴿ قُلْ هُوَ تَبَّأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ

(١) راجع : (تحفة الأحودى شرح جامع الترمذى) - تحقيق الدكتور عبد الوهاب عبد اللطيف ، ج ٩ ، ص ١٠٢ .

مُغْرَضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالسَّمَلِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَلَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١﴾ .

والحديث يتعلق بالوضوء والصلاة والحسنات .. فما العلاقة بينهما ؟!

وقد تفتن الإمام ابن كثير لذلك فقال : (وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن ، فإن هذا (أى المذكور في الحديث) قد فُسر ، وأما الاختصاص الذى فى القرآن فقد فُسر بعد هذا ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ... ﴾ (١) .

٣ - أنواع الرؤية :

ذكر الإمام ابن خزيمة أنواعاً للرؤية واستدل عليها ، وجمعها تحت عناوين ، هى :

١ - بيان أن جميع أمة النبى ﷺ ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم ومنافقهم ، وبعض أهل الكتاب يرون الله عز وجل يوم القيامة .

يراه بعضهم رؤية امتحان لا رؤية سرور وفرح وتلذذ بالنظر فى وجه ربهم عز وجل ، ذى الجلال والإكرام .

وهذه الرؤية قبل أن يوضع الجسر بين ظهري جهنم ، ويخص الله عز وجل أهل ولايته من المؤمنين بالنظر إلى وجهه نظر فرح وسرور وتلذذ .

واستشهد ابن خزيمة على ذلك بحديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : سألت رسول الله ﷺ قلنا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون فى القمر ليلة البدر ، ليس دونه سحاب ؟! قلنا : لا .

قال : فإنكم ترون ربكم عز وجل كذلك يوم القيامة .

قال : يقال من كان يعبد شيئاً فليتبعه .

فيتبع الذى كانوا يعبدون الشمس - الشمس ، فيتساقطون فى النار ، ويتبع الذين كانوا يعبدون القمر - القمر ، فيتساقطون فى النار ، ويتبع الذين كانوا يعبدون

(١) سورة ص ، الآيات : ٦٧ - ٧٢ . (٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

الأوثان - الأوثان ، والأصنام - الأصنام ، وكل من كان يعبد من دون الله ، فيتساقطون في النار .. ويبقى المؤمنون ومنافقوهم بين أظهرهم وبقايا أهل الكتاب ، يقللهم بيده ، فيقال لهم : ألا تتبعون ما كنتم تعبدون ؟

فيقولون : كنا نعبد الله ولم نر الله ، فيكشف^(١) عن ساق فلا يبقى أحد كان يسجد لله إلا خر ساجداً ، ولا يبقى أحد كان يسجد رياء وسمعة إلا وقع على قفاه ، ثم يوضع الصراط بين ظهري جهنم ... الحديث « رواه البخاري ومسلم .

٢ - بيان أن جميع المؤمنين يرون الله يوم القيامة مخليا به عز وجل .. وساق حديث أبي رزين قال : « قلت : يا رسول الله أكلنا نرى الله مخليا به ؟ قال : نعم ، قال : وما آية ذلك في خلق الله ؟ قال : أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر ، وإنما هو خلق من خلق الله ، والله أجل وأعظم » رواه أبو داود .

٣ - بيان رؤية الله التي يختص بها أوليائه يوم القيامة والتي ذكر الله في قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

قال ابن خزيمة : ويفضل بهذه الفضيلة أوليائه من المؤمنين ، ويحجب جميع أعدائه كما أعلم في قوله : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ .

وهذا نظر أوليائه الله إلى خالقهم جل ثناؤه بعد دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيزيد الله المؤمنين كرامة وإحساناً إلى إحسانه تفضلاً منه وحوذاً بإذنه إياهم النظر إليه ويحجب عن ذلك جميع أعدائه^(٢) .

ونخلص من ذلك إلى أن الرؤية يوم القيامة على ثلاثة أنواع هي :

١ - رؤية جميع أهل المحشر لربهم رؤية امتحان وهول حتى يتمايز عبدة الطاغوت .

٢ - رؤية جميع المؤمنين في خلوة مع ربهم حتى يتمايز المنافقون ويضرب بينهم وبين الصادقين بسور .

٣ - رؤية أوليائه الله في الجنة وهي رؤية السرور والنعيم والكرامة .

(١) يضم الياء وفتحها ، والتعير استخدمه العرب للشدة والهول ، وللعلماء فيه أفهام سبق شرحها في مبحث الصفات .

(٢) التوحيد لاس خزيمة ص ١٢٧ - ١٩٠ .

الفصل الرابع

القضاء والقدر

- * في البيان القرآنى .
- * الإيمان بالقضاء والقدر .
- * النشأة التاريخية :
 - موقف المشركين .
 - موقف المنافقين .
 - موقف الصحابة .
- * نظرة مذهبية :
 - محل النزاع .
 - الجبرية .
 - القدرية .
 - المعتزلة .
 - الأشاعرة .
- * جدل مذهبى .
- * بعيداً عن المذاهب .
 - الجبر مرفوض .
 - الأمر مقدور .
 - مسير ومخير .
 - الكونى والشرعى .
 - الخير والشر .
 - التفسير القرآنى .

القضاء في البيان القرآنى

جاءت مادة القضاء فى القرآن المجيد على معان شتى نسوق منها ما يلى :

١ - قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ... ﴾ ^(١) .

والمعنى إذا أدبتم مناسك الحج وفرغتم منها فلا تنسوا ذكر الله على كل حال ، ولا تنقطع ألسنتكم وقلوبكم عن الشئ على الله تعالى بما هو أهله .

وكان الناس فى الجاهلية يتخذون مواقف فى الحج للفخر بالآباء وذكر المكرمات الخاصة بهم فنهوا عن ذلك ، ودعاهم القرآن إلى الاتصال الدائم بالله عز وجل وذكر محامده والتسبيح بجلاله وكماله .

٢ - قال الله جل شأنه : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَلَيْسَ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ^(٢) .

تعلق هذه الآية الكريمة بقصة مريم عليها السلام ، حين فوجئت بالملك يبشرها بمولود ولم تكن متزوجة وليست بغيا ، ولما تعجبت أخبرها الملك أن الله تعالى إذا أراد شيئا وقع بقدرته بلا موانع ولا معوقات .

٣ - قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ ^(٣) .

فالله تعالى خلق الإنسان الأول من طين مباشرة وخلق ذريته من سلالة من ماء

(١) سورة البقرة الآية : ٢٠٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٤٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٢ .

مهيّن ، يستخلص من الأغذية التي تنتهي إلى الطين ، وقد حدد الله تعالى لهذا الإنسان أجلاً لا يتقدمه ولا يتأخر عنه ، والأجل الأول في الآية هو عمر الإنسان ، والأجل الثاني هو عمر الدنيا .

٤ - قال الله جل شأنه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ ^(١) .

وتتعلق الآية بقصة سيدنا لوط عليه السلام حين أعلمه الله علماً جازماً بالحكم القاطع الذي يلحق قومه وهو استئصال شأفتهم في وقت الصباح .

٥ - قال الله سبحانه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ^(٢) .

تؤكد الآية الكريمة أن الله تعالى سجل في التوراة وأعلم بني إسرائيل على لسان نبيهم في الوحي المنزل إليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين يكون الإفساد فيهما كبيراً ومدمراً ، ثم تكون عاقبة أمرهم خسراً .

٦ - قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ﴾ ^(٣) .

والمعنى أن الله جل شأنه أمر أمراً مقطوعاً به ، ووصى توصية جازمة ، وحكم حكماً شرعياً أنه لا يعبد أحد سواه ، وأن يعامل الأبوان بالإحسان والبر والمعروف .

٧ - قال جل شأنه : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ ^(٤) .

والمعنى أن يزيل الحجاج ما من شأنه أن يزال من حلق الشعر وقص الأظفار ونحو ذلك مما يتعلق بالبدن أو الثوب من جراء أداء المناسك والالتزام بمحظورات الإحرام ،

(١) سورة الحجر الآية : ٦٦ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٤٠ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ٢٣ .

(٤) سورة الحج الآية : ٢٩ .

وبعد أداء المناسك يتحلل الحاج ويعود سيرته الأولى في المأكل والملابس وغيرها .

٨ - قال الله تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْتِي وَبَيْتَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾^(١) .

تتعلق الآية الكريمة بقصة موسى عليه السلام حين ذهب إلى مدين والتقى هناك بالشيخ الكبير الذي عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانى سنوات أو عشرأ ، فقبل موسى عليه السلام العرض والأجر ، دون أن يحدد مدة من هاتين المدينتين ، وجعل لنفسه فسحة في أن يختار إحداهما يؤديها دون لوم عليه .

٩ - قال الله سبحانه : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾^(٢) .

تؤكد الآية ولاء المؤمنين الصادقين لله ورسوله ، وتضحياتهم المتواصلة لنصرة هذا الدين الخالد ، فمنهم من مات شهيداً ، ومنهم من ينتظر الشهادة في ثبات وإقدام .

١٠ - قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾^(٣) .

فالمؤمنون والمؤمنات يلتزمون إلزاماً كاملاً وأميناً بحكم الله ورسوله لا يسعهم مخالفته ولا تتعلمل قلوبهم في حكمته ، فمتى حكم الله ورسوله حكماً فالطاعة واجبة والتسليم فريضة .

١١ - قال الله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأُوحِيَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرٌهَا ... ﴾^(٤)

(١) سورة القصص الآية . ٢٨ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢٣ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٣٦ .

(٤) سورة فصلت الآية ١٢ .

والمعنى أن الله جل شأنه فرغ من خلق السموات على شموخها واتساعها ودقة
إحكامها فى يومين اثنين فقط ، وأودع فى كل سماء ما يخصها من نواميس .

١٢ - قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِغَيَا بَيْنَهُمْ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾^(١) .

لقد اختلف الناس وكفروا وبأيديهم معالم الهدى من الوحي المنزل ، ولولا أن
الله جلّت حكمته سبقت كلمته بإنظار العباد وإمهالهم وعدم مؤاخذتهم فور وقوع
المعصية لحكم بينهم فى الدنيا ولعجل لهم العقوبة ولأنفذ فيهم حكمه العادل .
وهكذا فالقضاء فى البيان القرآنى يدور حول الحكم بالشيء ، وأدائه ، والفراغ
منه ، وتقديره ، والإعلام به .

* * *

(١) سورة الشورى الآية . ١٤ .

القدر في البيان القرآني

وردت مادة القدر في القرآن المجيد على عدة معان نسوق منها ما يلي :

١ - قال الله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(١) .

فتبيح هذه الآية الكريمة الطلاق بعد العقد على المرأة وقبل الدخول بها ، ولما كان الطلاق يترتب عليه آلام نفسية للمرأة مهما كانت الأسباب ، فقد شرع الله للمرأة متعة مالية يقدرها القاضي بحسب حال الزوج ، على الغنى بقدر غناه ، وعلى الفقير بقدر فقره ، وهذه المتعة تأخذها المرأة زيادة على ما تستحقه من نصف مهر مثلها ^(٢) .

٢ - قال الله جل شأنه : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ ^(٣) فالمطر ينزل من السحاب فيأخذ كل واد بحسبه كبيراً كان أو صغيراً .

٣ - قال الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ ^(٤) .

فالرزق يساق للإنسان تبعاً للحكمة الإلهية ، فقد يوسع الله العطاء للإنسان وقد يضيق على آخر ، ولا يظن أحد أن كثرة العطاء أو قلته مناط لتكريم الإنسان أو إهانته ، والكافر هو الذي يفرح فرح الكبير والأطر بما منحه الله من أموال ، وينسى أن هذا استدراج وإمهال ، ثم إن حقيقة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة لا تمثل إلا هامشاً وشيئاً غير معتد به .

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٦ .

(٢) هذا رأي حماد بن أبي سليمان - كما حكى القرطبي في تفسيره - لكن جمهور العلماء على أن المطلقة التي لم يفرض لها صداق ولم يدخل بها لا شيء لها غير المتعة .

(٣) سورة الرعد الآية : ٧ (٤) سورة الرعد الآية : ٢٦ .

٤ - قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾^(١) .

فكل شيء ملك لله ، سهل عليه ، يسير لديه ، يفعلُه سبحانه كما يشاء ولما له في ذلك من الحكمة وعلى وضع وكيفية وكمية خاصة يريدُها الله جل جلاله .

٥ - قال سبحانه : ﴿ وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) .

فيونس عليه السلام ترك قومه بعد أن يقس من إيمانهم ، وهاجر غضبان من أجل الله ولكنه لم يكن تلقى الإذن الإلهي بالهجرة ، وظن أن الله لن يضيق عليه الأمر ولن يؤاخذه بما فعل ، وكانت النتيجة أن ألقى في اليم والتقمه الحوت ، وأدرك سبب هذه العقوبة ، فنادى في ظلمات الماء وبطن الحوت وجوف الأرض : ﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

٦ - قال الله جل جلاله : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾^(٣) .

والمعنى ما عرفوا الله حق معرفته ، وما عظموه حق تعظيمه حين عبدوا معه غيره .

٧ - قال الله جل شأنه : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى السَّمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴾^(٤) .

والمعنى أن نوحاً عليه السلام لما دعا ربه أن ينصره على قومه المكذبين فتح الله السماء بماء منهمر كثير ، وتفجرت الأرض عيوناً تفيض بالماء ، والتقى الماءان على أمر أرادَه الله بمقدار مخصوص ووجه مخصوص لغاية مخصوصة .

٨ - قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(٥) .

(١) سورة الحجر الآية : ٢١ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨٧ .

(٣) سورة الحج الآية ٧٤ .

(٤) سورة القمر الآية : ١٢ .

(٥) سورة القمر الآية ٤٩ .

والمعنى أن الله خلق الأشياء كلها بتقدير كمأ وكيفأ ، وحمل لها من الطبائع والنواميس والهيئات ما يناسبها .

٩ - قال الله سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ ﴾ ^(١) .

فإن الله قد حدد لكل إنسان أجله الذى تنتهى عنده حياته ، وهو سبحانه القادر على تحقيق مراده ليس عاجزاً عن تنفيذه .

١٠ - قال الله تعالى : ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ ^(٢) .

والمعنى أن الله خلق الإنسان من نطفة هى ماء الرجل ، وطوره فى مراحل الخلقة طوراً بعد طور ، وبكيفيات معينة وبأحوال خاصة حددها الله عز وجل .

* * *

وهكذا فالقدر فى تصريفاته اللغوية القرآنية يدور حول بيان كمية الشيء ومقداره .

* * *

(١) سورة الواقعة الآية : ٦٠ .

(٢) سورة عبس الآية ١٩٠ .

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان في مفهومه الذي يجب اعتقاده والتصديق به يتضمن أركاناً تبدأ بتوحيد الله تعالى ، ويشمل التصديق بالملائكة والنبیین والكتب المنزلّة واليوم الآخر ، ثم التصديق بالقضاء والقدر .

والنص على هذا الركن حدث به المصطفى ﷺ وأكده في الرواية المشهورة حين جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي وأخذ يسأل النبي ﷺ أمام الصحابة عن حقائق الدين وعلامات الساعة .

وقد خرج الحديث الإمام البخاري ، والإمام مسلم في صحيحيهما ، وجاءت مقدمة لهذا الحديث ساقها الإمام مسلم بسنده عن يحيى بن يعمر قال :

كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما داخل المسجد ، فاكتفتة أنا وصاحبي ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي ، فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتفقرون^(١) العلم ، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمرأف^(٢) .

قال ابن عمر رضي الله عنهما : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني برىء منهم وأنهم برآء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ

(١) تفقر العلم بتقديم العلم على القاف أو العكس معناه طلب العلم والبحث عن غامضه واستخراج خفيه .

(٢) أي مستأنف لم يسبق به علم من الله تعالى ، وإنما يعلمه بعد وقوعه .

فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذه وقال :

يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً .

قال : صدقت ، قال عمر : فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان : قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة . قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها . قال : أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال عمر : ثم انطلق فلبث ملياً ، ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وقضية الإيمان بالقضاء والقدر ترتبط ارتباطاً جوهرياً بقضية توحيد الله تعالى ذاتاً وصفات وأفعالا ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بعلم الله الشامل المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة .

وفي بيان المراد بالقضاء والقدر شرعاً قال الإمام النووي :

« وأعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ، ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم ، وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى » ^(١) .

وقال الراغب الأصفهاني :

« والقضاء من الله تعالى أخص من القدر ، لأنه الفصل بين التقدير ، فالقدر هو التقدير ، والقضاء هو الفصل والقطع ، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل ، والقضاء بمنزلة الكيل . وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما لما أراد الفرار من الطاعون بالشام : أتفر من القضاء ؟ قال أفر من قضاء الله إلى قدر الله .

(١) صحيح مسلم شرح النووي ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

تنبيهاً إلى أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله ، فإذا قضى فلا مدفع له ، ويشهد لذلك قوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ وقوله : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ وقوله : ﴿ وَقَضَى الْأَمْرَ ﴾ : أى فصل تنبيهاً أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه ^(١) .

ولئن سلمنا للراغب رأيه فى العلاقة بين القضاء والقدر ، فإننا نتوقف فى الاستشهاد بمقالة أبى عبيدة ورد عمر عليه ، فالنص الوارد فى صحيح البخارى وصحيح مسلم بلفظ القدر هكذا :

فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟

فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرايت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان ^(٢) إحداهما خصيية والأخرى جذبة ، أليس إن رعيت الخصيية رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجذبة رعيتها بقدر الله ^(٣) .

وذهب الإمام ابن حزم الأندلسى إلى أن معنى قضى وقدر - حكم ورتب ، ومعنى القضاء والقدر حكم الله تعالى فى شيء بحمده أو ذمه ، أو تكوينه ، أو ترتيبه على صفة كذا إلى وقت كذا ^(٤) .

ونخلص مما تقدم إلى أن القضاء والقدر مرتبطان بصفات إلهية هى : العلم والإرادة والقدرة ، فالله تعالى يعلم ، ثم يريد ، ثم يوجد .

والترتيب بين العلم وبين الإرادة ترتيب تعقلى فقط ، لأن كليهما قديم أزلى ، وما كان قديماً أزلياً لا ترتيب فيه ، لكن كى نفهم تعلق العلم والإرادة بالمقدور المقضى فنحن لا نفهمه إلا مرتباً .

أما الترتيب بين العلم والإرادة من جهة ، وبين القدرة والإيجاد من جهة أخرى فهو ترتيب زمنى ، لأن الأشياء لا تقع قديمة ، ولا توجد دفعة واحدة ، فالخلق حادث متجدد ، وتعلق القدر بهذا الخلق إنما يكون على مدى الزمن الممتد إلى ما شاء الله .

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب ، تحقيق نديم مرعشلى ، ص ٤٢٢ - طبعة دار الفكر .

(٢) العدو بضم العين وكسرها : جانب الوادى .

(٣) فتح البارى لابن حجر ، ح ١٠ ، ص ١٧٩ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ، ج ١٤ ، ص ٢١٠ .

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل - تحقيق د. محمد نصر ، د. عبد الرحمن عميرة ، ج ٣ ، ص ٧٨ .

النشأة التاريخية

موقف المشركين :

من الأمور الشائكة التي تكلم الناس فيها قديماً وحديثاً مسألة القضاء والقدر ، وحاول المشركون على عهد رسول الله ﷺ الاحتجاج بالقدر ونزل قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ^(١) .

فهذه شبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا من الطيبات بأن الله مطلع على ما هم فيه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمهم الإيمان ، ويحول بينهم وبين الكفر ، ولما لم يغيره فهموا أن الله تعالى شاء ذلك منهم وأرادهم ورضى عنه . ورد الله تعالى عليهم بأن هذه الشبهة قد ضل بها أقوام من قبل ، وهي حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم ، فهم في زعمهم هذا واهمون وعلى اعتقاد فاسد .

وتكرر هذا المعنى في قوله جل شأنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ^(٢) .

وجاء في تفسير هذه الآية :

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ .. لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطانا .

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

(٢) سورة النحل الآية ٣٥٠ .

ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلناه لأنكره علينا بالعقوبة ولما
مكننا منه .

قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ .. فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ ﴾ أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد
الإنكار ، ونهاكم عنه أكد النهى ، وبعث فى كل أمة - أى فى كل قرن وطائفة من
الناس - رسولاً ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله ، وينهون عن عبادة ما سواه ^(١) .

وفى موقف آخر حكى القرآن مقالة المشركين فى رفضهم الإنفاق وإطعام
الفقراء ، محتجين بالقضاء والقدر ، فقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْتُمْ أَنْتُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعْتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٢) .

والمعنى أنهم رفضوا الإنفاق بحجة أن الله تعالى يريد لهؤلاء الفقر ، ولا يجوز
أن يغيثهم الناس ، ولو شاء الله لأغناهم .
ووصف القرآن هذا الزعم بأنه ضلال واضح بين .

موقف المنافقين :

عقب غزوة أحد دار الجدل طويلاً حول القضاء والقدر بين المسلمين والمنافقين ،
وطرحت فيه اتجاهات متعددة سجلها القرآن المجيد فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ تَضِعُّدُونَ وَلَا تُلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتَابَكُمْ
عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » ثُمَّ
أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ
كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُتَدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا
قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ

(١) تفسير اس كبير ، ج ٢ ، ص ٥٦٨ .

(٢) سورة يس الآية : ٤٧ .

وَلْيَسْتَلِ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيَمْلِكُنَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ^(١) .

ففي غزوة أحد ابتلى المؤمنون ببلاء شديداً ، بسبب مخالفة الرماة لأمر الرسول ﷺ ، فتركوا مواقعهم التي يحمون منها ظهور المسلمين ، ونزلوا يجمعون الغنائم بعد فرار المشركين وهزيمتهم .

وبمجرد أن ترك الرماة مواقعهم تنبه المشركون ، وكروا على المسلمين ، فقتلوا منهم سبعين شهيداً وتفرق الجيش الإسلامي .

وأخذ الرسول ﷺ ينادى عليهم قائلاً : إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من كثر فله الجنة .

وتراكم على المسلمين غم على غم ، غم الهزيمة ، وغم إشاعة أن الرسول قتل ؛ أو غم ما أصابهم عند الفشل والتنازع ، وغم ما وقع عليهم من الهزيمة ، أو غم ما فاتهم من الغنيمة ، وغم ما أصابهم من القتل .

وأياً ما كان فإن الغموم تعاقبت عليهم ؛ ليصير ذلك زجراً لهم عن المعصية والمخالفة ، وتربية لنفوسهم ، ودفعاً لهم لتجاوز الواقع الأليم .

ثم بينت الآيات أن الناس يوم أحد كانوا فريقين :

- فريقاً آمن واستقر الإيمان في قلبه ، فهؤلاء آمنوا وجاءهم النعاس في وقت ما ولم يشعروا بخوف ليفينهم أن الله ناصر دينه .

- وفريقاً أهتمهم أنفسهم ولم يكن لهم من هدف إلا الغنيمة ، فلما غشى القوم ما غشيتهم ونالهم الفزع الأكبر ، ظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية وحملوا الرسول مسئولية قتل من قتل ، بناء على أنه صلى الله عليه وسلم أثر الخروج من المدينة حتى وصل أحدا ، وكان رأيهم أن يظلوا بالمدينة مدافعين عنها لا يخرجون منها .

ومعنى قوله تعالى على لسان المنافقين : ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أنه

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٥٣ ، ١٥٤ .

استفهام إنكارى يراد به هل لنا من أمر يطاع ؟

ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا ﴾ .

أو المعنى أين ما كان يعدنا به محمد من النصر والغلبة ؟

وللرد على هذا التساؤل بمعنييه جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْثُلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

فالذين توهموا أن خروجهم إلى أحد عجل لهم الموت . ذكرهم القرآن المجيد أن الحذر لا يدفع القدر ، وأن التدبير لا يقاوم التقدير ، وأن الذين قدر الله عليهم القتل لابد أن يقتلوا في مصارعهم التي علمها الله أزلاً ..

والذين توهموا أن هزيمة أحد تعنى أن الله تخلى عن رسوله ولم يؤيده - ذكرهم القرآن بأن الابتلاء قرين الإيمان ، وأنه ليس هناك جهاد بغير تضحيات ، وليس هناك معركة بغير شهداء ، وإنما هي إحدى الحسنين : النصر أو الشهادة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) .

وهكذا كانت غزوة أحد مثاراً للفكر والجدل حول مسألة الحرية الإنسانية أو القضاء والقدر ..

* * *

موقف الصحابة

جاءت روايات تفيد أن الصحابة - رضى الله عنهم - أفراداً وجماعات تكلموا فى أمر القضاء والقدر ..

وعلى سبيل المثال فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال :

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٠ .

أن الرسول ﷺ طرقه ، وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلة فقال : ألا تصليان ؟
فقلت : يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا .. فانصرف حين
قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيئاً ثم سمعته وهو مول . يضرب فخذه وهو يقول :
﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ^(١) .

لقد حرص الرسول الكريم على إيقاظ ابنته وزوجها لصلاة الليل حتى يتعرضا
لنفحات الله ويحصلوا على الثواب الجزيل الذي أعده الله للمستغفرين بالأسحار .
واعتذر على بن أبي طالب رضى الله عنه بالقدر وقال : يا رسول الله أنفسنا
بيد الله فإذا شاء أن يبعثها بعثنا .

وبمجرد أن سمع الرسول الكريم هذا الاعتذار لم يراجع علياً بشيء وإنما خرج
متعجباً وهو يتذكر الآية الكريمة : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ .

وفى فقه هذا الحديث قال الإمام ابن حجر :

أنه ليس للإمام أن يشدد في النوافل حيث قنع ﷺ بقول علي - رضى الله
عنه - : أنفسنا بيد الله ، لأنه كلام صحيح في العذر عن التنفل ولو كان فرضاً
مأذره .

وأما ضربه فخذه وقراءته الآية فдал على أنه ظن أنه أخرجهم فندم على انباههم .
وقال النووي : المختار أنه ضرب فخذه تعجباً من سرعة جوابه وعدم موافقته له
على الاعتذار بما اعتذر به والله أعلم ^(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ خرج على
الصحابة وهم يتنازعون في القدر ، هذا ينزع آية ، وهذا ينزع آية ، فكأنما فقي في
وجهه حب الرمان فقال :

بهذا أمرتم - أو بهذا وكلتم - أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ١٢ انظروا

(١) سورة الكهف الآية . ٥٤ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخارى ج ٣ ، ص ١١ .

إلى ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه [رواه أحمد وابن ماجه] .
وفى موقف آخر تساءل الصحابة مع رسول الله ﷺ فى أمر القدر ، وجاء فى صحيح مسلم أن على بن أبى طالب قال :

كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقمعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فتكس فجعل ينكث بمخصرته ^(١) ، ثم قال : ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة ، فقال رجل : يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، اعملوا فكل ميسر ، أما أهل السعادة فميسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فميسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ ^(٢) .

وتعدد تساؤل الصحابة فى هذا الأمر ، فجاء سراقه بن مالك وقال : يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيما العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل ؟

وقال رجل : يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم قال : ففيم يعمل العاملون ؟

وجاء رجلان من مزينة فقالا : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشياء قضى عليه ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟

وكانت إجابة رسول الله ﷺ فى كل هذه الأحوال :

(١) المخصرة - بكسر الميم - ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا صغيرة وعكار صغير وغيرهما ، ونكس - تنحيف الكاف وتشديد الهمزة - لغتان فصيحتان . أى خفض رأسه ، ونكث أى خط خطأ يسيراً مرة بعد مرة .

(٢) سورة الليل الآيات : ٥ - ١٠ .

« اعملوا فكل ميسر لما خلق له »^(١) .

ومع كل هذه التساؤلات والمناقشات لم يكن الموقف يمثل ظاهرة فكرية قلقة ولا اتجاهاً دينياً متحزباً ، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى والأمة مجتمعة على صفاء الفهم لكتاب الله وسنة رسوله .

ثم قامت الخلافة الراشدة وبدأت بوادر الخلافات السياسية في عهد عثمان رضي الله عنه ، ودهم الأمة ما دهمها ، فقتل الخليفة ، وامتشق الحسام ، وانقسم المسلمون ووقعت حروب الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، ونشأت أحزاب سياسية ما لبثت أن تحولت إلى فرق دينية بعدما قامت الدولة الأموية ، فكان الشيعة والخوارج والمرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة .. وتدحل القدر في صياغة فكر هذه الفرق وتبلور لكل منها فهم خاص فيه .

* * *

(١) راجع الروايات في صحيح مسلم شرح النووي ، ح ١٦ ، ص ١٨٩ - ٢٠٧ .

نظرة مذهبية

محل النزاع :

قضية القدر في مجملها ذات أفقين :

- أفق العلم الإلهي .
- أفق التكليف الإنساني .

حرص البعض على الأفق الأول وغالى فيه حتى نسي صحة التكليف وحتمية المسؤولية ، وجنح البعض إلى الأفق الثانى وركز عليه حتى غفل عن ضرورة إثبات الكمال المطلق لله عز وجل فى تصريف الكون والكائنات .

وتبلورت الاتجاهات الفكرية فى هذه المذاهب :

الجبرية - القدرية الأولى - المعتزلة - الأشاعرة .

ولا خلاف بين المسلمين قاطبة أن النواميس الكونية فى السماء والأرض كلها مخلوقة لله تعالى سبقت بها إرادته وعلمه .

وكذلك فإن الأفعال الاضطرارية للإنسان كنبض قلبه وحركة أمعائه وما قد يدهمه ويقع عليه بلا إرادة منه ولا قدرة معه - هى من تقدير الله وخلقه .

ولا تكليف على الإنسان فى هذين النوعين ، ولا مسئولية عليه حيالهما ، ولا يمدح أو يذم بسببهما .

ومحل النزاع هو أفعال الإنسان الاختيارية والتي تنشأ عن إرادة من العبد وتصحبها قدرة منه عليها ، والتي هى الأمر والنهى فى التشريعات الإلهية ، هنا نشأ الخلاف ، واحتدم الجدل وتنازعت الفرق وتعددت .

الجبرية :

فمن فرق الجبرية أصحاب جهنم بن صفوان ، قال عنه الشهرستاني :
هو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمد ، وقتله مسلم بن أحوز المازنى بمرور
فى آخر ملك بنى أمية .

ورأيه في موضوعنا : أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور في أفعاله ، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجاراً كما تنسب إلى الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيّمت السماء وأمطرت ، واهتزت الأرض وأنبئت .. إلى غير ذلك .

والثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال كلها جبر ، وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً^(١) .

* * *

القدرية :

وفي مقابل الجبرية جاء معبد بن خالد الجهني وقال : لا قدر والأمر أنف ، وهو أول من قال بالقدر في البصرة كما روى مسلم في صحيحه عن يحيى بن يعمر^(٢) .

وساق الإمام اللالكائي روايات منها :

« عن عثمان بن عبد الله قال : أول من تكلم في شأن القدر أبو الأسود الديلي .

« عن الحسن بن محمد قال : أول من تكلم في القدر حين أحرقت الكعبة (٦٤ هـ) :

قال قائل : كان هذا من قضاء الله أن أحرقت الكعبة .

وقال آخر : ما كان هذا من قضاء الله .

« عن ابن عون قال : أدركت الناس وما يتكلمون إلا في علي وعثمان حتى نشأ ههنا حقير يقال له : سنسويه البقال فكان أول من تكلم في القدر .

(١) الملل والنحل للشهرستاني - تحقيق سيد كيلاني ج ١ ، ص ٨٧ ، طبعة الحلبي .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ، ص ١٥٠ .

* عن يونس بن عبيد قال : أدركت البصرة وما بها قدرى إلا سنسويه ومعبد الجهنى وآخر ملعون فى بنى عوافة .

* قال الأوزعى : أول من نطق بالقدر رجل من أهل العراق يقال له : سوسن كان نصرانياً فأسلم ، ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد^(١) . وأياً ما كان فإن مقالة معبد الجهنى : « لا قدر والأمر أنف » تعنى إنكار علم الله تعالى السابق بالحوادث ، وتنفى تقديره سبحانه للأمور وإرادته لها ، وتضيف الأفعال للإنسان نفسه فهو موجد لها والمسئول عنها .

ومذهب القدرية الأولى فيه جفاء وإهدار لجلال الله وكماله وإعلاء من شأن الإنسان وكأنه وحده فى هذا الكون يتصرف فيه بطلاقة كاملة وحرية مطلقة ، ولهذا لم يتيسر الانتشار للمذهب ولم يسد بعد أصحابه الأول .

* * *

المعتزلة :

جاء المعتزلة وخففوا الوطأ ، فأثبتوا العلم الأزلى الشامل لله تعالى والقدرة المطلقة له جل شأنه وأن العبد بقدراته مخلوق لله ، قد منحه الله الاستطاعة ، فأفعال العباد غير مخلوقة لله فيهم ، والإنسان هو المحدث لها بما منحه الله من القدرة وأسبابها .

وشرح القاضى عبد الجبار هذه العبارة فقال :

والذى يدل على ذلك أن تفصل بين المحسن والمسيء ، وبين حسن الوجه وقبيحه ، فنحمد المحسن على إحسانه ، ونذم المسيء على إساءته ، ولا تجوز هذه الطريقة فى حسن الوجه وقبيحه ، ولا فى طول القامة وقصرها ، حتى لا يحسن منا أن نقول للطويل : لم طالت قامتك ؟ ولا للقصير : لم قصرت ؟

(١) راجع الروايات فى شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام أبى القاسم هبة الله بن الحسن ابن منصور الطبرى اللالكائى (ت ٤١٨ هـ) تحقيق د. أحمد سعد حمدان ج ٤ ، ص ٧٤٦ - ٧٥٠ ، طبعة دار طيبة بالرياض .

كما يحسن أن نقول للظالم : لم ظلمت ؟ وللكاذب : لم كذبت ؟
فلولا أن أحدهما متعلق بنا وموجود من جهتنا بخلاف الآخر ، وإلا لما وجب
هذا الفصل ، ولكان الحال في طول القامة وقصرها كالحال في الظلم والكذب ،
وقد عرف فساده .

وساق القاضي عبد الجبار اعتراضاً :
فإن قالوا : لا يمكنكم أن تستدلوا بهذه الطريقة على أن هذه الأفعال متعلقة
بكم فإنكم تحمدون الله تعالى على الإيمان ، وإن كان الإيمان من فعلكم ومتعلقاً
بكم ، وكذلك فإنكم تذمون أحدنا على الإمامة والفرق والحرق وغير ذلك مع أن
شيئاً من ذلك لا يتعلق به .

ثم أجاب القاضي قائلاً :
أما الأول فليس ما تظنونونه لأننا لا نحمد الله تعالى على الإيمان نفسه ، وإنما
نحمده على مقدماته من الإقدار والتمكين وإزاحة العلة بأنواع الألطاف وذلك
موجود من قبله ومتعلق به فلا يلزم .

ولهذا قال بعض أصحابنا حين أورد بعضهم هذا السؤال عليه بحضرة بعض
الأكابر فقال : فإننا لا نحمد الله تعالى على ذلك وإنما الله يحمدنا عليه ^(١) ، فانقطع
السائل .

فقال المستول : شنت المسألة فسهلت .

أما ما ذكرته ثانياً فليس كذلك أيضاً لأننا لا نذم أحدنا على الإمامة والفرق
والحرق وإنما ذمناه على مقدمات ذلك ، ألا ترى أن من وضع صبيّاً تحت برد ليموت
فإن ذمنا إياه ليس على الإمامة وإنما هو على إلقائه أو وضعه تحت البرد ، وكذلك من
ألقي صبيّاً في تنور ليحرقه الله تعالى فإننا لا نذمه على الإحراق الموجود من قبل الله
تعالى ، وإنما نذمه على تقريبه من جهة النار وإلقائه فيها ^(٢) .

(١) حمد الله لنا بمعنى ثوابه وعطائه .

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، تحقيق د. عبد الكريم عثمان ص ٣٢٣ ، طبعة مكتبة

الأشاعرة :

خرج من عبادة المعتزلة أبو الحسن الأشعري لينادى بكسب الإنسان في عمله الاختيارى ويبطل ما ذهب إليه المعتزلة من مسألة خلق الإنسان لعمله أو إحدائه له فقال :

وإرادته تعالى واحدة قديمة أزلية متعلقة بجميع المرادات من أفعاله الخاصة ، وأفعال عباده من حيث إنها مخلوقة له ، لا من حيث إنها مكتسبة لهم .

فمن هذا قال : أراد الجميع خيرها وشرها ونفعها وضرها ، وكما أراد وعلم أراد من العباد ما علم ، وأمر القلم حتى كتب في اللوح المحفوظ ، فذلك حكمه وقضاؤه وقدره الذى لا يتغير ولا يتبدل ، وخلاف المعلوم مقدور الجنس محال الوقوع^(١) .

وقد اشتهر بين العلماء خفاء معنى الكسب المراد عند الأشعري حتى قيل : أخفى من كسب الأشعري !!

لأن ما ورد في شأن تعريفه لا يكاد يحل المشكلة ، فالكسب - كما قيل - هو مقارنة قدرة العبد الحادثة للفعل مع قدرة الله تعالى من غير صحة انفراد أو تأثير لهذه القدرة الحادثة .

ويقول الإمام السنوسى شرحاً لهذا المعنى :

لا تأثير لقدرتنا في شيء من أفعالنا الاختيارية كمحركاتنا وسكناتنا ، وقيامنا وقعودنا ومشينا ونحوها ، بل جميع ذلك مخلوق لمولانا جل وعز ، بلا واسطة ، وقدرتنا أيضاً مثل ذلك عرض مخلوق لمولانا جل وعز ، تقارن تلك الأفعال الاختيارية ، وتتعلق بها من غير تأثير لها في شيء من ذلك أصلاً .

وإنما أجرى الله تعالى العادة أن يخلق عند تلك القدرة ، لا بها ، ما شاء من الأفعال ، وجعل الله سبحانه وجود تلك القدرة مقارنة للفعل شرطاً في وجوب التكليف .

وهذا الاقتران والتعلق لهذه القدرة الحادثة بتلك الأفعال من غير تأثير لها أصلاً

(١) الملل والنحل لشهرستانى ح ١ ، ص ٩٦ .

هو المسمى فى الاصطلاح وفى الشرع بالكسب والاكتساب ، وبحسبه تضاف
الأفعال إلى العباد كقوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ .

وأما الاختراع والإيجاد فهو من خواص مولانا جل وعز ، لا يشاركه فيه شيء
سواه تبارك وتعالى ، ويسمى العبد عند خلق الله تعالى فيه هذه القدرة المقارنة للفعل
مختاراً ، وعندما يخلق تعالى فيه الفعل مجرداً عن مقارنة تلك القدرة الحادثة - يسمى -
مجبوراً ومضطراً كالمرتعش مثلاً ..^(١) .

* * *

(١) حاشية الدسوقي على شرح العقيدة الصغرى ، ص ١٦٤ ، طبعة سنة ١٣٠٥ هـ .

جدل مذهبي

احتدم الجدل بين المعتزلة والأشاعرة في مسألة أفعال العباد ، وذهب كل فريق يجادل عن نفسه .

فالقاضي عبد الجبار رأى أن مذهب الكسب لا يعقل ولا يتصور معه استحقاق المدح والذم للمكلف ، ويوجب قبح بعثة الرسول وبطلان الشرائع ، ويلزم منه الظلم والقبح في حق الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وساق القاضي أمثلة على ذلك منها : ويلزمهم أن لا يثبت لرسول الله تعالى حجة على الكفرة ، لأن للكافر أن يقول : إن كنت رسولاً فلا أقل من أن تكون رسالتك موافقة لمراد المرسل ، فكيف تدعونا إلى الإسلام ومن أرسلك إلينا أراد منا الكفر وخلقه وجعلنا بحيث لا يمكننا الانفكاك عنه ؟ ويلزم انقطاع الرسل من وجه آخر وهو أن يقال لهم : إلى ماذا تدعونا إليه ؟ فإن كنتم تدعونا إلى ما خلقه الله تعالى فينا ، فإن ذلك مما لا فائدة فيه ، وإن كنتم تدعونا إلى ما لم يخلقه الله تعالى فينا فذلك مما لا نطقه ولا نتمكن منه . ويلزمهم التسوية بين الرسول وبين إبليس ، لأن الرسول يدعوهم إلى خلاف ما أراد الله تعالى منهم ، كما أن إبليس يدعوهم إلى ذلك ، بل يلزمهم أن يكون حال الرسول أسوأ من حال إبليس ، لأن إبليس إنما يدعوهم إلى خلافه^(١) ، وكل مذهب يقتضي ذلك ويؤدي إليه فكافيك به فساداً .

ويلزمهم أيضاً قبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن الأمر لا يخلو : إما أن يكون أمراً بالواقع وذلك قبيح ويجري في القبح مجرى أمر المرمى من شاهق بالترول .

وإن كان أمراً بما لا يقع فإن المأمور غير قادر عليه عندهم لقولهم بالقدرة الموجبة فيكون الأمر به أمراً بما لا يطاق ، وتكليف ما لا يطاق قبيح .

(١) العبارة فيها نظر ، ولعلها : إلى مراد الله منهم في الكفر والضلال .

وهكذا الكلام فى النهى عن المنكر ، لأنه إن كان نهياً عن الواقع فإن ذلك قبيح ، ولا فائدة فيه ، وإن كان نهياً عما لم يقع فإن ذلك نهى عما لم يقدر عليه ، وذلك قبيح أيضاً ، ويجرى فى القبح مجرى نهى الزمن عن العدو^(١) .

ثم أورد القاضى عبد الجبار آيات قرآنية عددها موافقة لأدلة العقل ، ومقررة لأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد مثل :

١ - قوله تعالى : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ﴾^(٢) .

نفى الله التفاوت عن خلقه ، فلا يخلو : إما أن يكون المراد بالتفاوت من جهة الخلقة أو من جهة الحكمة ، لا يجوز أن يكون المراد به التفاوت من جهة الخلقة ، لأن فى خلقة المخلوقات من التفاوت ما لا يخفى ، فليس إلا أن المراد به التفاوت من جهة الحكمة على ما قلناه ، إذا ثبت هذا لم يصح فى أفعال العباد أن تكون من جهة الله تعالى لاشتغالها على التفاوت وغيره .

٢ - قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾^(٣) .

وقد قرئ « خلقه » (بتسكين اللام) وكلا القراءتين تدل على أن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم ، ووجه الاستدلال به أنه لا يخلو إما أن يكون المراد به أن جميع ما فعله الله تعالى فهو إحسان أو المراد به أن جميعه حسن ، لا يجوز أن يكون المراد به الإحسان لأن فى أفعاله تعالى ما لا يكون إحساناً كالعقاب ، فليس إلا المراد به الحسن على ما نقوله .

إذا ثبت هذا ، ومعلوم أن أفعال العباد تشتمل على الحسن والقبح ، فلا يجوز أن تكون مضافة إلى الله تعالى .

٣ - قوله تعالى : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(٤) .

يبين الله تعالى أن أفعاله كلها متقنة ، والإتقان يتضمن الإحكام والحسن جميعاً

(١) شرح الأصول الخمسة - تحقيق د. عبد الكريم عثمان ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ - طبعة مكتبة وهبة .

(٢) سورة الملك الآية ٣٠ .

(٣) سورة السجدة الآية : ٧

(٤) سورة النمل الآية : ٨٨ .

حتى لو كان محكماً ولا يكون حسناً لكان لا يوصف بالإتقان ، ألا ترى أن أحدنا لو تكلم بكلام فصيح يشتمل على الفحش والخنا فإنه وإن وصف بالإحكام لا يوصف بالإتقان .

إذا ثبت هذا ومعلوم أن في أفعال العباد ما يشتمل على التهود والتنصر والتمجس فلا يجوز أن يكون الله تعالى خالقاً لها .

٤ - قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَثًا فَأَخْيَاكُمْ... ﴾ (١) .

أورد ذلك متعجباً منهم في الكفر مع ما له عز وجل عليهم من النعم ، ولو كان - كما قالوه لم يكن للاستعجاب موضع ولكان بمنزلة قوله : كيف تسودون وقد أنعمت عليكم وفعلت وصنعت ، فكما أن ذلك مما لا وجه له لما لم يكن الاسوداد متعلقاً بهم ، وموقوفاً على اختيارهم ، كذلك في مسألتنا .

على أن مع هذا المذهب لا يثبت لله تعالى نعمة على الكفار ، لا نعمة الدين ولا نعمة الدنيا ، أما نعمة الدين فلا إشكال فيه ، لأنه قد خلق فيهم الكفر والقدرة الموجبة له والإرادة الموجبة له ، وسلبهم الإيمان وقدرته وإرادته ، وجعلهم من الأشقياء فكيف يثبت له عليهم نعمة ؟

وأما نعمة الدنيا فلأن هذه المنافع وإن كانت تصل إليهم في الحال فإنها من حيث توصلهم إلى النار الأبد والعقاب السرمد بمنزلة الخبيص (٢) المسموم الذي يؤدي إلى الهلاك ، فكما أن من قدمه إلى غيره لا يكون منعماً بذلك عليه ، كذلك في هذا الموضع .

٥ - قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ (٣) .

أورد الآية على وجه التوبيخ وذلك لا يحسن إلا بعد احتياج الكفر والإيمان إلينا وتعلقهما بنا ، وإلا كان ذلك بمنزلة أن يوبخ أحدنا على طول قامته وقصرها ، فيقال : قد أنعمنا عليك وصنعنا بك وفعلنا فقصرت قامتك أو طالت .

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٠ .

(٢) لون من الطعام شهي .

(٣) سورة التغابن الآية ٢٠ .

٦ - قوله تعالى وتنزه وتقدس : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) .
وهذا يدل على أن الله تعالى لا يريد من العباد إلا العبادة والطاعة ، لأن هذه
اللام لام الغرض ، الذى يسميه أهل اللغة : لام كى ، بدليل أنهم لا يفصلون بين
قول القائل : دخلت بغداد لطلب العلم ، وبين قوله : دخلت وغرضى طلب العلم .
ويدل أيضاً على أن هذه الأفعال محدثة من جهتنا ومتعلقة بنا وإلا كان لا
معنى لهذا الكلام ^(٢) .

وقد رد الأشاعرة على هذا الاتجاه الاعتزالى ، وقال الإمام التفتازانى فى مقاصده :
وللمعتزلة فيها تأويلات فاسدة وتعسفات باردة يتعجب منها الناظر ويتحقق
أنهم فيها محجوجون ، وبوهقها مخنوقون ، ولظهور الحق فى هذه المسألة يكاد
عامتهم به يعترفون ، ويجرى على ألسنتهم أن ما لم يشأ الله لا يكون .
وبدأ الإمام التفتازانى يعلق على كثير من استدلالات المعتزلة ويسوق مجموعة
اتجاهات تمثل الفكر الأشعرى هى :

١ - لا قبح من الله تعالى ، غاية الأمر أنه يخفى علينا وجه حسنه .
٢ - لا ظلم من الله تعالى لعباده عندما يعاقبهم على الكفر والمعاصى لأنه
تصرف فى ملكه .

٣ - لا سفه فى أمر الله تعالى بما لا يريده إذ ربما لا يكون غرض الأمر الإتيان
بالمأمور به ، كالسيد إذا أمر العبد امتحاناً له هل يطيعه أم لا ؟ فإنه لا يريد شيئاً من
الطاعة والعصيان ، أو اعتذاراً عن ضربه بأنه لا يطيعه فإنه يريد منه العصيان ،
والمكره على الأمر بنهب أمواله ، وكذا فإن قيل : مأمور السلطان بيادر إلى المأمور
به معللاً بأنه مراد السلطان . قلنا : لا مطلقاً بل إذا ظهر أمانة الإرادة ، وإنما يعلى
مطلقاً بالأمر والإشارة والحكم .

٤ - ليس وجود الكفر تبعاً لإرادة الله من العبد يكون طاعة ، فالطاعة هى
موافقة الأمر وليس موافقة الإرادة .

(١) سورة النذريات الآية ٥٦ .

(٢) شرح الأصول الخمسة من ص ٣٥٥ - ٣٦٣ بتصرف .

- ٥ - لا يلزم من وقوع الكفر بإرادة الله وقدرته الرضا به ، لأن الكفر مقضى ،
والواجب هو الرضا بالقضاء وليس بالمقضى .
- ٦ - هناك فرق بين الإرادة من جهة وبين الأمر والرضا والمحبة من جهة أخرى ،
فالله تعالى يريد الكفر ولا يأمر به ولا يرضى عنه ولا يحبه بل يعاقب عليه .
- ٧ - أفعال الله تعالى لا تعلل بغرض .
- ومن طريف ما يروى أن القاضي عبد الجبار دخل داراً للصاحب ابن عباد فرأى
الأستاذ أبا إسحق الأسفراينى فقال :
سبحان من تنزه عن الفحشاء .
فقال الأستاذ على الفور : سبحان من لا يجرى فى ملكه إلا ما يشاء^(١) .

* * *

(١) راجع شرح المقاصد للعلامة سعد الدين عمر التفتازانى ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٩ ، طبعة
سنة ١٢٧٧ هـ بتصرف .

بعيداً عن المذاهب

نحن نعتقد أن الحق أكبر من أن يستوعبه مذهب واحد بعينه وأن الذين يتعصبون لأي مذهب بأجمعه إما عامة أو أنصاف علماء .
وبالتالي فلا ندعى العصمة المطلقة لإمام من الأئمة ، فكل إنسان يوخد منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة .

ونحسب أن العلماء - بمراعاة الوصف - مخلصون في اجتهادهم ، وليس واحد منهم يتغنى الفتنة وإنما مرادهم جميعاً الوصول إلى الحق ، فمنهم من يصل ، ومنهم من يشارف ، ومنهم من ينأى به السبيل .

الجبر مرفوض :

حولتنا بين المذاهب في مسألة القضاء والقدر - نجعلنا نرفض مذهب الجبر رفضاً تاماً ، فإن هناك فرقاً واضحاً جلياً بين الإنسان والحيوان ، وهذا الفرق بدهة هو العقل الذي كرم الله به بنى آدم ، وعليه مدار التكليف وإذا سلب ما وهب سقط ما وجب ، فالجنون ومن على شاكلته غير مطالب بالأمر والنهي شرعاً .
كما أن هناك تفرقة ضرورية بين الفعل الاختياري والفعل الاضطراري ، فحركة الساعي إلى الصلاة اختيارية ، وحركة المرتعش اضطرارية ، والمتنحر مختار ، ومن قتل رغم أنفه مضطر .

وهذه التفرقة ثابتة شرعاً ، فالساعي إلى الصلاة مثاب ، والمتنحر معاقب ، ولا حرج على المريض ، ومن قتل حتف أنفه قد يكون شهيداً .. وبالتالي فالإنسان مكلف بفعله الاختياري فقط ولا تكليف عليه عند الاضطرار .

والعقل والاختيار هما أساس المسؤولية الشرعية ، وهذا الأساس تقوم عليه حرية الإنسان في الفعل والترك ، ويصدق فيه قول الله عز وجل : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (١) .

(١) سورة الكهف الآية : ٢٩ .

وقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(١) .

الأمر مقدور :

نحن نرفض قضية أن الأمر أنف بقدر ما نرفض الجبر ، فإن علم الله تعالى لا يعزب عنه شيء ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾^(٢) .

وعلم الله تعالى محيط شامل غير مكتسب ، ولا يسبقه خفاء ، ولا يعنیه جهل ، ولا يلحقه تخلف ، ومع ذلك فهو انكشاف لا تأثير ، فلا يلزم من العلم الأزلي حمل الله الناس على هذا العلم في مجال التكليف وإلا أصبح إلحاء .

فمقتضى الانكشاف كما يليق بجلال الله وكماله أنه لا يتخلف من حيث هو انكشاف تام لا من حيث إنه حمل على المراد أو المعلوم .

وقضية ربط القدرة الإلهية بالإرادة والعلم إنما هي في مجال الكون العام والكائنات المسخرة للإنسان والأفعال الاضطرارية الخارجة عن التكليف الشرعي ... ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾^(٣) .

فالأمر بالعبادة مرتب على إبداع الله الكائنات كلها وتسخيرها لبنى الإنسان ، فالعبادة خارجة عن نطاق الكلية في قوله : خالق كل شيء .. وإلا ما صح التعبير ولما جاز الأمر .

والكلية تكون بحسب السياق وليس كل كلية تكون عامة مطلقة ، فعندما قال

(١) سورة الرزلة الآيات ٧٠ ، ٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٣) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ ، ١٠٢ .

الله تعالى في حق ملكة سبأ على لسان الهمد : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(١) .

كان المراد من كل شيء يحتاجه الملوك ، وليس كل شيء على الإطلاق كالخشرات والنباتات والحيوانات والأحجار والكواكب وهلم جرا .

وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾^(٢) .

ليس المراد كل سفينة تمر وإلا ما خرق السفينة لينقذها من غضب الملك ، بل المراد كل سفينة صالحة ، وحذف ما يعلم جازئ .

مسير ومخير :

إن أفعال الله تعالى مبنية على الحكمة ، والكون كله قائم على تدبير حكيم ، وقد كتب الله على نفسه الرحمة ، ولم يخلق الكون عبثاً أو باطلاً .

والإنسان وسط هذا الكون ليس مطلق السراح ، يهيمن على الوجود ويسيطر على الكائنات ، بل هو محكوم بنواميس ثابتة حوله تحيط به وتقع عليه ، ويسير في فلكها ، فالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، والصحة والمرض ، وطول العمر وقصره ، وأجهزة بدنه وأعضاء جسمه الداخلية والخارجية ، كلها مخلوقة لله ، مسيرة بإرادته ، واقعة بقدرته ، لا يتفك عنها الإنسان .

وجميع هذه الأمور ليس يكلف بها الإنسان ، ولن يحاسب عليها ، ولا يعترية مدح أو ذم بسببها ، فهي خارجة عن نطاق المسؤولية الإنسانية .

أما التكليف والأمر والنهي ، والشرائع والأحكام فهي وحدها التي يقف الإنسان حيالها مختاراً يفعل ما يشاء بما منحه الله من طاقات ، وما هيأ له من أسباب ، وما مكن له من قوى ، وقد أراد الله تعالى للإنسان هذا الموقف ، وكلفه على هذا الأساس ، وفي كلا الحالين أمام التكليف الشرعي بالإيمان أو الكفر ، والطاعة أو المعصية لا يخرج عن المراد ، لأن الله تعالى قد منحه الحرية ، ولو شاء الله سلبها منه ما منعه أحد ، لكنه جل شأنه لم يشأ للإنسان الجبر .

(١) سورة النمل الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الكهف الآية : ٧٩ .

ومن هنا نفهم آيات كثيرة فى القرآن المجيد مثل :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٢) .

الكونى والشرعى :

يجب أن نفرق بين الكونى والشرعى فى القضاء والإرادة والأمر والكتاب ، والحكم والتحريم ... إلخ . فالكونى : هو السنن الإلهية التى تنظم الكون وتدبر أمور الكائنات ، وتجعل الحياة فى تناسق واطراد وإحكام من خلال الهيمنة الإلهية والسلطان المطلق لله تعالى .

والشرعى : هو ما يتعلق بالصلة بين المخلوق والمخالق فى إطار العبادة والتكليف والمسئولية ، وهو ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٣) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » فنحن مطالبون بالشرعى وليس بالكونى فإنه خارج عن التكليف للإنسان .

وقد ساق شارح العقيدة الطحاوية ألواناً من بيان القرآن فى هذا المجال (٤) ، نوردها ونوضحها كما يلى :

١ - القضاء الكونى فى قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ (٥) قاله تعالى قضى السموات فى يومين : أى خلقها وأحكم صنعها ، وهذا القضاء الكونى لا يسأل عنه الإنسان ولا يحاسب عليه .

(١) سورة يونس الآية : ٩٩ .

(٢) سورة الإنسان الآية ٣٠ .

(٣) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الدمشقى ص ٥٠٥ - طبعة المكتب الإسلامى .

(٥) سورة فصلت الآية ١٢ .

أما القضاء الشرعى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ^(١) ، فالقضاء هنا بمعنى الأمر ويطلب به الإنسان ويحاسب على موقفه حيال إفراد الله بالعبادة ثواباً على الإيمان وعقاباً على الكفر .

٢ - الإرادة الكونية فى قوله سبحانه : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ .. ﴾ ^(٢) .

فهذه الإرادة محض تصرف إلهى فى تدبير شئون عباده ، ولن يحاسب امرؤ على بلوغ اليتيمين الرشد واستخراج الكنز .

أما الإرادة الشرعية فى مثل قوله جل شأنه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... ﴾ ^(٣) .

فيُفسر التشريع فى أحكام الصيام حين أباح الله الفطر للمريض والمسافر ، هو إرادة شرعية يحاسب المرء على مدى التزامه بالحكم وقبوله له .

٣ - الأمر الكونى فى مثل قوله جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(٤) .

فهذا أمر يتعلق بتدبير الله الكائنات ، وسرعة استجابتها لتصرفه وفعله ، ووقوعها تحت قبضته وسلطانه ، ولن يطلب إنسان بهذا الأمر الكونى ، ولن يحاسب على خلق الله وتدبيره فى نطاق الملك والملكوت .

أما الأمر الشرعى فى مثل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ^(٥) فالإنسان مطالب به ومحاسب على مدى التزامه بالعدل والإحسان ، وصلة ذوى القربى .

٤ - الإذن الكونى فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴾ ^(٦) .

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٨٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٤) سورة يس الآية ٨٢ .

(٥) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٠٢ .

فالسحر وأعمال الشر لا تضر من تلقاء نفسها ، ولا بإرادة مرتكبيها ، وإنما إذا صادفت الإذن الإلهي سرى مفعولها ، وإذا لم يكن هناك إذن إلهي فلا قيمة لها ولا أثر منها .

فالخير والشر في الوجود ، والنفع والضرر من الكائنات مرهون بإذن الله ، ولا يملك أحد التصرف في هذا الكون ما لم يتعلق بذلك إذن الله .

أما الإذن الشرعي ففي مثل قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

فقطع نخيل الأعداء أو تركه في غزوة بنى النضير كان إذناً شرعياً ، وأمرأ إلهياً تكليفاً ليخزي الفاسقين ويتحقق به النصر للمؤمنين .

لقد حاصر المسلمون يهود بنى النضير فتحصنوا بقلاعهم وتنادوا بالحرب وظاهرهم المنافقون ، فأمر الرسول ﷺ بإحراق نخيلهم فقالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخيل وتحريره ؟ وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء .

فنزلت هذه الآية لترفع الحرج عن المؤمنين وتضاعف الحسرة على الكافرين .

هـ - الكتابة الكونية في قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (٢) .

فالكتابة هنا شأن الله وحده ، لا علاقة للإنسان بها ، فرحمة الله وسعت كل شيء ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء وهو سبحانه الرحمن الرحيم .

أما الكتابة الشرعية ففي مثل قوله سبحانه : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ... ﴾ (٣) .

فهذه كناية تتعلق بالحدود الواجب تطبيقها في العقوبات ، وسيحاسب المرء على مدى التزامه بها وتطبيقه لها ، فإن أحسن فهو المؤمن وإن أساء وبدل فهو الكافر أو الفاسق أو الظالم .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢ .

(١) سورة الحشر الآية ٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٥ .

٦ - الحكم الكونى فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ^(١) .

لقد فوض كبير إخوة يوسف أمره إلى الله فى هذا المأزق الذى وقع فيه حين تبين له سرقة أخيه ولم يستطع أن يدفع عنه شيئاً .

أما الحكم الشرعى ففى قوله تعالى : ﴿ أَجَلْتُ لَكُمْ بَيْعَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُشَلَّى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلَّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ ^(٢) .

فإن الله تعالى يشرع لعباده ما يشاء ، ويحرم ويحلل ما يريد ، وما على الإنسان إلا الالتزام والتسليم لهذا الحكم الشرعى .

٧ - التحريم الكونى فى قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ عَلَى قَزِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنْتُمْ لَا تَزِجُّوْنَ ﴾ ^(٣) .

فالقري التى أهلكها الله بذنوبهم لا يرجع أهلها إلى الدنيا ، لا لعمارتها ولا لإصلاح ما فسد من أعمالهم ، فذلك ممتنع مستحيل ، ولن يحاسب امرؤ على رجوع هؤلاء أو عدم رجوعهم فتلك إرادة الله .

أما التحريم الشرعى ، ففى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ... ﴾ ^(٤) .

فيمتنع شرعاً على الإنسان أن يأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، ومن استجاب والتزم فله الثواب ، ومن تمرد وأبى فعليه العقاب .

٨ - الكلمات الكونية فى قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ... ﴾ ^(٥) .

(١) سورة يوسف الآية ٨٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ١ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٥ .

(٤) سورة المائدة الآية ٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٢٧ .

فالكلمة هنا تتعلق بإرادة الله المتمكين لبنى إسرائيل لما صبروا وآمنوا ، ولا يترتب على المتمكين لهؤلاء ثواب أو عقاب لبشر ، ولن يحاسب أحد ويسأل لماذا مكن لهم أو لم يمكن .

أما الكلمات الشرعية ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ... ﴾ ^(١) .

فالكلمات هنا بمعنى الأمر والنهي ، فلقد كلف الله نبيه إبراهيم بتكليفات أتمها على الوجه الأكمل وأحسن التعامل معها ، فأكرمه الله وجعله إماماً .

الخير والشر :

قضية الخير والشر في الشرعيات واضحة محددة ، فما أمر الله به فهو خير ، وما نهى عنه فهو شر ، وتلك مسألة لا جدال فيها .

فالإيمان بالله والعمل الصالح والسعي في حوائج البشر ، والرفق بالكائنات هو خير مطلق .

والكفر بالله ، والإفساد في الأرض هو شر محض .

وبهذا جاءت نصوص القرآن المجيد ، فأمر الله تعالى بالمسارعة إلى الطاعة وسماها خيرات فقال :

﴿ .. فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ... ﴾ ^(٢) .

﴿ .. وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٣) .

ووصف الأنبياء المصطفين بالمسارعة إلى الخيرات فقال :

﴿ .. إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ... ﴾ ^(٤) .

وخص الله تعالى بعض أفعال الطاعة بوصف الخير ، فالرد الجميل والعفو

(١) سورة البقرة الآية ١٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٨ .

(٣) سورة الحج الآية ٧٧ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٩٠ .

والكلمة الطيبة خير ، فقال : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ... ﴾ ^(١) والتسامح والتنازل عن بعض الحق مع صفاء النفوس خير فقال : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ^(٢) وآداب الاستئذان فى البيوت خير ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٣) .

وتعفف القواعد من النساء والتزام الحشمة خير ، فقال : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٤) .

والدين كله خير ، فتقوى الله والسمع والطاعة والإنفاق خير ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٥) .

وفى تفسير الزمخشري :

﴿ خَيْرًا لَّأَنْفُسِكُمْ ﴾ نصب بمحذوف تقديره : ائتوا خيراً لأنفسكم ، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع ، وهذا تأكيد للحث على امثال هذه الأوامر ، وبيان لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد ، وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا ^(٦) .

وعكس ذلك هو شر فى العمل وشر فى الجزاء ، فالبخل شر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ^(٧) .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٨ .

(٤) سورة النور الآية ٦٠ .

(٦) الكشاف ج ٤ ، ص ١١٦

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٣ .

(٣) سورة النور الآية ٢٧ .

(٥) سورة التغابن الآية ١٦ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٨٠ .

والكفر شر .. قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ ^(١) .

والحسد شر .. قال تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ^(٢) .

وإهمال نعم الله وعدم الانتفاع بها انتفاعاً صحيحاً هو شر .. قال تعالى :
﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٣) .

* * *

أما قضية الخير والشر في الكونيات فهي نسبية ، فما قد تظنه خيراً قد يعقبه شر ، وما قد تحسبه شراً قد يتولد منه خير .. وحيث إن الإنسان قاصر عن إدراك حكمة الوجود ، وكل ما في الإنسان محدود ، سمعاً وبصراً وعقلاً ، وقوة ، فيجب التسليم لله في قضائه وقدره ، قال الله تعالى : ﴿ كَيْبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرَّةٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ ... وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَغْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(٥) .

والإيمان بسبق العلم الإلهي يمنح الإنسان سكينه نفسية وهدوءاً قلبياً وراحة بال ، وإلى ذلك أشار القرآن المجيد في قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۚ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ^(٦) .

(١) سورة البينة الآية ٦ .

(٢) سورة العلق الآية ٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٢٢ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

(٥) سورة النساء الآية ١٩ .

(٦) سورة الحديد الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

ومن أدب الحديث أن الشر منفرداً لا يضاف إلى الله تعالى بل إما أن يدخل في عموم الحديث كما في قوله جل شأنه : ﴿ .. وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَتَكَلَّمُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ عِنْدَكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (١) .

أو يذكر بحذف الفاعل كما تفتنت الجن لذلك فقالوا :

﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (٢) .

أو يضاف إلى المخلوق كما قال العبد الصالح لموسى عليه السلام في خرق السمينة ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ، وفي قتل الغلام ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (٣) .

وحين تحدث العبد الصالح عن إقامة الجدار قال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ وكما قال إبراهيم عليه السلام في معرض تعداد نعم الله عليه :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٤) .

فنسب الخلق والهداية والإطعام والسقيا والشفاء والإماتة والإحياء والمغفرة إلى الله عز وجل ، ونسب المرض إلى نفسه ولم يقل أمرضني !

التفسير القرآني :

القرآن المجيد يفسر بعضه بعضاً ، فالنصوص المطلقة تحمل على المقيدة ، فإذا قرأنا آيات كريمات مثل قوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) .

- | | |
|------------------------------|-------------------------------------|
| (١) سورة النساء الآية : ٧٨ . | (٢) سورة الجن الآية ١٠٠ . |
| (٣) سورة الكهف الآية : ٨١ . | (٤) سورة الشعراء الآيات . ٧٨ - ٨٢ . |
| (٥) سورة البقرة الآية ٧٠ . | |

﴿ .. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾^(١) .

﴿ .. كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... ﴾^(٢) .

فإننا نفهمها في إطار آيات كريمات أخرى مثل قوله جل شأنه : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾^(٣) .

﴿ فِيمَا تَقْضِيهِمْ فَيَقْضِيهِمْ لَعَنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ... ﴾^(٤) .

﴿ .. فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ... ﴾^(٥) .

وهناك في عرف البيان القرآني التيسير لليسرى والتيسير للعسرى ، وهما مرتبان على ما يبدأ به الإنسان في نطاق التكليف الشرعي وما يختار لنفسه ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾^(٦) .

وقد حاول البعض انتزاع آيات من سياقها وصرفها عن حقيقة مرادها ، فقالوا إن قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾^(٧) صريح في خلق الله لعمل الإنسان ، وإن قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾^(٨) صريح في نفي نسبة العمل إلى الإنسان .

والأمر بخلاف ذلك ، فإن لفظ « ما » في قوله : ﴿ وما تعملون ﴾ موصولة : أى والذي تعملونه ، فإبراهيم عليه السلام يحتج على قومه بأن الله تعالى خلقهم وخلق المنحوت شجراً كان أو حجراً ، فكيف يعبدونه من دون الله بعد أن عملوه صنماً واتخذوه إلهاً ، ولا يعقل أن تكون « ما » مصدرية : أى وعملكم لأنه يؤدي

(١) سورة الكهف الآية : ١٧ .

(٢) سورة المدثر الآية : ٣١ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٦ .

(٤) سورة المائدة الآية : ١٣ .

(٥) سورة الصف الآية : ٥ .

(٦) سورة الليل الآيات ٤ - ١٠ .

(٧) سورة الصافات الآية ٩٦ .

(٨) سورة الأفعال الآية ١٧ .

إلى بطلان الاحتجاج عليهم .. فكيف ينكر عليهم ما خلقه الله ؟

وقد اعترف الإمام الرازي في تفسيره بأن الآية لا تصلح للاستدلال على خلق الأعمال والأولى ترك الاستدلال بها لما يلي :

١ - أنه تعالى قال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ، ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً للعبد .

٢ - أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق تلك الأصنام ، والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق ، فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الأصنام ، لا جرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم ، فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها .

٣ - لئن سلمنا أن لفظة « ما » مع ما بعدها في تقدير المصدر لكنه قد يكون بمعنى المفعول بدليل قوله تعالى ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ فالمراد بقوله ﴿ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ المنحوت لا النحت ، لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت ، فوجب أن يكون المراد بقوله ﴿ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر ^(١) .

وفي مسألة الرمي فإن الله تعالى أثبت الرمي لنبيه ﷺ في قوله : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ فعلم أن الرمي المنفي غير الرمي المثبت ، ذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء ، فالنبي ﷺ قد بدأ الرمي لكن إصابته للهدف موقوفة على عوامل كثيرة ، الله صانعها وخالقها ولا دخل للرامي بها ، فالإنسان يسعى ويتخذ الأسباب ويدع العواقب لله أحكم الحاكمين .

* * *

(١) التفسير الكبير ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

خاتمة

قدمنا - بحمد الله تعالى - الإلهيات في العقيدة الإسلامية انطلاقاً من وجود الله تعالى وتوحيده ، ومروراً بالأسماء الحسنى والصفات العلا ، وانتهاءً برؤية الله جل شأنه وقضائه وقدره ..

ووقفنا مع القارئ الكريم أمام بحوث ودراسات تغلغلت في كافة الفرق الإسلامية ، وناقشت مذاهب وأدياناً شتى .
وكان رائدنا البحث عن الحقيقة في مسالك هؤلاء وأولئك ، والتزمنا أمانة العرض ، وحسن الجدل ، ويسر الكلمة ..

وآثرنا الدعوة إلى التقارب بين المسلمين الذين تجمعهم عقيدة التوحيد وأصول الدين ، وضوابط التفكير السوى مهما كانت اتجاهاتهم المذهبية ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ..

* * *

المؤلف في سطور

دكتور محمد سيد أحمد المسير .

- أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر بالقاهرة .
- عمل أستاذًا مشاركًا ، ثم رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كلية التربية - فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ - ١٩٨٧ م .
- أغير أستاذًا في كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى بمكة المكرمة من سنة ١٩٩٣ - ١٩٩٨ م .
- شارك في عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف .
- شارك في عضوية جمعية الدراسات الإسلامية بالزمالك .
- يشارك في عضوية الجمعية الفلسفية المصرية .
- يكتب المقالات في المجلات والصحف الإسلامية في مصر والعالم الإسلامي .
- يشارك في البرامج الدينية الإذاعية والتلفزيونية لمصر والعالم الإسلامي .
- كان الأول على طلاب الجمهورية في الشهادة الإعدادية الأزهرية عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م ، من معهد شين الكوم .
- كان السادس عشر على طلاب الجمهورية في الثانوية الأزهرية عام ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، وكانت المرحلة الثانوية يومئذ خمس سنوات .
- حصل على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف في الشهادة العالية من قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- حصل على الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٨٧ م .
- شارك في المؤتمرات والملتقيات الفكرية مثل :
 - * المؤتمر الحادى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في رجب ١٤٠٨ هـ .
 - * ندوة الفقه الإسلامى فى سلطنة عمان فى شعبان ١٤٠٨ هـ .

- * الموسم الثقافي لشهر رمضان في دولة الكويت ١٤٠٩ هـ .
- * الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبى فى بغداد من ٢٢ - ٢٤ لشهر جمادى الأولى ١٤١٠ هـ .
- * المؤتمر الإسلامى العالمى لمانصرة العراق المنعقد فى بغداد فى شهر ذى القعدة ١٤١٠ هـ (قبل الغزو) .
- * المؤتمر القومى الذى نظمه المركز العربى للإعلام بالقاهرة تحت عنوان « الإدمان قضية العصر » من ١٨ - ٢٠ من فبراير ١٩٩٠ م .
- * المؤتمر الإسلامى العالمى لمناقشة أزمة الخليج الذى نظمته رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة من ٢١ - ٢٣ من صفر ١٤١١ هـ .
- * الندوة العالمية لمناقشة حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب فى طهران بتاريخ ٩ - ١٢ من سبتمبر ١٩٩١ م .
- * المهرجان الإسلامى العالمى فى الكويت للإفراج عن الأسرى والمحتجزين فى سجون العراق من ١٩ - ٢١ يناير ١٩٩٢ م .
- * الموسم الثقافى لشهر رمضان فى دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤١٢ هـ .
- * ندوة الإعلام الإسلامى بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل ، التى نظمتها مؤسسة إقرأ الخيرية بالتعاون مع جامعة الأزهر فى ذى القعدة ١٤١٢ هـ - مايو ١٩٩٢ م .
- * سافر مع وزير الأوقاف المصرى ضمن وفد رسمى لزيارة دول الكومنولث الإسلامية بتاريخ ١٣ - ٢٥ سبتمبر ١٩٩٢ م .
- * المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من ٢ - ٥ لشهر جمادى الأولى سنة ١٤١٣ هـ .
- * مؤتمر التوجيه الإسلامى للعلوم الذى نظمته رابطة الجامعات الإسلامية بالاشتراك مع جامعة الأزهر سنة ١٤١٣ هـ .
- * الندوة العلمية « فى قلب الشرق : قراءة معاصرة لأعمال لوى ماسنيون » ، التى نظمها قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة مع المركز الفرنسى للثقافة والتعاون يومى ١٤ ، ١٥ / ٣ / ١٩٩٩ م .
- * المؤتمر الدولى الرابع للفلسفة الإسلامية فى كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، تحت عنوان « الإسلام فى عصر العولمة » بتاريخ ١٨ ، ١٩ من المحرم ١٤٢٠ هـ - ٤ ، ٥ من مايو ١٩٩٩ م .

كتب للمؤلف

فى العقيدة :

- ١ - فى نور العقيدة الإسلامية .
- ٢ - أدب الحديث عن الله .
- ٣ - علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية .
- ٤ - التمهيد فى دراسة العقيدة الإسلامية .
- ٥ - الإلهيات فى العقيدة الإسلامية .

فى الفلسفة :

- ٦ - الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة .
- ٧ - المجتمع المتالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه .

فى الأديان :

- ٨ - المدخل لدراسة الأديان .
- ٩ - أصول النصرانية فى الميزان .
- ١٠ - أوروبا والنصرانية .
- ١١ - المسيح ورسائله فى القرآن .
- ١٢ - عبادة الشيطان فى البيان القرآنى والتاريخ الإنسانى .

فى الفرق الإسلامية :

- ١٣ - قضية التكفير فى الفكر الإسلامى .
- ١٤ - الحوار بين الجماعات الإسلامية .
- ١٥ - مقدمة فى دراسة الفرق الإسلامية .

فى السيرة النبوية :

- ١٦ - الرسول فى رمضان .
- ١٧ - الرسول حول الكعبة .
- ١٨ - الرسول والوحى .

- ١٩ - الرسول وقضايا المجتمع .
- ٢٠ - الرسول والمواقفات .

فى الشريعة الإسلامية :

- ٢١ - محاورة تطبيق الشريعة .
- ٢٢ - نحو دستور إسلامى .
- ٢٣ - أخلاق الأسرة المسلمة .

تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور سيد أحمد رمضان المسير - رحمه الله تعالى :

- ٢٤ - السنة مع القرآن .
- ٢٥ - السنة المطهرة .
- ٢٦ - إلزام القرآن للماديين والمليين .
- ٢٧ - دراسات قرآنية .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الفصل الأول : وجود الله تعالى وتوحيده	٩
* المبحث الأول : آيات الأنفس والآفاق	١١
١ - أطوار الجنين	١٥
٢ - أطوار حياة الإنسان	١٦
٣ - آية الليل والنهار	١٧
٤ - آية الشمس والقمر	١٨
٥ - آية النوم	١٩
٦ - آية الدواب والطيور	٢١
٧ - آية الأرض	٢٥
٨ - نعمة الماء	٢٧
٩ - الجبال الراسيات	٣١
* المبحث الثاني : الإيمان ضرورة حياة	٣٣
- الإيمان ضرورة علمية	٣٥
١ - كوبرنيكوس	٣٥
٢ - برونو	٣٥
٣ - جاليليو	٣٦

٤١	- الإيمان ضرورة نفسية ..
٤٥	- الإيمان ضرورة أخلاقية ..
٤٨	- الإيمان ضرورة تاريخية ..
٥١	- تنبيه وتقدير
٥٣	* المبحث الثالث : توحيد الله تعالى ..
٥٥	- الوحدانية في الإسلام ..
٥٩	- المخالفون في الوحدانية ..
٥٩	١ - اليهود
٦٠	٢ - النصارى
٦١	٣ - المجوس
٦٢	٤ - عبدة الأصنام
٦٢	٥ - الصابئة
٦٤	٦ - القائلون بالحلل والائحاد
٦٥	- دلائل التوحيد في سورة البقرة
٦٥	١ - فضل سورة البقرة
٦٦	٢ - إبداع الصنع
٦٧	٣ - انفراد السلطان
٦٩	٤ - وحدة المعبود الحق
٧١	٥ - التفرد بصفات الجلال والكمال
٧٢	٦ - حوار في الله ومع الله

الموضوع	الصفحة
٧ - أحدية الله فى الخلق والجزاء ...	٧٤
• المبحث الرابع : جدال فى الله	٧٧
- أهمية الجدل ..	٧٩
- أنواع الجدل ..	٨١
- دليل الحدوث ..	٨٣
- اعتراض الفلاسفة الإسلاميين ..	٨٧
١ - قضية الجوهر القرد ..	٨٨
٢ - قضية التسلسل ...	٨٩
٣ - الإرادة والقدرة الإلهيتان	٩٠
- دليل الإمكان ..	٩٢
- إشارات ابن سينا ..	٩٣
- دليل التوارد والتمانع ..	٩٦
- الوسوسة ..	٩٩
الفصل الثانى : الأسماء والصفات	١٠٣
- أهمية الأسماء والصفات ..	١٠٥
- بين التقيد والإطلاق ..	١٠٨
- اسم الله الأعظم	١١٤
- بين الاختصاص والعموم ..	١١٩
- جماع المعانى .	١٢١
- الصفات الإلهية بين العقل والنقل ..	١٢٤
	٢٤٩

الموضوع	الصفحة
- الصفات العقلية ..	١٢٤
- وأخر متشابهات ..	١٢٧
١ - التفويض ..	١٢٧
٢ - التشبيه ..	١٣١
٣ - التأويل ..	١٣٣
٤ - الإثبات بضوابط ..	١٣٨
- نموذج تطبيقي ..	١٤٠
- تعقيب ورأى ..	١٤٢
١ - حكمة المتشابه ..	١٤٢
٢ - نبذ التشبيه ..	١٤٤
٣ - حرية الاختيار ..	١٤٥
٤ - وجهة نظر ..	١٤٥
الفصل الثالث : رؤية الله تعالى ..	١٤٩
- تمهيد ..	١٥١
- مذاهب العلماء ..	١٥٢
- النصوص القرآنية في الرؤية ..	١٥٦
١ - سؤال بنى إسرائيل	١٥٦
(أ) موقف المعتزلة ...	١٥٦
(ب) موقف أهل السنة ..	١٥٧
٢ - نفى إدراك الأبصار ...	١٥٧

الصفحة	الموضوع
١٥٨	(أ) موقف المعتزلة
١٥٨	(ب) موقف أهل السنة
١٥٩	٣ - موسى عليه السلام فى الميقات
١٦٠	(أ) استدلال المعتزلة
١٦١	(ب) استدلال أهل السنة
١٦٣	٤ - لقاء الله تعالى
١٦٣	(أ) موقف المعتزلة
١٦٤	(ب) موقف أهل السنة
١٦٤	٥ - الحسنى وزيادة ..
١٦٥	(أ) موقف المعتزلة
١٦٥	(ب) موقف أهل السنة
١٦٦	٦ - النظر إلى الله تعالى .
١٦٦	(أ) تفسير المعتزلة
١٦٨	(ب) تفسير أهل السنة
١٦٨	٧ - الملك الكبير
١٧٠	٨ - المحجوبون عن الله
١٧٠	(أ) موقف المعتزلة
١٧١	(ب) موقف أهل السنة
١٧٢	- أحاديث الرؤية
١٧٤	- ولنا تعقيب

الموضوع	الصفحة
١ - صلاح المعرفة	١٧٤
٢ - خلاف لفظي	١٧٦
٣ - بعيد عن الأصول	١٧٧
- على هامش الرؤية	١٧٩
١ - الرؤية في الدنيا	١٧٩
(أ) موقف السيدة عائشة	١٧٩
(ب) مذهب ابن عباس	١٨٤
٢ - رؤية الله تعالى مناماً	١٨٦
٣ - أنواع الرؤية	١٩٠
الفصل الرابع : القضاء والقدر	١٩٣
- القضاء في البيان القرآني	١٩٥
- القدر في البيان القرآني	١٩٥
- الإيمان بالقضاء والقدر	٢٠٢
- النشأة التاريخية	٢٠٥
١ - موقف المشركين	٢٠٥
٢ - موقف المتأقين	٢٠٦
٣ - موقف الصحابة	٢٠٨
- نظرة مذهبية	٢١٢
١ - محل النزاع	٢١٢
٢ - الجبرية	٢١٢

الموضوع	الصفحة
٣ - القدريّة .	٢١٣
٤ - المعتزلة	٢١٤
٥ - الأشاعرة	٢١٦
- جدل مذهبي ..	٢١٨
- بعيداً عن المذاهب	٢٢٣
١ - الجبر مرفوض	٢٢٣
٢ - الأمر مقدور	٢٢٤
٣ - مسير ومخير	٢٢٥
٤ - الكوني والشرعي	٢٢٦
٥ - الخير والشر ...	٢٣٠
٦ - التفسير القرآني .	٢٣٣
خاتمة	٢٣٦ ...
المؤلف في سطور	٢٣٧
كتب للمؤلف	٢٣٩
الفهرس	٢٤١ ...

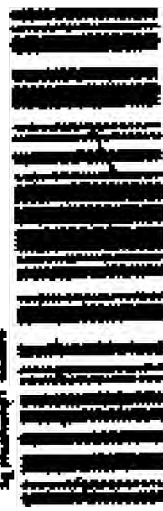
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٠٤٢٦ / ٩٩ م

دار الناصر للطباعة والإبـطاعة
٢ - شارع نـشـاطى شـعـرا القـتـاـة
الرقم البريـدى - ١١٢٣١

للطببع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازى - القاهرة

دار الأجنحة

هاتف . ٣٥٥١٧٤٨ - ٣٥٤٤٧٤٨ - فاكس ٣٥٤٦٠٣١
ص.ب . ٤٧٠ - السكاهرة - الرمز البريدي ١١٥١١



0163558

To: www.al-mostafa.com